الترجمة الكاملة
لموسيقى عبد الوهاب

- **Author**: Abdou Gubeir
- **Title**: Abdul Wahab, Omnipresent Melodist In The Streets of Cairo
- **First Edition**: 2015
- **Cover Design by**: Amr El Kafrawy

- المؤلف: عبده جبير
- العنوان: الترجمة الكاملة لموسيقى عبد الوهاب في شوارع القاهرة
- الطبعة: الأولى 2015
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

رقم الإيداع:
٢٠١٤ / ٢٣٢٤٠

الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977 - 765 - 019 - 9

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system، or transmitted in any form، or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

4 Mohamed Mazloum st. - intersected with Houda Shaarawy - CAIRO – EGYPT
Tel: +202-2392-6114 Fax: 00202-2392-5917
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com
٤ ش محمد مظلوم - تقاطع هدى شعراوي - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٢٦١١٤ فاكس: ٢٣٩٢٥٩١٧

عبده جبير

الترجمة الكاملة لموسيقى عبد الوهاب في شوارع القاهرة

شذرات من ورشة الكتابة
واسكتشات ما قبل الثورة

آفاق للنشر والتوزيع
لاماتان

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

جبير، عبده.

عبده جبير: موسيقى عبد الوهاب في شوارع القاهرة

مقالات

عبده جبير – ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2015

272 ص، 20 سم.

رقم الإيداع 23240 / 2014

الترقيم الدولي 9 – 019 – 765 – 977 – 978

1 – مقالات

2 – جبير، عبده

،،.. كل النصوص العظيمة تحتوي علي ترجمتها الممكنة بين السطور..،،

فالتر بنيامين- مهمة المترجم

***

،،..فالعالم حروف مخطوطة، مرقومة في رق الوجود المنشور، ولا تزال الكتابة فيه دائمة أبدا لا تنتهي..،،

ابن عربي

***

،، الشذرة ليست أكثر من كسرة، من شظية.. من فالق منتزع من هاويته المحدقة عاليا، أو من حالة صدع.. بحيث تتماوج العناصر المكونة له متباعدة، ومتمايزة، وكأن كلا منها له كينونة خاصة به،

إن وراء هذا الانقسام عودة إلي الطبيعة الفعلية للشيء اللامتناغم،،

بتصرف من مقدمة كتاب جاك دريدا- المهماز- ت: إبراهيم محمود

تقدمة

،، هل هي نوستالجيا؟
نعم هي كذلك، هي نوستالجيا.
هي حنين.

.. فلا زلت أذكر تلك اللحظات المطبوعة في ذاكرتي (ونفسي، أي روحي) وأنا في عمر الزهور (السادسة؟، الثامنة؟، لا يمكنني الجزم الآن) بعد العصا ري، حيث كنت، أذكر، لا أعرف كيف، كنت أجلس علي شباك بيتنا وأدلدل رجليّ وأنا أمسك بأسياخ الشباك، في الطابق الثالث من بيتنا الواقع في شارع الجبرات، في مدينة إسنا، محافظة قنا (الأقصر فيما بعد)، في وسط البلد، علي مقربة من البربا (معبد إسنا).

هذه النافذة كانت مفتوحة علي البحري، لذا كانت أمي (المرأة الفاتنة) تحط الريحة (البارفان) في العصاري، وهي تلبس قميص نومها الأحمر عاري الذراعين وهي تسدل شعرها الأسود

الطويل الداكن علي كتفيها، وعلي الصدر الريان تتدلي مقرنصات الكردان، وفي أذنيها قرط المخرطة الرنان، وتضمني بسمانة كتفها اللينة وهي جالسة بركبتيها وساقيها الجميلتين، المحلاتين بالخلخال الذهب يشخلل، علي السرير المسنود للحائط تحت الشباك (النافذة) وهي تهمس بالغناء مع عبد الوهاب وصوته (وهو يغني) يأتي مع النسيم العليل من ميكرفون سينما إسنا التي تبدأ في بث الأغاني، لتعلن اقتراب موعد الافتتاح، قبل عرض أفلامها لتجذب الجمهور لحضور البيروجرام المكون من ثلاثة أفلام في هذه السينما الصيفي التي كانت مفتوحة علي شارع البحر (النيل) بجوار البورصة، علي البحر.

أمي كانت تغني مع عبد الوهاب:

خي

خي

حبيبي آسي ليه يا خي

قلبي، قلبي، خوفي عليه

واعمل ايه ياخي

وأمانه ان كنت تقابلو تقولو:

الفرح ناسيني

وتقولو يشاور عقله

وينسي يوم ويجيني

وآه، وحتى الآن، وبعد مرور السنين الطويلة، لا زلت، كلما سمعت عبد الوهاب تعود إلي ذاكرتي تلك اللحظة.

يعود صوت أمي ـ الأنثى الخالدة ـ بكل أنوثته ليهفهف من حولي.

بعدها وطوال عمري، وحين كنت أمشي في شوارع القاهرة، أنا(و صاحبتي) في العصاري في شوارع جاردن سيتي نتمشي حتى نصل للكورنيش ونواصل التمشية إلي كوبري قصر النيل ثم نصل للجنينة (جنينة الحرية أو جنينة الأندلس) لنجلس هناك وعبد الوهاب يغني حولنا:

خي

خي

حبيبي آسي ليه يا خي

قلبي، قلبي، خوفي عليه

واعمل ايه ياخي

وأمانه ان كنت تقابلو:

تقولو الفرح ناسيني

وتقولو يشاور عقله

وينسي يوم ويجيني

لذا فإنني كنت، دوما، وأنا مبسوط، وأنا أتمشي، أمشي، وأتصعلك، وأتصعلك، في شوارع القاهرة، أستمع لصوت عبد

الوهاب يفوح من حولي ليشمل العالم.

بالطرب، بالغناء الجميل، بالصوت الساحر، بالنغم الخالد.

من هنا جاء عنوان هذا الكتاب الذي ـ بالمناسبة ـ كان من الممكن أن يسمي «كناسة الدكان» لولا أن مولانا يحيي حقي، سبق واستخدم هذا الاسم عنوانا لأحد كتبه الجميلة.

هذا الكتاب علي أية حال يضم مختارات من الأعمدة التي نشرت في عدة صحف ومجلات مصرية وعربية (الهلال، البديل، القبس، الشرق الأوسط، الحياة، صوت الكويت،الأهرام العربي، الحدث، الرجل، ألخ) علاوة على شذرات من هنا وهناك (من كناسة الدكان نفسه) تلك التي رأيت أنها لم تفقد معناها بمرور الزمن، وأنها من الممكن أن تكون مفيدة،لشخص أو آخر، لكن الشذرة الأولي لم تنشر من قبل، وهي آخر ما كتب في هذا الشأن، ونلفت النظر إلى أن أغلب هذه الشذرات تم تغيير عناوينها التي نشرت بها سابقًا في الدوريات، بما يقتضيه النشر في كتاب.

لذا لزم التنويه،،

أبطال الخيال الإعلامي

الصلات الموهومة :

مذ تربصت الصورة بالناس، تحول المذيع التلفزيوني (ولا أعرف لم لم نخترع في عربيتنا حتى الآن كلمة أخري نأخذها من التلفزيون، فها نحن نتشبث بالإذاعة التي هي الراديو، علي الرغم من تناقض ذلك بين الصوت، والصورة) إلي مقام النجوم، في أحوال عديدة، هي المقصودة بالرصد هنا، دون أي موهبة خاصة، إلا «اللماضة» (أي القدرة علي مقاطعة الضيف، والتحكم في مسار الكلام، بل وحتى انتزاع أغلب الوقت ولو من فمه، وهو ما يصور علي انه قدرة خاصة) والقدرة علي إلباس الفضيحة ثوب التحقيق، والخبر الجارح المأخوذ ساخنا من الإشاعة، إلي سلة الأخبار ، من العادي إلي غير العادي (ليس الخبر أن يعض الكلب الإنسان، وهلم جرا) وفي حياتي رأيت أكثر الصحفيين فشلا، أكثرهم ضعفا، وأقلهم مبدئية، وقد صعدوا بسرعة الصاروخ إلي مصاف النجوم، بوم، التلفزيونيين.

من هنا تبدأ المأساة، لأنك ستجد أقوالا كثيرة مقبلة، هنا، بين دفتي هذا الألبوم، ألبوم الكلام، عن المديوكر الذي هو قليل الموهبة أو ضحل القدرات، وهو يتحالف مع أمثاله، في كل مجال، ببساطة لأنه «يفهم عليهم» كما يقول الشوام، وبالتالي، يفهمون عليه، ويعتبر الأعلى قدرة، شخصا غامضا «مكلكعا»، صعبا، غير مفهوم له، لذا يستبعده من عالمه، وعالمنا بالتالي، ومن هنا يكون الخطر، إذ نجد نفسنا محاطين بمعدومي المواهب، ليل نهار، وأحيانا تنجح العصابة في تصوير الحياة، هي علي هذا النحو، علي هذا المستوي، ابتغاء رضاء المديوكر من المديوكر، لكنه من جهة أخري يذكرنا بالحكمة الشعبية التي هي أصل وفصل، حين تصف لنا هذا بـ «صاحب العين البيضاء»،أو الشرشوحة، صاحبة العين البيضاء أيضا،(والتي سيرد بيانها لاحقا) فهي أكثر الأناس «شرفا» وهي التي لا تستطيع الوقوف أمام ادعائها بالصوت الحياني، العالي، بأنها الأكثر خلقا،طبعا، وهي أكثر(هم) ردحا، لماضة، زعقا، بالقطع.

الأنكي: أن أكثرهم سماجة يتولون برامج الفكاهة، والأغرب أنك تجد من يضحك علي سماجتهم، وعلي رأس هؤلاء، المسئول: من قرر أن يبتلينا بهم، هو أكثر الناس ضحكا علي سماجتهم.

أعرف اليوم، من تحول وجودهم الدائم، لا فقط، مصدر

إزعاج للبشرية، مصدرا أساسا من مصادر الملل، بل وأضحي متفرغا للم محصول وافر من المال، لدرجة أن أحدهم اشتكي من تعبه اليومي وهو يعد الحصيلة اليومية من النقود، بعد أن يكون قد قفز كالبرغوث من قناة إلي أخري طوال اليوم وطرف من الليل إلي الفجر، وهو يدلي بكلامه السطحي الذي يقدمه كخبير استراتيجي لايشق له غبار، وآخر، من نفس النوع، حين سئلت زوجه: أين ذهب، قالت انه حمل الحقيبة وخرج ولن يعود قبل أن يملأها بالبنكنوت.

ليست هذه هي المشكلة، لكن الأنكي أن أطراف العصابة يتوهمون أنهم يقيمون بيننا، نحن جمهور الشاشة الصغيرة، وبينهم، صلة، مؤثرة، هم يقودوننا إلي طريق الصلاح، طريق الحقيقة.

والحقيقة أنهم يجعلون من هذا الاختراع البشري المذهل، التلفزيون، مصدرا للأمراض النفسية، والعقلية حتى، والبلوى هو ما يخص نصيب الصغار من هذه المأساة (واليوم يمكنك أن تجد عشرات الأبحاث والكتب والمؤتمرات عن هذه المأساة نفسها) فلن تعدم طفلا يجد في هذا «النجم» مثلا يحتذي به ليجيب عن سؤال ماذا تود أن تصبح في المستقبل،فيقول: خبير استراتيجي.

غير المتأمل:

حين تتم عملية سلب إرادتك بشكل منتظم ويومي، وربما

تدفعك الأحداث للخضوع لهذا السلب، والاستجابة (كما حدث للمصريين، بل ومن اهتم بأمرهم، منذ الجولة الأولي للثورة،في الخامس والعشرين من يناير 2011 م، مرورا بالموجة الكاسحة في الثلاثين من يونيو 2013 م) نقول يدفعك ما يجري لإدمان «المتابعة» ، من قناة إلي أخري، فأخري، خوفا من أن يفوتك شيء، إلي أن تخرج من حالة التأمل التي هي ضرورة لاقتناص الأفكار، والتفكير في تجميعها للوصول إلي نظام للحياة ينبني علي إبداع جديد، وحلول جديدة، وبالتالي ينجح الإخطبوط، العدو، في شغلك عن عملك الأساسي، وهو ما يمكن ملاحظته في كف الكثير من المبدعين منذ الأحداث الدامية التي تلت 25 يناير 2011م عن الاستمرار في إبداعهم، وهو ما تتضافر جهود المديوكر مع جهود الدعوة «الماضوية» التي تود أن تنجح في منع المبدعين من الاستمرار في عطائهم، للوصول إلي هدفها، فهذه العصابة المتنوعة تهدف إلي إيقاف عجلة العطاء المؤدي إلي تقدم المجتمعات وتطور أفكار الناس والغوص في مجاهل الجهل والتخلف، فهم لا يستطيعون النمو أو السيطرة إلا في أجواء التخلف والجهل، الذي يؤدي، أوتوماتيكيا، إلي أن يتحول المجهل إلي عضو فاعل في عصابات الإرهاب الفعلي الذي يعتاش فقط علي الدم بشكل مباشر وواضح، فهو يكون قد تحول عند اكتمال غسل دماغه إلي مصاص دماء، وإن رفع

شعارات الدعوة التي سرعان ما تكتشف أنها دعوة للموت، وحتى لانتحاره هو نفسه تحت مسمي الاستشهاد، الذي لا يمكن بلوغه إلا بقتل الآخر، الشريك في الأرض والماء والنار والهواء وكل عطايا الطبيعة، لأنها موكولة لحالة واحدة هي دفع العدو عن الأوطان.

الوجود في الخارج:

هنا ملاحظات؛

الأولي،

الأهم، الأولي بالرعاية، أن نقول: المفارقة أن الثوار الشباب المصريين لم يضعوا في حسبانهم أبدا هذه الوسيلة (التلفزيون) لم يستخدموها أبدا في أي مرحلة، لا في التحضير أو الدعوة أو الخروج الكبير، بل هم كانوا مجبرين علي الكلام فيها، حين أضحي السكوت خطرا عليهم، لكنهم لجأوا لوسائل التواصل الاجتماعي، عبرها عقدوا الصلات، وتبادلوا الآراء، وحشدوا الجموع، (هم إذن ليسو مديوكر،و أبدا لم يكونوا من عاطلى المواهب) بل أثبتوا أنهم متفوقون علي أولئك الكسالى، الذين للأسف سرقوا مجهودهم وعرقهم، بل وفي البطولة سرقوا حياتهم نفسها (فعليا)، وأطرافهم (بالفعل) وأهم هذه الأطراف كانت عيون المئات منهم، بله الأيدي والأرجل والأصابع.

الثانية،

أن هناك حقيقة يراد التغطية عليها الآن، وهنا، بقصد فت عضد القوي المدنية هي أن آلافا من الشابات والشبان بدءوا بالفعل ومن أغلب الأحزاب المدنية إدراك أهمية الالتحام بالناس، النزول إلي الناس، ولذلك هم يحققون ما يمكن تسميته، بداءة، منتدى عام، نشط للغاية وفعال، وكان له الدور الأكبر في ظهور ظاهرة «تمرد» فهم أبدا ليسوا عاطلين عن العمل، وهم أبدا لم يقتصر عملهم، علي جمع التوقيعات، علي الرغم من أهميتها، إلا أنهم خصبوا التربة بحواراتهم المفتوحة مع الناس، ليسحبوا بالفعل أعدادا هائلة من الجماهير من جعبة المتأسلمين، بحيث تناقصت أعدادهم بشكل متزايد، وهنا لا أعني فقط الأخوان، بل وجل الحركات المتأسلمة التي إما أن توقف نمو بعضها، أو تناقصت أعداد بعضها الآخر، وهو العمل الأكثر أهمية وخطورة من كل ما جري في هذا المجال، بل انه الكفيل بتقوية الأحزاب المدنية لتبدأ في ملء الفراغ، واكتساح ساحة الأغلبية، وهو ما يمكن المراهنة عليه في أي انتخابات مقبلة.

الثالثة،

لا يمكن أن يفوتك أن الأصوات التي كنا نسمعها عبر الشاشات للجموع المحتشدة في الميادين، في الثلاثين من يونيو، كانت أصوات نسائية، وقد تصادف، ليلة الثلاثين من يونيو

2013 م، أنني كنت في ندوة خارج البلاد للمشاركة في لجنة تحكيم الرواية العربية التي يمنحها مهرجان أصيلة في المغرب (وبالصدفة حصلت عليها امرأة عربية مبدعة هي الفلسطينية سحر خليفة) فلم يكن ممكنا الاعتذار، وقد فوجئت بنزلاء الفندق الذي كنت أشاهد المظاهرات في قاعته الخارجية وهم يسألون ، هل هؤلاء (المتظاهرين) من الفتيات فقط؟ ثم يعقبون، لم لا نسمع سوي هتاف النساء؟ والحقيقة أن المرأة المصرية،الابنة المخلصة للدولة الوطنية، و التي ارتفع صوتها عاليا بكل كبرياء، كان لها دور أساس في هذه الموجة الحاسمة من الثورة المصرية، ربما لأنها اختبرت بما لا يدع مجالا للشك تهميش دورها بشكل يكاد يكون كاملا في خطط الإخوان التي كان يجري تنفيذها، إما علي مستوي التشريعات أو في الواقع العملي، وقد تمثل هذا في حوادث لا حصر لها من الاعتداء علي النساء السافرات في الشوارع والمصالح الحكومية، وللأسف من قبل نساء كما رجال من الفاشيين والفاشيات المتأسلمين، لذا فقد وضعت المرأة المصرية نفسها في بداية الكتاب، كرقم صعب لا أظن أن أحدا أضحي قادرا علي دفعه للخلف.

الرابعة،

لقد أصبت أنا نفسي، وبمجرد انتهاء الأيام الأولي الحاسمة من ثورة الثلاثين من يونيو، وانقشاع غمة الإخوان، إلي حالتي

الطبيعية، بالنسبة لعملي ككاتب، فوجدت نفسي مدفوعا للدخول في حالة كتابة متدفقة، وأردت أن أختبر ما إذا كانت هذه حالتي لوحدي، فإذا بي أفاجأ بأن كل أصدقائي وزملائي الكتاب والفنانين قد عادت إليهم الروح، عادوا إلى ورشهم ومعاملهم وبدءوا العمل بنشاط ربما أكبر بكثير مما كانوا عليه، حتى، قبل ثورة 25 يناير 2011م المسروقة.

وهنا علينا أن نلفت النظر بأن هذا المجال (الإنتاج الثقافي) هو مجال تفوق أكيد للجبهة المدنية، لأنه لا الإخوان أو أي من الجماعات المتأسلمة الأخرى لديه أي كوادر من المبدعين، كلمة واحدة وعلي طول الخط، فهي ساحة تفوق حاسم للثقافة المصرية التي هي في مقام الريادة من الثقافة العربية طوال الوقت، ولا أعني هنا مجرد تفاخر أجوف بل هذا تقرير حقيقة بالأرقام والأعداد والأسماء.

وهؤلاء المبدعون من باب أولي كانوا يدركون دوما، وهم يدركون اليوم أكثر، أهمية أن لا يكون أي منهم جزءا من ظاهرة «أبطال الخيال الإعلامي» التي يمكن أن تكون قاتلة لأي مبدع حقيقي.

هذا لا يعني أن الأعلام المصري الشريف، وعلي رأسه عدد كبير من مذيعي ومذيعات التلفزيون الموهوبين لم يكن لهم دور تنويري، بل ومحرض علي الثورة، بل كان هؤلاء الشرفاء في

مقدمة الصفوف، والكثيرون منهم دفعوا الثمن غاليا من حريتهم وتهديد حياتهم،وكانوا هدفا من أهداف الجماعة الإرهابية،ولو قدر للأعداء الانتصار في المعركة لكانوا علي أعواد المشانق فعلا، فقد كانت أسماؤهم مسجلة في قوائم تم ضبطها في عداد المقضي عليهم بيد الإرهاب.

لذا فإن هؤلاء هم في الخارج،في الواقع، في الضوء، خارج ظاهرة «أبطال الخيال الإعلامي».

و لذا لزم التنويه.

***

ملاحظة اللغة في الشارع

أنت تمشي الآن في ربوع القاهرة فتجد الأخطاء في كل شارع وميدان، علي كل جدار ولوحة إعلان، في أفيشات السينما والمسرح، وبقايا إعلانات المرشحين لمجلسي الشعب والشورى والمجالس المحلية أيضا، تلك الهيئات المنوط بها «تزبيط» الشارع وتسيير أموره ليليق بالمدينة الكبيرة العريقة.

المشكلة أن هذه الأخطاء التي تشمل أغلب محتويات الشارع (كالرصيف المهدم والإسفلت المرصوص بالمطبات والبلاعات المكشوفة)، لم تعد شيئا غريبا، لا علي المواطن أو المسئول، وقد تكون الأخطاء اللغوية أو النحوية المنثورة في كل هذه الإعلانات والأفيشات هي أقل الأخطاء ضررا، لكن المشكلة في أخطاء الصياغة التي تؤدي أحيانا إلي عكس المعني المقصود، وهذه أيضا يمكن القفز عليها (حتى يحن علينا القدر بمحافظ من سلالة طه حسين) لكن المصيبة التي تنذر بالخطر هي شيوع لغة الابتذال، لغة الذوق الرديء، والمعني الرديء، لغة تخدش حياء أكثر المتسكعين «صياعة» وتقف في زور أي شخص عادي يفهم الكلام العادي، فتجده يقف مشدوها أمام هذه اللغة القبيحة، التي

لا تقف عند حدود الكلمات، بل الحركات الوقحة، واللفتات الجنسية المأخوذة من قاموس فتيات الليل.

وأنت كمواطن عادي قد تأخذك المفارقة إلي حدها الأقصى حين تجد أفيشا لراقصة مبتذلة تؤدي حركة رخيصة علي سور مدرسة ثانوية للفتيات، أو صورة لممثل قبيح يخرج لسانه علي واجهة جامع أو كنيسة، أو وضعا جارحا علي أعمدة تغطي مدخل جامعة أو معهد علمي.

أما عن الرسوم القبيحة والتصاميم الخالية من الذوق فقد أضحت هي الأسلوب السائد، للأسف.

وعلي خط آخر تدخل لافتات دعاة الدولة الدينية التي لا ترعي حرمة الممتلكات العامة أو الخاصة، والأدهى والأمرّ أنها تلجأ لأسلوب إرهاب المواطنين بالجحيم الذي ينتظرهم والنار التي ستكوي أبدانهم إن هم لم يطيعوا أوامرهم فمصير كل من يخالفهم الرأي والاجتهاد والدين هو مصير مخيف، لا في الآخرة فقط بل وفي الدنيا أيضا.

وهكذا وبغباء شديد تؤدي هذه اللغة إلي عكس الهدف، فبدلا من أن تحبب الناس في الدعوة تنفرهم منها، وبدلا من أن تقربهم منها تجعلهم يفرون، بل وتعطي انطباعا للزوار الذين لا يتركون شاردة أو واردة إلا وسألوا عنها، تعطيهم الانطباع بأننا علي قيد خطوة من دولة طالبان في مصر، وعلي بعد فرسخ من دولة بن

لادن التي تشيع الخراب في ربوع العالم، فتكوي المواطن العربي والمسلم بنار الارتياب الذي يطارده أينما حلت به الظروف في بلد من بلاد الدنيا غربا وشرقا، إن كان ذاهبا للدراسة أو الفسحة، إن كان ذاهبا لعمل أو من أجل القضية مشاركا في ندوة أو مؤتمر، فقد نجح هذا الفريق وبغباء ساحق يحسد عليه في أن يجعل صورتنا مظلمة وحياتنا بالفعل وكأننا في جحيم الدنيا قبل جحيم الآخرة.

والآن نسأل أين هي خطط هيئة التنسيق الحضاري الموعودة؟ وإلي أين وصلت، وهل هناك أمل في أن تمد يدها لتزيل هذا القبح المقيم من عيوننا وقلوبنا بل ومن نفوسنا المتعبة؟

***

لمس الهوية الهشة

السؤال المطروح الآن: هل يعني تكرار الأخطاء اللغوية المنتشرة هنا وهناك،والتي أشرنا لها عاليه، أنها وصلت إلي حد «الظاهرة» التي قد تلمس هويتنا كشعب و أمة؟

أريد أن أؤكد، أولا، أن الفكر الذي أراه صحيحا في تناول هذه المسألة، هو الذي يري في مسألة الهوية ملمحا حضاريا وثقافيا، فلا هي بنتاج العرق، أو الايدولوجيا، ولهذا فإن المنادين بالهوية العرقية يلفظون بشكل تلقائي كل «الأقليات» الآتية من أعراق

غير عربية، والذين يرجعونها إلي مسألة العقيدة فإنما هم يرتكبون نفس الخطأ غير المبني، علي أي أساس علمي أو تاريخي، أي علي غير أساس الواقع.

لذا فإنني لا أري، كما يثار هذه الأيام (خاصة في فلسطين المحتلة بعد إنشاء مجمع اللغة العربية في أراضي الـ 48) لا أري أن للمسألة أي بعد يلمس هويتنا كعرب نعيش في ظل تراث ثقافي له أبعاده الحضارية متعددة الجذور.

إنه حين يقول الصهاينة بأن العبرية هي مسألة هوية فإن هذا إنما يعكس الايدولوجيا التي بنيت عليها فكرة الدولة اليهودية العنصرية، وهذا ما لا يمكن أن نكون عليه نحن الداعين للدولة المدنية المبنية علي أساس المواطنة لكل فرد يعيش علي تراب هذا البلد مهما كان أصله أو فصله.

لكنني أعود وأؤكد بأن ما نراه من أخطاء في بنية فهم لغتنا الجميلة إنما هو نتاج عدم فهم،أو سوء تقدير، وأقول حتى إنه في أغلب الأحوال عدم اهتمام مبني علي الجهل.

والأمر المحسوس عندي، وما خبرته من تجربتي الشخصية طوال عمري فإن عدم الفهم هذا أدي ويؤدي إلي مناهج غير علمية وغير فاهمة للمشكلة: مشكلة تعليم الناس، لا قواعد اللغة في الأساس، بل فهم معني اللغة وجمالياتها وقدرتها الفائقة علي التعبير عن كل شيء بما فيه الغائب «المسكوت» عنه، وبما فيه

لغة الظلال، ولغة الإيحاء، كما لغة المجاز ذات الإيقاع الذي يخلب الألباب، وأزعم هنا، بأن الأساتذة من أهل اللغة إنما غرقوا في بحور الأساليب العقيمة المكررة التي تهتم بـ «القاعدة» التي هي مجرد حصر لطرق بشرية ثبتت عند زمن معين وعند قبيلة معينة (هي قريش) ولم يلتفتوا حتى لما للغة قريش نفسها من عناصر جمال تبهر الألباب، بل وأزعم أنهم مقصرون أيما تقصير في دراسة جوانب الجمال في لغة القرآن الكريم نفسه، مما جعل النص القرآني يبدو غريبا مصمتا بعيدا عن الناس، لا في تكراره، بل في فهمه.

لقد كنت أحد ضحايا الدراسة في الأزهر الذين لحق بهم ما سمي «التطوير» في السنة الخامسة من الثانوية الأزهرية القديمة، وأشهد أن المعاناة التي عانيتها (وأظن كل الذين كانوا معي في هذه الدفعة) في تحصيل اللغة كانت مبنية علي أساس من المنهج الدراسي الذي أنبني علي الاهتمام بالقواعد، دون الاهتمام بروح اللغة وجمالياتها، باعتبارها كائنا حيا يتطور مع تطور الحياة والناس ومعطيات الحراك الاجتماعي ، بله أن يكون هذا المنهج، قائما علي فهم عميق لسر هذه اللغة العظيمة ألا وهو: أن اللغة تتبع المحسوس الواقع، وهو ما تعلمته حقا وصدقا من السفر العظيم «المزهر في علوم اللغة» للسيوطي، وهو ما جعلني أعود لحالة تفاعل خلاق مع هذه اللغة الغنية و الجميلة.

لقد عشت حالة صراع منفر طوال سنوات دراستي (ولا أبالغ إذا قلت أن هذا قد استمر سنوات بعد ذلك حتى بعد أن احترفت الكتابة) جعلتني أنفر من اللغة، نتيجة ذلك المنهج العقيم، عانيتها كمن يعاني عقدة نفسية مركبة، حتى التقيت هذا السفر العظيم فأعادني إلي علاقة طبيعية باللغة جعلتني أعود إليها كما عودة العاشق الولهان لحضن الحبيب،الأمر الذي جعل الملمح اللغوي في عملي الروائي، كما أعتقد، أبرز ملامحه وأكثرها أهمية، خاصة في عملي الأخيرين، «عطلة رضوان» و«مواعيد الذهاب إلي آخر الليل».

ما نشاهده إذن هذه الأيام من انتشار لهذه اللغة السوقية، للأسف، في بعض الصحف، والروايات، والأشعار، وخاصة في بعض القنوات التلفزيونية الجديدة، (وخذ عندك الإعلانات ولافتات المحلات، وحتى أسماء الشركات والمؤسسات) ما هو إلا نتاج جهل، تأتي من مناهجنا العقيمة المبنية علي سوء الفهم وسوء الإدراك، وليس للموضوع أي علاقة بالهوية أو يحزنون.

***

الزوايا المبتذلة

أنت قد تكون صاحب قضية عادلة، قضية عامة لا تخصك وحدك، قضية حقيقية وهامة بل ومصيرية، قضية وطن، لكنك باستعمالك اللغة القبيحة عند مخاطبة الآخر،أو نقده، أو توصيفه، أو تصنيفه، تخسر قضيتك عند الناس، الناس الواعين بالذات، فتصبح أنت المدان بدلا من أن تكون الدائن، وتصبح أنت الجلاد مع انك ضحية.

وغالبا أنت شخص غبي.

غالبا أنت ضحية التربية غير الواعية وغير الذكية، أنت ضحية التعليم غير الحقيقي، أنت مع السابلة ولست مع الفقراء والضعفاء، وأظن أن بعضا من (أصحاب أقلام) هذه الأيام يخاف أن يصنف باعتباره يقف مع الفقراء، فيتخذ سمت الناقد الذي يقف مع الشناكيح الذين هم في الواقع (أولاد ذوات) لكنهم من سوء تربيتهم أصبحوا كذلك، أعني شناكيح هذا الزمان، سابلة هذا العصر،والكاتب مهما كانت شدة غضبه، مما يجري، ومهما كانت شدة حماسته للحق، فإنه ـ أي الكاتب ـ ليس شنكوحا، ولا يمكن أن يكون، وبالذات من شناكيح هذا الزمان أبناء أثرياء هذا الزمان، أو الملحقين التابعين لهم.

ويمكن ملاحظة أنه في فترات الانحطاط الاجتماعي، تظهر مثل هذه اللغة القبيحة، وشيئا فشيئا تسود كل أطراف الخطاب السياسي الاجتماعي، ويتخبط الجميع في مستنقع هذه اللغة القبيحة، و..تضيع القضية.

ربما يكون هذا مقصد الطرف المفتري الذي أضحي في هذه الحالة هو الضحية، وتقع أنت في الفخ، لأنك غبي وجاهل (لم تتحصن بسمت العلم) أنت شنكوح من شناكيح هذا الزمان.

ربما يكون هذا هو الملعوب الكبير، هذا هو الدور المرسوم لهؤلاء الذين يثيرون الغبار علي القضايا الحقيقية، فكل المؤشرات تقول أن هؤلاء الشناكيح، في لحظات الجد، يظهرون وجوههم الحقيقية فيهاجمون تيارات التقدم، ويحاولون تشويهها بالباطل، ويقفون، في هذه اللحظات المصيرية والحرجة مع دعاة الظلام، دعاة القبح والرقابة والتسلط خصوصا علي المبدعين، وعلي الأخص المبدعين المنتسبين حقا وصدقا لتيارات التقدم، الداعين لخلاص هذا الوطن من المفترين وأبنائهم الشناكيح الجهلة الأغبياء الذين يفخرون بأنهم يتحدثون باللغة القبيحة في كل مقام ومقال.

***

العنف باللغة

الأصح أن تقول، لغة العنف، لكن لأن لغة العنف، في تقديري المتواضع، ناتجة، ولو جزئيا، عن العنف الذي يمارس في التعامل مع المتلقي لتلقينه أوامر (أو لإكسابه اللغة، وقواعدها، وأساليبها بل وحتى محسناتها بالزجر والتوبيخ)، فإن هنا تبرير متمكن من أن يكون السبب هو العنف، للنتيجة التي هي لغة العنف.

نجد هذا علي وجه الخصوص في لغة الخطاب «المتأدين» أو «المتأسلم» في أغلبه الأعم، خاصة في اللغة الموجهة للناس عبر اللافتات التي أضحت منتشرة في كل مكان خاصة في الأحياء العشوائية الفقيرة، وهنا ملاحظات:

ـ الأولي تتعلق بالأسلوب العام الذي يلجأ للأمر المباشر «أفعل ولا تفعل» وهو لا يأتي استنادا لمواد القانون أو الدستور أو بالمخالفة لهما (وهو ما يمكن تفهمه في بعض الظروف) لكنه يأتي من منظمات سرية أو جمعيات لها نشاطها العلني لكن أساسها يعمل في الخفاء، تتوسل بالرشوة للموظفين الصغار حتى يتعاونوا مع دعاتها من أجل نشر هذه الأوامر علي أعمدة النور أو جدران المباني العامة والخاصة، أو أن هؤلاء الموظفين يغضون الطرف عن هذا التصرف غير القانوني، وهنا لا بد أن

يسأل المواطن: كيف يحق لهؤلاء إصدار الأوامر بهذه الصيغة التي لا تترك للحوار مجالا بل تعتبر نفسها نهائية ولا نقاش فيها ومن يعطيهم هذا الحق؟.

ـ الملاحظة الثانية تتعلق بما يترتب علي مخالفة مفترضة لهذه الأوامر والنواهي فهي تلجأ لأسلوب الوعيد العنيف المرهب للبشر، فمن يخالف هذه الأوامر ستقطع أطرافه من خلاف ويعذب تعذيبا شديدا في الدنيا ثم سيدخل جهنم حيث يشوي بلا توقف، كالفرخة الدوارة في الفرن، في الآخرة.

ـ النتيجة الطبيعية لهذه الأوامر العنيفة هي سيادة روح العنف في المجتمع، والأغرب أن هؤلاء الذين يسمون أنفسهم بالدعاة يزأرون بالشكوى كلما لجأ النظام للعنف معهم، فكيف لك أن تشكو مما تشيعه أنت بين الناس، وحتى قبل أن تصل للسلطة فكيف إذا وصلت؟

ـ نتيجة أخري لهذا الأسلوب هو إشاعة الخوف في قلوب الناس وتحوله إلي ملمح من ملامح الشخصية التي يريدونها لتكون مطيعة لهم ولأوامرهم مهما كانت دعوتهم.

ـ من المفترض أن يكون لهذه التعليمات جانب تعليمي، لكن بهذا الأسلوب المنفر نصل إلي نتيجة عكسية، فبدلا من أن يقبل الناس عليها ينفرون منها وفي هذا قمة الغباء الناشئ عن التسلط المتمكن من نفوس هؤلاء القوم لنصل إلي النتيجة التي بدأنا بها

من أن طريقة تلقين الناس بلغة العنف إنما تشيع العنف نفسه، وتتحول الكلمات في أرض الواقع إلي مجازر حقيقية وهو ما نشاهده هذه الأيام منتشرا كالنار في الهشيم في كل مكان وكل موقع دون سند من القانون أو الدستور.

***

أصوات «الشرشوحة» ونشازها

حين كنت طالبا رمت بي الأيام في حارة من حارات السيدة زينب الداخلية، ووجدتني دون قصد في حضرة أم سوسو، وكانت سيدة غليظة الجسم والقلب، علي الرغم من خفة دمها التي كانت تجعلني أحيانا أرغب في إلقاء نفسي من الدور الثالث وأنا أضحك من الأمثلة الرهيبة التي كانت تلقي بها حين تنوي الردح لإحداهن.

أم سوسو كانت تعشق الجلوس علي باب البيت، ترقب الذاهب والعائد، وخاصة بنات الحارة التي ما أن كانت تري الواحدة منهن خارجة أو داخلة (خاصة إذا كانت تزينت ووضعت الأحمر والأخضر) حتى تفقع المثل المناسب، والذي كان غالبا يقصد به إهانة الفتاة المسكينة، حيث أن أم سوسو لم تكن تحب حكاية أن تخرج البنت مساء لتقابل «الجو»، وكانت تعتقد أن كل بنت متبرجة هي بالقطع خارجة لتقابل هذا «الجو».

غالبا ما كانت تعليقات أم سوسو تنتهي بخناقة، مع البنت، أو مع أمها، أو مع كلتيهما، وكانت أم سوسو تتكشف عن موهبة خارقة في الردح، تطلق العبارة تلو العبارة والمثل تلو المثل وكأنها، لا فقط حفظت كل ما تقول عن ظهر قلب، بل هي أيضا تدربت علي طريقة الإلقاء الرهيبة التي كانت تصاحبها بحركات من الرموش والشفايف والخصر والأصابع (خاصة الوسطي) والجذع، وحتى أنها مرة استعملت الجزء السفلي كله من جسدها حين أرادت أن تدلل علي نظافتها الداخلية من أي شعر، لأن «خصمتها» اتهمتها بأنها لا تعرف طريق الحلاوة فهي وسخة وعفنة ولها رائحة كلب ميت.

يبدو أن حكاية الكلب الميت أغاظت السيدة أم سوسو فأقدمت علي هذه الفعلة التي كادت تروح فيها، لكن الله ستر،ولم يفعل زوجها سوي رميها بطلقة واحدة.

الشاهد في الموضوع أن فن أم سوسو الذي كانت تمارسه، كهواية، ومهما كانت حدة الخناقة فإنه كان ينتهي غالبا بصلح وتبويس تطبيقا للمثل الساير (ما في صحبة إلا بعد عداوة) والأهم من ذلك كله أن اللغة التي كانت مستخدمة في كل هذه الخناقات كانت تعبر عن نفسها في أبيات موزونة وكلمات منمقة وهي وإن كانت تحمل بعض الكلمات العارية إلا أنها كانت لغة تتوسم إيقاعا منمقا لا يخلو من طرافة، قد تكون أشبه بطرافة الأغاني

الخفيفة الخارجة التي كان يتسلي بها كبار الموسيقيين.

لكن هناك ردحا قبيحا آخر يتحلي به نوع جديد من «الشرشوحات» اللواتي ظهرن مؤخرا.

***

الشرشوحة في المشرحة

لم يتواجد النوع الثاني من «الشرشوحات» إلا مع تسيد طبقة الكمبرادور سدة الحياة في المحروسة،أي أثر الهوجة التي أحدثتها فوضي الانفتاح المزعوم، والتي أسماها أستاذنا أحمد بهاء الدين «انفتاح السداح مداح» تلك التي جلبت معها عشرات العشوائيات التي أحاطت بالقاهرة حتى خنقتها وحولتها إلي مستنقع بشري، ضم تكتلا رهيبا من قطاع الطرق والقوادين والعاهرات من كل نوع وصنف الذين جلبوا معهم ثقافة البانجو التي انبنت علي لغة بنجوية تفرعت وانتشرت فغطت أولا جدران العشوائيات ثم زحفت إلي اللافتات من كل نوع في كل شوارع العاصمة العتيدة.

نتاج طبيعي لهذا كله كانت هذه الشخصية الشرشوحة التي وصلت،في قمة تطورها،إلي أن أصبحت مذيعة تلفزيونية تبث في ملايين الغلابة من روحها ولغتها حتى أضحت مثلا يحتذي عند آلاف الفتيات العشوائيات للأسف الشديد.

طبعا نحن لا نسمع، ولله الحمد، كل مفردات قاموسها القذر، كما لا نري حركات أصابعها ورموشها ووسطها، علي الشاشة الصغيرة، لكنك، لن تخطئها عند تدخلها بطريقة فجة في توجيه الضيوف أو التعليق علي كلامهم، وستقول علي الفور: هذه شرشوحة ولا ريب.

لكنك ستدهش إذا كنت سعيد الحظ مثلي ورأيتها وأنت في زيارة عابرة لمبني المؤسسة التي تعمل بها (ولا شك أنها وصلت بعرق جبينها) وهي تؤدي وصلتها المعتبرة في قلب طرقات المبني الضخم الذي يضم آلاف العاملين من كل الأعمار والألوان البشرية كما يضم آلاف الزوار من كل نوع وصنف: ستسمع ردحها الموصول بقاموس أعضاء الأمهات وأصوات الشخير.

لو توقف تأثير هذه الشرشوحة الهجين علي العاملين في المبني العتيد لما كان الأمر خطيرا إلي حد يدعو للكتابة عنه، لكن المصيبة أنها انتشرت عبر أخبارها في الصحف الصفراء، حتى أضحت مثلا يحتذي في بيوتنا جميعا، حتى أنك تفاجأ ذات صباح وأنت تفزع علي صوتها النشاز يتردد علي لسان أحد أفراد أسرتك، فتضرب كفا بكف، وما أن تحاول فهم ما يجري حتى تجد الرد المفحم، إنها (.....) التي علمتنا.

المشكلة أن لغة هذه الشرشوحة لغة نشاز، بلا إيقاع أو

نغم، بلا إتقان كالذي كان يجعل من شرشوحة مثل أم سوسو، شرشوحة فنانة من الزمن الجميل، الذي كان يسوده معني ما، لكن شرشوحتنا الجديدة بلا معني ولا طرافة، بلا إيقاع ولا خلق، ولن ينتهي الموقف معها بالتبويس والمصالحة، كما كان يحدث مع أم سوسو، بل غالبا ما ينتهي بالبوليس أو المشرحة، ولبئس النهاية.

***

اللغة من زاوية الاختيار

زاوية الاختيار كما زاوية النظر: فإذا بدأت من زاوية خاطئة فلا بد أنك ستصل إلي نتيجة خاطئة، مثلا إذا لقنا أبناءنا المبادئ الأولية لتعلم اللغة من زاوية عاطفية انطباعية فإنهم سيستمرون في ذلك لنهاية أعمارهم، وسيشبون انطباعيين عاطفيين (بالمعني السيئ) وحتى إذا مارسوا العمل باللغة فإن لغتهم ستكون عاطفية انطباعية، أي سطحية تدغدغ الحواس الظاهرية، الغريزية ربما، ولكنها لن تشتبك مع الحياة الحقيقية ولن تعبر عن الوقائع التي هي ليست انطباعية بالتأكيد بل هي من صميم التجربة المعاشة.

التجربة المعاشة هي التي تراكم الخبرات وتطحنها عبر ماكينة الحياة اليومية لتفرز في النهاية ما هو شخصي عن ما هو عام، وما هو ذاتي عن ما هو مشترك، ومهمة العلم هنا (أو لنقل الوعي) هي «تأطير» ذلك في مقولات قابلة للتداول والدرس، أو إرسال

الرسائل للآخرين الأقل خبرة وعلما ومنهجية، وهكذا تستمر الخبرة في أن تكون فعالة ومفيدة، أي أن تتحول إلي رسالة عامة، هي بالـتأكيد قابلة للتجدد، كلما ظهرت خبرات أخري مختلفة أو مستحدثة، فالحياة لا تتوقف عند خبرة مهما عظمت، ولا عند نظرية مهما ادعت الإحاطة بموضوعها.

الحياة إذن ليست مجرد انطباعات؛ ولا هي مجرد قوالب ثابتة جامدة.

ومثلا: إذا أمعنا في الخطأ ولقنا أطفالنا اللغة باعتبارها درسا مكتبيا لا علاقة له بالحياة (وكل المبتغي عندئذ أن يقوموا بالإجابة علي أسئلة الامتحان من هذا الدرس مباشرة وإلي ورقة الإجابة) فإن شيئا لن يبقي في ذاكرتهم أو نفوسهم منها، وسنكون بذلك قد بنينا حاجزا بين هذه اللغة التي علمناها لأولادنا وبين الحياة؛ لكننا إذا ربطنا طريقة التعلم بما في الحياة، أو بما هي عليه الحياة، فإننا بالتأكيد سنجعل لغتهم جزءا من حياتهم(بل أكاد أقول لب حياتهم)، وهم حين سيتعرضون لتصوير ما يريدون تصويره كتابة لنقله للآخر فإنهم لا يعبرون عن الأفكار، أي لا ينوبون عنها، بل ينقلوها للآخر، كما هي عليه بما هي عليه في الواقع، واقع علمهم، وخبرتهم، وذاكرتهم، بل ومشاعرهم.

وتحضر هنا «الشواهد» المستعملة في دروس الإعراب المأخوذة من ما انقطع في الماضي من أساليب بدوية صحراوية

لم يعد يستعملها حتى سكان الصحراء المعاصرين.

وأشير هنا بأن الواقع ليس هو فقط «الوقائع»، بل إن الخبرة، والذاكرة، وكل المشاعر، كل آلام النفس البشرية وآمالها هي واقع.

«التعبير عن» إذن مصطلح مضلل، مراوغ، ملتبس، يؤدي إلي نتائج خطرة في النهاية لأنه يضع في عقولنا فكرة الإنابة عن الآخر، أي يمنحنا سلطة علوية علي الآخر، ويجلنا فوقيين إلي درجة لا تطاق؛ وهذا شيء مختلف عن تمثيل الآخر بما منحنا هو من توكيل للقيام بهذه المهمة، إذا كنا أكفاء للقيام بها، لذا فهو قادر، في حالة ما إذا لم نقم بتمثيله كما يريد، علي سحب هذا التوكيل منا، فهو لم يعطنا صكا أبديا بالكلام نيابة عنه.

أكاد «أرقب» الطريقة «المتخلفة» التي أشاهدها كل يوم وأري فيها الأغلبية الساحقة ممن حولي من الأمهات وهن يلقن أطفالهن الكلمات الأولي، ويعاملنهم كأنهم دمي لطيفة «مصنوعة من الحلوى» فيفتعلن طريقة سخيفة في النطق لتلقين الصغار، نابعة من عاطفية حيوانية، وكأن الطفل مخلوق قاصر (أنظر: ياحوة، ياتتوتة، يانونة) وهو الأمر الذي تجاوزته البشرية بالمعرفة المتراكمة، بأنه، أي الطفل، مخلوق كامل وإن كان صغير السن.

من هنا أظن تبدأ المأساة التي نجدها في طريقة لفظ الكلمات حتى عند العواجيز من مذيعاتنا الأفاضل اللواتي نشاهدهن في برامج الأطفال في قنواتنا التلفزيونية وهن يتحدثن للطفل

بأصوات تؤدي إلي تثبيت مرحلة الطفولة في نفسه فيعيش بها طوال عمره حتى الرمق الأخير.

(تذكر: ياحوة، ياتتوتة، ياننونة).

وهو ما يتجلى في أعلي مراحله، وتتلقاه كلكمة في وجهك، من مذيعة من مذيعاتنا الأفاضل وهي تقرأ نشرة أخبار فيها من القتل والتدمير ما يشيب له الولدان،ولكنها تنقلها بصوتيات متصابية، «مرحرحة»، «مسخسخة»،(تذكر: ياحوة، ياتتوتة، يا ننونة) بكل الخطأ في مخارج الألفاظ،والزعم بأنه ليس علي المرأة أن تتخلي عن أنوثتها، والحقيقة أن هذه ليست أنوثة بقدر ما هي صبيانية سخيفة ناتجة عن طريقة تربية صبيانية وسخيفة ومتخلفة، لا نشاهدها سوي عند مذيعاتنا، بل ومذيعينا.

أفتح برامج الأطفال أو نشرات الأخبار بأي لغة من لغات العالم التي تعرفها، فتجد أن الأمر مختلف وأن قولنا التراثي، «لكل مقام مقال»، يعمل به العالم، أما نحن فنعمل بعكسه وكأننا فقدنا صوابنا، كما فقدنا صلتنا بعقولنا، وليس فقط بتراثنا الجميل.

وهذا علي أي حال هو الخطأ الأول الذي نرتكبه في حق لغتنا الجميلة التي حولناها إلي شيء قبيح يرثي له، مع أن لغتنا هي لغة «صوتيات» حية ورائعة، نابعة من المحسوس المعاش، نابعة من الصورة، من قصص الحياة، بامتياز.

***

العامية كحركات صعبة

في سياق هذه الشذرات حول اللغة، أقف الآن عند قناتين تلفزيونيتين ، أحداهما مصرية (خاصة) والأخرى لبنانية (خاصة أيضا)،(وهما بالمناسبة من أنجح القنوات، وأكثرها جاذبية) لكنني لم أجد اجتهادهما في تقديم نشرة الأخبار بالعامية أمرا مقبولا أو ناجحا.

وكان من الضروري أن أعرف عن هؤلاء الشباب العاملين في القناتين ومدي معرفتهم بالعربية،فلجأت لسؤال أستاذة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة عن العاملين في القناة المصرية، وجلهم تعلموا علي يديها، وسألت صديقا إعلاميا يكتب عن الأنشطة التلفزيونية اللبنانية في إحدى الصحف الرصينة وله معرفة دقيقة بالعاملين في القناة اللبنانية بل جلهم له بهم معرفة شخصية.

كان سبب السؤال أن القناتين تصران علي استخدام اللهجتين، القاهرية في المصرية، والبيروتية في الأخرى، لا فقط في الكلام، الأمر الذي يبدو مقبولا، ولكن في الكتابة أيضا، وعند قراءة نشرة الأخبار، وكانت إجابة الصديقين توحي بما هو ظاهر من أن هدف القناتين قد يكون هو تكريس النزعتين: الشوفينية المصرية

والشوفينية اللبنانية.

وبقليل من التأمل أجد أنه إذا كانت إشاعة هذه الشوفينية هو الهدف فإنني أبشر القناتين بأن السهم قد خاب ولم يصب الهدف.

ببساطة لأن اللهجة القاهرية التي يستعملها العاملون في القناة المصرية ليست بالقطع هي لهجة تمثل كل المصريين، بل إنها لهجة قاهرية في الأساس، وبالتالي فهي شوفينية قاهرية رمزية،وليست شوفينية مصرية.

نعم إنها لهجة مفهومة للجميع، وهي من ناحية جمالية، لهجة رشيقة، لطيفة، ومقبولة، عند النطق بها، وهو ما يمكن قوله عن لهجة أهل بيروت، فهي أيضا لها دلالها وجمالها الخاص، لكن المشكلة في كتابتهما.

فليس لأي من اللهجتين قواعد ثابتة مشتركة في طريقة كتابتهما، كما يمكننا أن نقول عن الفصحى المبسطة المستعملة في الصحافة، وبالتالي فإنك يمكن أن تكتب الكلمة بأكثر من طريقة، وهو ما يجعل قراءتها أصعب من قراءة الفصحى المبسطة التي استقر عليها القارئ.

المهم أن ما توصلت إليه من معلومات عن العاملين في هاتين القناتين هو شيء مخيف، فأغلبهم درسوا بلغات أجنبية، الإنجليزية في الحالة المصرية، والفرنسية في الحالة اللبنانية،

وهم في أغلبهم،لا يحسنون الكتابة بالعربية أساسا، فقد قضوا أعمارهم يدرسون باللغات الأجنبية كلغة أولي، وبالتالي ظلوا بعيدين عن العربية، قراءة وكتابة، لذا فإنهم يستسهلون اللجوء إلي العامية نتيجة هذا الجهل ليس إلا.

ولعل الحل الوحيد لذلك هو تدريب هؤلاء المذيعين والمذيعات علي استعمال اللغة الفصحى المبسطة السائدة في كل القنوات الأخرى، حتى لا يكون استعمال اللهجة هنا سببا في الفرقة التي تتداعي لتصبح هي الحقيقة الوحيدة الأكيدة بين الشعوب العربية.

***

لغة تكسير الضلوع

الشائع في الرأي العام أن استعمال الشدة في تلقين العلم يؤدي إلى الاستيعاب والحفظ، وبالذات في أمر تعليم اللغة العربية، وأذكر أن والدي رحمه الله كان يكرر علي مسامع مدرسيي (وعلي مسمعي طبعا) عبارة سائرة أشبه بالمثل «أكسر له ضلع يطلع له اتنين» وأذكر أن معلما من معلمي كان يدخل الفصل وفي يده عصي، وكان يبدأ بالضرب أولا حتى قبل أن يعرف ما إذا كنت قد أديت الواجب أم لا، والنتيجة أنني كرهت التعليم والمعلمين واعتبرت أنه سجن وهم سجانون قتلة، ورحت أناصبهم العداء

طوال عمري، وربما حتى اللحظة الراهنة.

صحيح أن حدة هذه الطريقة قد خفت، لكن الضرب كأسلوب من أساليب التعليم لا تزال موجودة خاصة في القرى والبلدات الصغيرة والأرياف وأحياء المدن الفقيرة.

هذا جزء من التسلط السائد، بداية من الخلية الصغيرة في المجتمع (الأسرة) وحتى الخلية الأكبر (المدرسة) وحتى في الشوارع والشواطئ وطبعا في أقسام البوليس، وهو في رأيي مفهوم راسخ أصبح اعتياديا إلي درجة أن الناس يستغربون (ذلك الضابط الطيب الذي لا يضرب ولا يعذب) ويعتبرونه شخصا غريبا، بل وهذا هو الأنكي (شخصا ضعيفا).

وإذا عدنا إلي تعليم اللغة فإن هذا الأسلوب العنيف مبني علي أساس أن اللغة لا يمكن استيعابها إلا بالحفظ، والحفظ لا يتأتي إلا بالعنف، ذلك لأن الحفظ نفسه يفترض ميكانيكية في الأداء، تحول الإنسان من كائن مفكر إلي آلة تسجيل ليس إلا.

وأذكر أن الإعجاب كل الإعجاب كان يوجه لزملاء الدراسة الذين كانوا يحفظون القواعد عن ظهر قلب، وأنني حين كنت أتجرأ وأسأل عن الأسباب التي تقف وراء هذه القاعدة أو تلك كان يقال هذه قاعدة لا تناقش وعليك حفظها كما هي، ومن هنا كانت النتيجة سيئة للغاية: كره شديد من الناس للغة أدي إلي جهل بها، أدي إلي ما نحن عليه الآن من ترد حتى أنك

تجد الأخطاء شائعة إلي الحد الذي فصلناه في شذرات سابقة، فالإنسان بطبعه ينسي ما يتلقنه بالعنف،بغية اتقائه والابتعاد عنه، لكن العنف يتسرب إلي أرواح الناس حتى أنه ليتحول أمرا عاديا.

وأنت إذا لم تكن علي درجة من التمرد تقيك اعتبار العنف أمرا اعتياديا، فإنه سيتسرب إلي نفسك أن العنف هو الأسلوب الأمثل لنشر «المبادئ» وتلقين الناس العلم، أو دفع الناس لسلوك معين، تراه أنت أسلوبا أمثل،بينما هو في الحقيقة يأتي بالعكس: يكرهك الناس، وفي مرحلة أخري، يفكرون في الخلاص منك.

***

قراءة العامية باللغة الأخرى

مفاجأة مذهلة حدثني بها أحد معدي البرامج التلفزيونية الذي عمل فترة في احدي القنوات التلفزيونية الخاصة، إثر قراءته للشذرة الماضية التي تحدثنا فيها عن العيوب اللغوية التي لاحظناها علي مذيعي إحدى القنوات الخاصة، ملخصها أن نسبة تزيد عن 80٪ من مذيعي ومذيعات إحدى القنوات الخاصة لا أنهم لا يحسنون قواعد اللغة، بل إنهم لا يحسنون أصلا القراءة أو الكتابة باللغة العربية، إلي حد انه كان يضطر لكتابة «سكريبت» البرامج لهم بالحروف اللاتينية بما فيها الأسئلة التي يعدها لهم والمفروض أن يوجهوها للضيوف باللغة العربية.

أوضح لأن هؤلاء المذيعين والمذيعات لا يعرفون أصلا قراءة الحروف العربية كان يضطر لكتابة الأسئلة العربية لهم بالحروف اللاتينية، وهو أمر مذهل، لأن هذا يساوي بينهم وبين الإنسان الأمي الذي لا يعرف القراءة أو الكتابة أصلا.

ويذكرنا هذا بدعوة قديمة لهج بها أحد دعاة الشوفينية اللبنانية الذي طالب منذ زمن بكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية وباءت محاولته بالفشل والحمد لله من زمن طويل.

لكن يأتي هؤلاء المذيعين الشباب الذين صرف أهلهم عليهم الملايين ليتلقوا العلم فإذا بهم علي هذه الحال التي يرثي لها.

تصور معي: شاب عربي يحمل شهادة جامعية (مصاريفها تفوق الثمانين ألف جنيه سنويا) لكنه لا يحسن مجرد قراءة الحروف العربية، بل إنه يقرأ العربية (العامية طبعا) عن طريق الحروف اللاتينية، هذا معناه أن علي أهل هؤلاء أو المسئولين عنهم، أن يقودوهم (لفك الخط) إما لكتاب الشيخ محمود المجاور للجامع، أو لحصص محو الأمية التي يديرها جهاز محو الأمية التابع لوزارة الشئون الاجتماعية، أو إذا كان الأمر محرجا لهم، خاصة أنه لا يمكن أن يتصور المرء شابا يرتدي أحدث موديلات الموضة، وينزل من سيارته آخر موديل ليدخل كتاب الشيخ محمود أو فصل محو الأمية (بعد الضهر) في مدرسة الأماني الطيبة ليتعلم ألف باء تاء ثاء مع عم سيد البواب أو أم

لواحظ الشغالة، خاصة وأنه غالبا (لنقص الإمكانيات) سيجلس علي الحصيرة أو علي الأرض مباشرة.

الأغرب في هذا كله أن أغلبية هؤلاء الشباب الأميين بلغتهم الأم هم من أولاد من يوصفون، زورا وبهتانا، بالمثقفين الكبار من أمثالي «جاتنا الخيبة».

***

الترجمة كلغة

مرت علاقات يحي الطاهر عبد الله كاتب القصة القصيرة (كما كان يحب أن يعرّف) بزملائه الكتاب، واحدا واحدا، بفترات شد وجذب، وعلي رأس هؤلاء الذين تجاذب يحيي معهم المشادات، الساخن منها والبارد، العلني والخفي، كان إبراهيم أصلان.

كان الكفاح حول المكانة الأعلى التي يعمل كلا منهما علي احتلالها، مع الصعود الإعلامي الواسع لكتاب الستينيات، قد أخذ في فترة معينة شكل المعركة بينهما.

من جهته كان أصلان يدير معركته بحنكة وخبث ابن البلد القاهري «اللطيف» الذي لا يكل ولا يمل من التأكيد (عبر استعراض مهاراته ومعاناته الإبداعية في ظروف حياتية غير إنسانية) بأنه، ولذلك، هو الذي يقف في المرتبة الأولي لكتاب

القصة القصيرة، في الوقت الذي كان يحيي ومشايعوه يقتربون من إضفاء فكرة «التميز المطلق» علي قصصه، وهو ما يعني بالنسبة لأصلان تراجع مكانته إلي الدرجة الثانية، التي لم يكن يرضاها أبدا.

وفي إطار هذه المعركة التي استعملت فيها أساليب متعددة، كالتشنيع، والتلسين، وحتى التلويح بـ... خرج يحي الطاهر بمقولة غاية في الذكاء، لمست وترا حساسا في كتابة أصلان، كما لمست وترا حساسا في نفسه، إذ اتهم يحي لغة أصلان بأنها «لغة الترجمة»، المعروف أنها،علي العموم، لغة باردة، محايدة إلي درجة الخفوت، لأنها تؤدي مهمة التوصيل للمعاني دون اعتناء بالإيقاع، والزركشة، أو لنقل «الشخللة الجمالية» للغة، تلك التي كان يحي الطاهر يتميز بها عن أقرانه، ويتفوق في هذا بلا شك تفوقا كبيرا، وإن كان هذا دون اعتماد علي معرفة حقيقية باللغة، بل كان يحي يتملكه بقوة الموهبة وعفو الخاطر.

ويبدو أن صديقنا أصلان أحس بأن يحي قد لمس باتهامه هذا وترا حساسا فنزل إلي وسط البلد غاضبا، يبحث عن يحي الطاهر، فالتقيته (أنا ومحمود الورداني) وهو يعرف أن يحي كان يعيش في هذه الفترة في بيت آل الورداني الذي كنت أعتبره أنا بيتي أيضا، لذا، فقد وجه أصلان ليحي تحذيرا حمّلنا إياه كرسالة نوصلها له.

قال: «قولو ليحي يبطل التشنيعة دي، وميفتكرش إن أنا طيب، لا، أنا ممكن أبقي شرير جدا، أنا ممكن أخرم عينيه بصبعيني دولت» .

ورفع إصبعيه عاليا.

وكان الشرر بالفعل يتطاير من عينيه، وقد وقعت أنا ومحمود الورداني في مطب، هل نبلغه، لا نبلغه، ولم نبلغه علي الفور، بل أبلغناه حين كنا نحن الثلاثة في ريش، وكان يحي بعد أن شرب، قد وصل إلي قمة الزعيق، والتلويح باليدين، فأردنا إسكاته بهذه الرسالة، وقد كان، وبعد فترة صمت قال:

ـ أصلان؟ ياخويا ياحبيبي أصلان يعملها، أيوه، يعملها.

***

الخلايا المتكاثرة

التعصب الذي أدعو إلي تسميته «طاعون العصر» ينتشر ويتمدد في ربوع البلاد وإن كان علي هيئة خلايا صغيرة تنقسم وتتكاثر يوما عن الآخر، خاصة في الريف والأحياء الشعبية، خاصة في «جمهورية إمبابة» وما يحيط بها كالوراق وورّاق الحضر وبولاق في خصر القاهرة، والسلام ودار السلام وغيرها في الأطراف، وأظن أن الجميع يري ذلك في مظاهر عديدة، وإن

اتخذت أشكالا مختلفة عن السابق، وما هو مدهش أن النساء يقمن هنا بالدور الأكبر في عمليات التجنيد، أعرف إحداهن وقد قامت في فترة وجيزة بتجنيد عدة رجال دفعتهم لتخريب بيوتهم وانتزعتهم من أولادهم وزوجاتهم السابقات لتزوجهم من مكفراتية يحملون مثل أفكارها المريضة التي لا تهتم إلا بهدف واحد ضم أكبر عدد من الرجال والنساء إلي دائرة الشر هذه، وهي سائرة في طريقها بلا هوادة.

هذه الواحدة ليست وحدها بالطبع، وهذا ليس موضوعنا هنا، إنما ما أنا مهتم به خصوصا هم الأطفال الذين هم أطفال هؤلاء، أو ضحاياهم، والسؤال هل نتركهم ليترعرعوا في بيئة التكفير هذه فيشبوا علي هذه الأفكار المريضة ليصبحوا في المستقبل أشد خطرا من أمهاتهم وآبائهم لأنهم تشربوا الأفكار المريضة من الصغر، ولم يجدوا أفكارا أخري تنتزعهم من المصير المحتوم؟

أليس من حق المجتمع المدني أن ينشئ مؤسسات تعمل في ظل القانون طبعا علي تبني قضية هؤلاء الأطفال، ورعاية ما يمكن رعايتهم، وفي بعض الحالات انتزاع هؤلاء الأطفال من الأمهات الجانحات ووضعهم في ظل رعاية هذه المؤسسات، إذا لم تكن عملية مقاومة الآباء والأمهات قادرة حتى الآن علي الخلاص من هذه المصيبة التي يمكن أن تعود بالوضع علي ما هو عليه يوم أن انتشرت الأحداث واحدا بعد الآخر حتى خربت البلد؟

هناك ما يسمي مباحث الأطفال فهل يهتم هذا الجهاز بهذه الظاهرة أم يعمل فقط بالطريقة البيروقراطية عند تلقيه طلبات العنف ضد الأطفال؟ وما هو مفهوم العنف الذي يعمل علي أساسه، هل هو العنف البدني فقط، أم أن عنف الأفكار التي يبثها الإرهابيون في نفوس الصغار هو موضع اهتمام؟.

مؤسسات المجتمع المدني التي تهتم بشئون الطفل هل لديها أي برامج لتبني أطفال الإرهابيين ولو من خلال المدرسة والحضانة والحديقة والمسرح والملاهي ومدهم بالأفكار الإنسانية المتسامحة، أم تتركهم للزوايا المظلمة حيث يلقنون الأناشيد التي تدعو للعنف والأفكار المدمرة؟

أحد الذين أعرفهم قامت أخت زوجته بتجنيد زوجته وعملت علي تزويجها من إرهابي بحجة أن زوجها كافر وماله حرام، اتصل بابنه ليسأل عنه فيفاجأ بالصغير ابن السابعة يقول له: «أنا لا أريد أن أكلمك يابابا لأنك طاغوط».

ابن السابعة يتكلم بلغة الطاغوت.

إلي هذا الحد وصلت المسألة، وإذا لم نتحرك سريعا فإن الكارثة تتجذر في المجتمع بحيث لن يكون بالإمكان اقتلاعها منه. هيا إذن ننتحر.

***

أن يكون هناك مؤتمر للرواية أو لأي شيء آخر

تثير الدعوة لأن يكون هناك مؤتمر للرواية ـ بالنسبة لكاتب هذه السطور علي الأقل ـ قضيتين:

الأولي تدور حول مفهوم المؤتمر.

والثانية تدور حول القضايا النوعية للرواية.

وبعض هذه القضايا خافية عن الدراسة والبحث، لأن بحث الرواية نفسه، يتحول إلي درس أكاديمي بارد خاصة في مثل هذا المؤتمر.

مفهوم المؤتمر، استنادا إلي مؤتمرات سابقة، يصب عند المنظمين (عندنا) في مفهوم الحلقات الدراسية المتوازية والتي تدور في قاعات صغيرة مغلقة أشبه بحلقات الدرس الأكاديمي (في الغرب)، بحيث يتعذر للمشارك العادي أن يشاهد أو يستمع إلا لعدد محدود من هذه الحلقات، وتحكم المتحدثين (مقدمي الأوراق الرئيسية أو المناقشين) فترة زمنية غالبا لا تزيد عن ربع الساعة، وتكون النتيجة العملية أن المتحدث الذي قطع آلاف الأميال وصرفت عليه آلاف الدولارات، لا يستفيد إلا بهذا الوقت المحدود، وبالتالي لا يفيد إلا ضمن هذا الوقت القصير، وهي إفادة مبتسرة لا تغني ولا تسمن من جوع.

هذا يخرج بالمؤتمر إلي مفهوم الحلقة الدراسية، التي لا أظن أن مكانها الطبيعي «المجلس الأعلى للثقافة» الذي نفهم مهمته باعتباره مركزا للإشعاع الثقافي، وبالتالي فإن رسالته رسالة عامة، علي الأقل بالنسبة للمهتمين بالرواية سواء كانوا باحثين أو كاتبين أو ممن يسمون بالقارئ العادي.

ولكن للمؤتمر فيما نعتقد مفهوما آخر مغيب، ينظم ويدار علي أساس أنه منبر جماعي لأغلب المهتمين المشاركين في مناقشة القضايا الرئيسية وطرحها للبحث والنقاش للوصول إلي توصيات ملزمة أدبيا لرأي الأغلبية، أو علي الأقل تتبني رأي الأغلبية وتطرحه علي الكافة.

هذا المفهوم البسيط والطبيعي لمعني المؤتمر تم تغييبه عبر سنوات طويلة من سيادة مفهوم الحلقة الدراسية المغلقة، ربما بسبب أن أغلب منظمي هذه المؤتمرات هم أكاديميون هذا هو مفهومهم للمؤتمر، وربا للم «الليلة» خوفا من أن يتحول المؤتمر إلي منبر عام قد يقلق بعض المسئولين في بعض الجهات، فلنلتمس السلامة، و«ظز» في الآلاف المؤلفة من الجنيهات التي تنفق، والنجاح معقود بنشر أكبر عدد ممكن من الأخبار والمقابلات مع مشاهير الضيوف (يتساوى منهم من له قيمة مع المديوكر عديم الموهبة) ليصبح ترديد الصور في الفضائيات هو غاية المبتغي.

وفي الحقيقة إنني لم أر مؤتمرا واحدا عقد في مصر طوال السنوات الطويلة التي كنت منغمسا فيها في الحياة الثقافية سوي المؤتمر الذي قام بتنظيمه غالب هلسا في أوائل الثمانينيات واختط الطريق الآخر، طريق المناقشة المفتوحة التي تمكّن المشارك من إبداء رأيه كاملا دون تحديد فترة قصيرة خانقة،كما تتيح للمناقش نفس هذه الفرصة، كما تتيح،حتى للجمهور، إبداء رأيه بحرية، الأمر الذي حوّل هذا المؤتمر إلي حدث ثقافي وفكري كبير لن يتجاهله التاريخ، بل سيكتبه بحروف من النور،خاصة أنه ما أن انتهي المؤتمر حتى وضع منظمه في الظلام.

***

استطرادا لما ذكرناه عن المفهوم السائد للمؤتمر، والذي يطبق في مؤتمرات المجلس الأعلى للثقافة في مصر (وكثير من البلاد العربية)، وفهم المؤتمر باعتباره اجتماعا دوريا لفئة معينة من النشطين في مجال بعينه لمناقشة القضايا الأساسية، واتخاذ قرارات بشأنها عبر التصويت المباشر، وهو ما لا يحدث في مؤتمرات وزارة الثقافة التي ينصب مفهومها علي ما يطلق عليه في العرف السائد «ورشة عمل»، أقول أنني شخصيا لست ضد أن يقيم المجلس الأعلى ورشا فنية متخصصة لمناقشة الجوانب التقنية لهذا الموضوع أو ذاك، بل إنه في حالة الرواية قد تكون الورشة هي الأكثر مناسبة، لكن الإشكال ينبع، بالنسبة لكاتب

هذه السطور، من اختلاط المفاهيم بين المؤتمر والورشة، وأظن أن المقصود هو تفويت مفهوم الورشة باعتباره مؤتمرا حتى يلتبس الأمر علي المتابع فيظن أن ما يجري هو مؤتمر له سلطة «المؤتمر» في وقت أن ما يتم هو مناقشة أكاديمية للقضايا النوعية لهذا النوع أو ذاك من الأنواع الأدبية، وهو عمل دراسي بحت لا سلطة له سوي سلطة العلم وهي سلطة معتبرة علي أية حال.

لكن يبدو أن المسألة تتم بشكل همايوني دون اعتبار لا للمشاركين (الذين يفترض أنهم علي قدر كبير من الثقافة) ولا للمهتمين (الذين هم علي قدر كبير من الفهم) وهو ما يخلق هوة بين هذه المؤسسة المعتبرة، وبين الناس إجمالا، حيث أضحي من المعتقد أن ما تقوم به مؤسساتنا الرسمية لا يضع اعتبارا إلا لما يراد من مثل هذه الأنشطة وهو ما لخصه وزير الثقافة فاروق حسني في مقولته الشهيرة عن «الصهللة»

ومرة أخري لا اعتراض لي علي أن تقوم وزارة الثقافة بعمل أنشطة من قبيل «الصهللة» وهو ما أفهمه (باعتبار توفر حسن النية) إشاعة أكبر قدر ممكن من الأنشطة التي تدفع المشاهدين والقراء والنظارة للانتباه إلي أنشطة هي بحكم الجهل السائد ليست في حسبان الناس، أقول صادقا أن هذه قد تكون طريقة مفيدة لجذب الناس العاديين لأنشطة الوزارة، لكن ما يحق لي أن أطالب به (كما غيري من الكتاب والروائيين) أن تكون المفاهيم

مطابقة لنوع النشاط وطريقة الأداء.

فلا يجوز أن نقول مثلا أن ما تقيمه هيئة الكتاب كل عام هو معرض للكتاب،في الوقت الذي هو بما هو عليه، سوق لبيع الكتب، وأنا لا أري ضررا من إقامة سوق لبيع الكتب خاصة في ظل أن المواطن العادي لا يضع في ميزانيته (حتى ولو كان قادرا) بندا لشراء الكتب، وبالتالي يصبح السوق الذي يشبه الاوكازيون عاملا ترويجيا لاقتناء الكتب، وهو أمر مفيد للقارئ والناشر والكاتب والوزارة بالطبع.

***

وهنا نسأل: هل يتم توثيق فعاليات المؤتمرات التي نقيمها توثيقا يُعتمد عليه لنستخرج منها مادة علمية يمكن للباحثين والمؤرخين الاستفادة منها؟

المؤكد أن هناك عملية توثيق دقيقة لحفل الافتتاح وحفل الختام (حيث يحضر الوزير) لكن توثيق جلسات العمل لا تتم إلا بشكل اختياري، وبمستوي قليل الكفاءة، وغالبا لا يتم نشر الأوراق، وإذا تم فإنه يتم بشكل رديء.

وذات مرة تلقيت أغرب إجابة من أحد منظمي أحد المؤتمرات حين سألته أثناء المؤتمر: هل ستقومون بنشر أوراق المؤتمر في كتاب، قال لا فض فوه: سننتظر الحصيلة، فإذا كانت الأوراق لها قيمة سننشرها، أو سننشر ما له قيمة منها.

وهذا يعني أن المنظمين لا يضمنون أن تكون للأوراق قيمة، وهو ما يعني أن اختيار المشاركين أنفسهم يتم بشكل اعتباطي، أو علي أساس المجاملات، أو علي أساس تمثيل البلاد والفئات، لأنه لو تم الاختيار علي أساس القيمة العلمية للمشاركين لما جاءت هذه الإجابة أصلا، لأنه لا يمكن أن يتقدم كاتب محترم، أو باحث محترم، بورقة لمؤتمر ليس لها قيمة.

لقد كنت سعيد الحظ حين حضرت العام 1990م بالصدفة جانبا من مؤتمر عن الكاتب العظيم «وليم فولكنر» في مركز ثقافة الجنوب بولاية ميسيسيبي، فوجدت نسخا من كتاب يضم أوراق المؤتمر التي كانت تناقش حينها معروضة في مدخل المركز توزع مجانا للحاضرين، والكتاب طبع وصدر قبل أسبوع من بداية المؤتمر، وهذا يعني أن هذه الأوراق لها قيمة وتستحق أن تنشر في كتاب، أي أن المسألة كانت مخططة بشكل جيد منذ البداية، وهو ما لا يحدث عندنا للأسف، وما سعدت به فعلا أنني وجدت في مؤتمر فولكنر هذا كل مجلدات المؤتمرات السابقة عنه، وبالمناسبة هم يقيمون مؤتمرا عن كاتبهم الكبير كل عامين في هذا المركز الذي يقع في ولاية ميسيسيبي التي عاش فيها وكتب فولكنر، وستجد هناك، لا فقط الكتب التي صدرت عن هذه المؤتمرات بل الصور والتسجيلات الصوتية والضوئية لكل فغاليات هذه المؤتمرات، بل ستجد كل كتب الكاتب الكبير،

بل وتسجيلات بصوته وهو يقرأ من هذا العمل أو ذاك، وقد حصلت علي تسجيل بصوت وليم فولكنر وهو يقرأ مقطعا من رواية «ضوء في أغسطس»، وهو ما أعود إليه حين أشتاق لسماع معلمنا الكبير فآنس إليه وهو يردد الكلمات بحشرجة لا يمكنك أن تنساها.

هل يمكن ببساطة أن نستورد من الفرنجة هذه الطريقة في التنظيم والإتقان، أم أننا فقط نستورد الكوكاكولا والهامبرجر؟

***

عادة غير مطروقة

ظاهرة انتشار دور النشر الصغيرة المستقلة ظاهرة إيجابية لا بد من الوقوف معها، بعد أن أضحت دور النشر الكبيرة (العامة والخاصة) غير قادرة، وفي أحيان كثيرة «غير راغبة» في نشر أعمال الأصوات الجديدة، أو الأعمال التي تنحو نحو التجديد إن يكن في الشكل أو العوالم الغريبة (بمعني غير المطروقة) سابقا.

لكن أغلب هذه الدور الصغيرة ساد تعاملها مع الكتاب والمبدعين سلوك جديد (قد يبدو في البلاد التي تنتشر فيها عادة القراءة هو سلوك غريب) لكن والحال أن القراءة في بلادنا العربية عادة غير مطروقة،إلا من قبل «المثقفين» وهم قلة، بدأت هذه الدور الصغيرة تتحصل من المبدعين علي ثمن طباعة كتبهم

مسبقا في سلوك أضحي أشبه بالظاهرة التي فرضها الحال المشار إليه.

هذا أيضا سلوك يمكن تفهمه، ولا يمكن معاتبة هذه الدور الصغيرة عليه، فهي، في ظروف الغلاء الفاحش لمتطلبات الطباعة وخدمة النشر مجبرة علي ذلك، بل إنها لا تستطيع التحرك خطوة دون أن يمد الكاتب لها يد المساعدة المادية.

بعض هذه الدور يسلك هذا السلوك بشفافية، بمعني أنها تنفذ اتفاقها مع الكتاب «الدافعين» بدقة سواء من حيث طبع العدد المتفق عليه بين الكاتب والناشر، أو من حيث موعد النشر الذي في أحيان كثيرة يعد أهم ما في هذا الاتفاق، وبعضها للأسف الشديد غدا يلجأ للغش في البندين، من حيث عدد المطبوع ومن حيث التوقيت الذي أحيانا ما يمتد لسنوات، وهي بذلك تصبح دور «نشل» لا دور نشر.

بعض هذه الدور يحصل علي ثمن طباعة ألفي نسخة، لكنها تطبع فعليا ما هو في حدود خمسمائة، وهي بذلك تفقد مصداقيتها، وشيئا فشيئا تتراكم الإشاعات حولها، حتى ينصرف الكتاب عنها فتتحول إلي مخزن مهجور يكتظ بالكتب غير الرائجة.

لكن، والأمر هنا يتعلق بشرف المسمي،أو لنقل بشرف مهنة النشر، تبقي أخطر مشكلة تعلق برقبة أغلب هذه الدور، وهي

مسألة إقرار النص المنشور.

من يقرأ النص ويقر بصلاحيته للنشر؟ فإذا كان بعض أصحاب هذه الدور لهم معرفة يمكن الاعتماد عليها في إقرار نص قصصي، لأنهم يمارسون كتابة القصص، أو أنهم يعملون بنقد القصة، لكن كيف هو الوضع إذا ما تعلق الأمر بكتاب في الفلسفة أو علم الجمال، في الموسيقي أو الفيزياء أو السياسة، فكيف يسمح ناشر هو قاص أن يحكم علي نص ويقر نشره في هذه المجالات التي تحتاج إلي عارف بهذه العلوم، وهو يفعل ذلك دون أن يرف له طرف.

هذا هو للأسف ما يجري في كثير من هذه الدور التي يمكنها أن تلجأ إلي تشكيل مجموعة من المتخصصين في هذه المجالات هم بمثابة «مجلس أمناء» يقوم بمهمة إقرار النصوص كل في تخصصه، ولن يعدم الناشر المحترم من أن يجد من بين معارفه وأصدقاء الدار من يقوم بهذه المهمة متطوعا أو بأجر رمزي، لكن أن ينشر الناشر نصا لا يستطيع الحكم عليه لأنه لا يعرف في الموضوع فهذه مصيبة الأفضل أن لا يكون نشر من أساسه.

***

التعصب المتخفي

لنتفق جميعا علي هذا المسمي للمرض الجديد ـ القديم، أعني: هذا التعصب الذي يتخفى أصحابه تحت مسميات «متأدينة» من جميع الطوائف والملل والنحل في الشرق والغرب علي حد سواء، هي – هذه المسميات – تعبر أكثر ما تعبر عن جهل وتخلف.

جهل بالدين نفسه، لأنه أساسا ينسي الرسالة الكبرى للأديان التي هي ولا شك رسالة محبة وتفاهم، رسالة خلاص وخروج من الجاهلية إلي الوعي بأن الإنسان مخلوق أسمي لا تجوز عبوديته أو استغلاله أو فرض آراء السدنة والمتسلطين والكهان عليه ، ومن ثم تغييب وعيه، بل دفعه للتفكير الحر، فالمؤمن المجبر علي الإيمان هو منافق والنفاق أشد من الكفر.

وهو تخلف لأن التعصب هو سلوك غير عاقل يهدف لاستغلال الآخر وفرض ما لا يريده بالقوة، وهذا يؤدي بدوره للحروب والمعارك التي لا نتيجة لها سوي الدمار، ونحن لا ننسي العبارة المتعصبة التي قالها جورج بوش في بداية الحرب علي العراق «بأننا سنيعده – أي العراق ـ إلي العصر الحجري» وهو ما يحدث الآن بالفعل.

لم يقل السيد بوش في عبارته هذه بأنه سيقتل صدام حسين أو أنه سيخلص العراق منه بل تحدث عن العراق كوطن وأمة وها هو يصدق لا فض فوه ويعود العراق بالفعل إلي العصر الحجري.

إن المتعصبين في أميركا يريدوننا أن ننسي أنهم كانوا قد التقوا ذات يوم بالمتعصبين من أمثال صدام حسين وبن لادن، ساعدوهم ودربوا عصاباتهم وأمدوهم بالسلاح والعتاد والأموال، لكنهم لا يدركون أن منطق التعصب إذا استمر فإنه ينتهي بانقسامات أشبه بانقسام الخلية علي نفسها ، ينقسم من دائرة واسعة إلي دائرة أضيق، نم ينقسم مرة أخري، إلي دائرة أضيق، ولن يكون غريبا أن نري بشكل واضح ما تشيعه هذه الروح المتعصبة من انقسامات في المجتمع الأمريكي نفسه بظواهر ربما نشاهدها لأول مرة، ثم ها هو التعصب يؤتي أكله في العراق، ويكاد ينتشر ليشيع في بلدان كثيرة هنا وهناك حتى أضحي مرضا عضالا ينتشر في الخلايا الكبيرة كما يغزو الخلايا الصغيرة حتى انك لا تفاجأ حين يتهمك ابنك وهو لم يبلغ الحلم بعد بالكفر، بل قد لا تفاجأ حين تجد التعصب ينام علي سريرك، بجوارك، في زوجتك فهو بحق مرض العصر.

***

مساهمة البروليتاريا الرثة

كان المفكرون التاريخيون التقدميون يفرقون بين العمال الصناعيين (البروليتاريا) باعتبارهم طبقة علي درجة كبيرة من الوعي، وبين البروليتاريا الرثة التي يشكل أفرادها خطرا علي الوعي العام ووجدان الشعوب لأن درجة وعيهم متدنية كما أذواقهم وأخلاقهم.

من هنا يمكننا أن نفرق أيضا بين الطبقة البرجوازية الواعية الذين ساهم بعض أفرادها بكثير من الجهود التي ساهمت في تبني الفنون والآداب مساهمات مرموقة (محمد محمود باشا مثلا الذي ترك وراءه تراثا عالميا قد يكون هو الأهم ضمن ما تضمه مقتنيات مصر من فنون في متحفه الشهير) وبين طبقة الأثرياء الجدد الذين كونوا ثرواتهم من الفساد.

هؤلاء هم الخطر الأكبر الذي يعانيه الوجدان المصري الآن، فهم الذين يقفون وراء رواج المسرح التجاري الرخيص، وكليبات الأغاني الرخيصة، كما سينما المقاولات الأكثر رخصا، وهم الوسط الطبيعي الذي نمت فيه لغة هجين (تسمي لغة الشناكيح) التي يضم قاموسها العشرات من التعبيرات والمفردات الرخيصة المبتذلة، وتجدهم بقوة المال كما قوة النفوذ يصلون بأبنائهم إلي

أوساط لم يكن أحد يتصور أن يتواجدوا فيها.

جامعات شهيرة ونواد معروفة يرتع فيها هؤلاء بقوة المال لا بقصد العلم، باعتبار أن الجامعة مرتفعة المصاريف مظهرا اجتماعيا، لا معبدا لتحصيل العلم، وباعتبار التواجد في النوادي العريقة يضفي عليهم مسحة من الأرستقراطية المظهرية، لا وسطا لحياة اجتماعية راقية، كما تجدهم يملأون «الكفي شوبات» في المولات التي انتشرت كالنار في الهشيم في ربوع مصر غير المحروسة، وعليك أن تعود لفيلم «الجامعة الأمريكية» لتري نوعية أبطاله، ولغتهم، ومظهرهم وطريقة تصرفهم وسلوكهم، كما عليك أن تستدعي حركات روبي وهيفاء وحسناء (اللواتي لا تحسن أي منهن لا الرقص ولا الغناء ولا حتى الدلال أو الإثارة بل القرف والتقزز) لتعرف إلي أي حد انحدرت هذه الطبقة الرثة التي تنتج وتروج وتستهلك هؤلاء.

لقد انحدروا بفن الرقص إلي حركات رخيصة لا تعرفها راقصة مثل تحية كاريوكا أو سامية جمال أو فريدة فهمي، كما انحدروا بفن الغناء الخفيف اللطيف إلي كلمات وأنغام لم تكن تعرفها شادية أو هدي سلطان أو سعاد حسني، كما انحدروا حتى بمفردات اللغة التي لا يمكن لعقل أن يتصور ترديدها في قصور أغنياء زمان التي خرج منها الكثير من الصناعيين المصريين الكبار والمثقفين الكبار، بل والمناضلين الكبار أمثال نبيل الهلالي

ومحمد سيد أحمد وفؤاد حداد طيب الله ثراهم.

وحتى لا أقع في فخ الترويج لهذه المفردات «الشنكوحية» التي تروج هذه الأيام في المولات والجامعات والنوادي وكلمات الأغاني الهابطة أكتفي بالإشارة لها من بعيد، فالروح تنزف والقلب يدمي، لكن الأمل لا يزال في يوم تنقشع فيه هذه الموجة من الابتذال، وحكاية برج بابل شاهدة من التاريخ علي انه في اليوم الذي تتفرق فيه اللغة وتتمزق، ينهار البرج علي رؤوس الجميع.

***

إعدام المسئولية الأدبية

لا أعرف الأسباب الحقيقية التي تقف وراء شهرة ميلان كونديرا في عالمنا العربي بهذه الطريقة الواسعة، وهو أمر ثانوي، فيما يخص الرواية (التي نسميها الرواية الخالصة) فالرجل من الممكن أن يكون كاتب مقالات من الدرجة الأولي (إذا استثنيا ضلالاته التي تصل به إلي حد التزوير)، لكنه من جهة الرواية فهو في تقديري الشخصي، كاتب من الدرجات الدنيا في عالم الرواية الكبير الواسع.

يتخذ كونديرا من كافكا مثلا يحتذي به فيما يسميه «حساسيته» ـ هو وآخرين ـ إلي البعد الجمالي المنسي في الرواية، إذ قام «بإعادة دمج المقالات التأملية في الرواية» وهو تضليل كبير

للقاريْ، لأن الإعجاب الكبير الذي يكنه قراء كافكا له، لا بسبب دمجه (هكذا بهذه الصراحة التي تدعو للعجب) للمقالات التأملية في الرواية، بل بسبب استعماله لتكنيك المقالة التحليلية في رسم شخصياته بأبعاد أكثر اتساعا لسبر غور الشخصيات والغوص في أعماقها، لا بسبب دمج المقالات في جسد الرواية دون أن يكون قادرا علي الوصول بهذا الدمج إلي أن يكون في صلب الرواية وجزءا أساسيا منها، كوسيلة سقنا الهدف منها، كما يفعل كونديرا نفسه، الذي تقرأ له أكثر من ثلاثين صفحة في بداية روايته «الحياة هي في مكان آخر» عن الشعر ومعانيه (وهذا الجزء بالفعل يمكن اعتباره مقالة تأملية عن الشعر بامتياز) لكنه من باب التمهيد المرذول (كما كنا نري الكتاب التقليديون يبدءون بوصف الجو قبل الدخول في وصف الحركة) الذي نبذته الرواية الخالصة علي يد كتابها الكبار، الذين استجابوا لعملية تطور الرواية لتصبح فنا قائما بذاته، يمكنه أن يستعين بأشكال الفنون الأخرى، لكن من داخله، لا بطريقة الدمج له وهو قائم كشكل مستقل يرفض التماهي مع النص الأم، بل يظل مستقلا لكنه يدمج (كذا) في الرواية وهو لأنه موجود في هيئته (كما قال) فإن عملية الإدماج هذه تكون عملية مفتعلة مهما كان هدفها نبيلا، إلا أنه يعبر عن نقص في القدرة علي بناء رواية متكاملة، كما انه خلط للأوراق، لا «تطور تاريخي» جعل البناء الروائي أكثر حرية

لاستعماله ما يسميه «حق الاستطراد وبث روح اللاجدية واللعب في الرواية» وهو تضليل لا أظن أن أحدا آخر غير كونديرا امتلك القدرة علي التبجح به (جهارا نهارا) كما فعل هو .

يعتبر كونديرا أن حق الاستطراد، ووضع المقالات التحليلية في نص الرواية تجديدا يعبر عن المرحلة المعاصرة للرواية (في شوطها الثالث ـ إذ انه يقسم الرواية إلي أشواط ثلاث (كما ولو كنا في حلقة سباق للخيل) كما يعتبر أن ما يفعله هو «رفض إعطاء القارئ أي إيهام بأن ما يقرأه حقيقي (وهو تضليل آخر) لأن ما يفعله هو بكتابة مقالاته التأملية في نص الرواية دون القدرة علي استعمال أسلوب المقالة (كما فعل كافكا العظيم بقدرة فائقة) لبناء رواية هو محاولة فاشلة لإيهام القارئ بأن ما يقرأه حقيقي (أو أن لعبته برمتها مجرد عبث ـ أو لنقل مجرد عجز ـ) فالانطباع الأول الذي يعلق بذهن قارئ (روايات) كونديرا أن الرجل يريد أن يوهمنا بأن ما يكتبه حقيقي (أي يريد أن يلعب لعبة الإيهام) ثم تعجب حين تقرأ كلامه النظري في كتابه «خيانة الوصايا» فتجد أن ما يقوله نظريا هو عكس ما يريد، في كتابته الروائية.

وهذا ما يجعلنا نقول أن ما يقوم به كونديرا يجعلنا نعتقد أننا بصدد عملية إعدام ـ بدم بارد ـ لما يسمي المسئولية الأدبية: عما نقول، ونحن نعرف لمن نقول.

***

خيانة الرواية كعملية إنتاج

تبدأ عملية الخيانة التي تنضوي عليها رؤية «ميلان كونديرا» من فهمه الأولي لتاريخ الرواية، فهو يقسمه إلي أشواط، دون اعتبار لحقيقة أن الرواية «عمل فردي» كل كاتب هو مستقل استقلالا كاملا، عن كل الآخرين من قبله ومن هم بعده، فحتى الآن يمكنك أن تجد روائيين مهمين ينتجون في بداية القرن الحادي والعشرين إنتاجا، يمكنك أن تعتبر إنتاج كاتب كبير مثل جويس،متجاوزا لهم من حيث التمكن والجدة، وبالتالي فإن وضع الروائيين في جماعات يسميها كونديرا «أِشواط» هو فهم مغلوط لطبيعة الفن الروائي بما هو عليه، وقد تكون النظرة الصائبة لتاريخ الفن هي التي تري في عمل كل كاتب شيئا مستقلا بذاته لا يمكن إلغاؤه من قبل التالين، وهي النظرة التي تري فرقا جوهريا لما أسماه أرشيبالد ماكليش بـ «السلم الأدبي» الذي يفترق عن «السلم العلمي» بشكل جوهري، فهو يري أن السلم العلمي ينبني علي أساس أن كل نظرية علمية جديدة في فرع معين من فروع العلم تبطل النظرية السابقة عليها وتخرجها تماما من صلاحيتها للعمل بها، لكن في السلم الأدبي يظل لكل عمل أدبي قيمته الذاتية في حد ذاته فهو غير قابل للبطلان، لذلك يظل

حيا في التاريخ من حيث قيمته.

لذلك فإن المسألة التي يسميها كونديرا «رد الاعتبار الذي يمارسه هو وفوينتس (علي حد قوله) لمبادئ الكتابة الروائية المنتمية للشوط الأول ـ حقبة بروست ـ لا يعني العودة إلي الأسلوب القديم، كذلك لا يعني الرفض الساذج لرواية القرن التاسع عشر، بل هو «إعادة تعريف وتوسيع جوهر الرواية، ومقاومة تقليص إطارها الذي بنيت عليه جماليات الفن الروائي في القرن التاسع عشر، وجعل تاريخ الرواية كله مادة للاستثمار».

هذا هو نص كلام كونديرا، والسؤال الآن كيف يمكن جعل تاريخ الرواية مادة للاستثمار؟

هو يجيب بطريقة مراوغة تصل به إلي حد القول بمسألة دمج المقالات التأملية ووضعها في الرواية، وهي مغالطة كبيرة نحن بكل بساطة لا نجدها إلا وهي تصيب عمله هو نفسه بالعطب (ولا يمكننا هنا إلا أن نري ما ينطوي عليه عمله هو نفسه من إمكانيات كبيرة يبددها لتبنيه لهذه النظرية الغريبة التي تجعل قارئه وهو يعجب برشاقة أسلوبه يعجب من الاستطرادات التي لا لزوم لها والتي عمل الكتاب الكبار علي التخلص منها منذ بداية القرن العشرين).

بالعودة مثلا لما قاله إرنست هيمنجواي عن كفاحه الدائم لنفي الزيادات وتخليص النص الروائي من الاستطرادات،

والبحث الدءوب عن الكلمة الصحيحة لوضعها في المكان الصحيح، هذا المجهود الكبير الذي ساهم فيه كتاب القرن العشرون الكبار مساهمات كنا نظن أنها حققت إنجازات في دفع الرواية لتصبح فنا مستقلا عن الفنون الأخرى، هذه المجهودات يأتي السيد كونديرا ليهدمها بجرة قلم يبدو ليحقق ما حققه فعلا: سوق الروية لتصبح عملا سهلا للعاطلين عن الموهبة، وها أنت تري الآن كل من هب ودب يسود الصفحات ويكتب عليها بكل جرأه: رواية، وهذه الأعمال التافهة تجد للأسف من ينشرها وتجد في السيد كونديرا وشهرته (خاصة بعد تعميده بجائزة أدبيه إسرائيلية في القدس) سندا لها، ولبئس السند.

***

ملخص الرواية كعمل مضاد

أن تصف حركة الشخصية شيء، وأن ترسم الشخصية (الروائية) وهي تتحرك (فهانحن نراها ككائن حي له فضاؤه الخاص) شيء آخر، ذاك عمل الكاتب العاجز، أو المتعب، أو الغافل، وهذا عمل الروائي الحقيقي الموهوب والعارف بطبيعة ما عمل الروائي.

كذلك أن ترسم الحدث وتضفي عليه من روحك ليكون هو منك لكنه ينفصل عنك ساعة أن تدعه للناس، هذا شيء، وأن

تعبر عن الحدث بالإنابة عنه، هذا شيء آخر يضعك في مكان المحرر الأدبي أو «ملخصاتي» الكتب في أسوأ معانيه، وهذا شيء آخر ليس له أساسا أي علاقة بالرواية (الخالصة)؟

ما المشكلة؟

المشكلة أن أغلب ما تقرأه هذه الأيام (أقول أغلب وليس كل) هو من باب ملخصات القصص، وهو أمر لا يقوم به فقط المبتدئين من الكتاب، بل للأسف كتاب لهم مقامهم (وكانت لهم أعمالهم الروائية السابقة) ولكن يبدو أنهم تأثروا بالهياج الممجوج الذي أثارته بعض ملخصات الكتب ـ وبكل جرأة صاحب عناوينها كلمة رواية ـ لأنها احتوت علي إثارة ليست من باب الأدب بل من باب الفضائح الاجتماعية أو السياسية (التي هي وسيلة سهلة للشهرة الرخيصة) فقالوا: هيا ننل من بعض الضجيج شيئا، فهذا هو الرائج اليوم، فكانت الخيانة: خيانة التاريخ السابق، كما خيانة الرواية كفن الفنون.

نعم الرواية هي فن كل الفنون.

لأنك يمكن أن تجد فيها كل الفنون الأخرى، يمكنك أن تجد السينما كما تجد المسرح، كما يمكنك أن تجد الرسم والتصوير كما الشعر وحتى الوثيقة، بل ويمكنك أن تجد بها الموسيقي، كما يمكنك أن تجد حتى المقالة التحليلية التي استغل كافكا ـ مثلا ـ أسلوبها فأبدع روايات رائعة تنبض بالحياة.

الرواية فن الفنون، لذا فإنها فن صعب المنال، وليست عملا سهلا لعاطلى المواهب، إنها فن لا يمكن تعيين كاتبه بقرار أو اقتراح أو دعاية أو مال أو تربيطات (أو تنطيط من سرير إلي سرير) أو زق من هذه الجهة أو تلك، فكل هذا قص ولزق وعمل أطفال لم يبلغوا بعد سن الرشد أو عمل «شناكيت» الحانات أو هو أحيانا عمل «عواجيز الزفة»، فما أروع الموروث الشعبي حين يلخص الموضوع بكلمة أو اثنتين ويقول بحكمة الأيام ما الحكاية بالضبط.

ولأن الرواية كتابة فهي عمل إنساني خالص، هي إنتاج مضاف لتاريخ البشرية.

***

ضرورة ألا يكون المحلي مبتذلا

وبعد «الغناء» يأتي الدور علي الرواية ليظهر لنا أكثر من «شعبولة» قادما من عشوائيات مدعي الأدب مرتديا زيا آخر لا يقل فجاجة عن صاحب ظاهرة الأغاني الهابطة، لكن هذه المرة مستندا إلي مرجعيات «ممنطقة»:

ـ مرجعية تستند في أقاويلها الفجة إلي كلام رخيص عن «المحلية» المبتذلة، ولأنها مبتذلة فهي «محلية» تشكل تيار المقاومة الشعبية في مجال الرواية، بزعم أن كل ما هو محلي هو

أيضا مبتذل ومتخلف، أما المتقدم الساعي إلي التجديد فهو يغازل «الكوكبية» المهروسة بعجين الاغتراب المتشظي بالتيارات الخارجية الداخلة في ثياب الكل شي كان، وما أسهل التنظيرات المرحرحة المرتاحة إلي أسلوب هو في حد ذاته جاهل ومتخلف لا يري أي مجهود جاد للتعلم من تراثنا الجميل المتقدم، الذي لا يري في مسألة «الهوية» مجرد المحكي الشعبي القادم من ثقافة العشوائيات الملوثة للبيئة الثقافية والاجتماعية.

ـ مرجعية سياحية يتزين أهلها برغبات مدعي الإستشراق في أسخف صوره، فبمجرد سرد طرائف تساق للضحك في الغرز تحت سحب الدخان الأزرق الرخيص تقهقه الأفواه وكأن «الكاتب» قد خلق لدغدغة مشاعر السكاري من أشباه المستشرقين الذين يستسهلون نقل هذه النماذج السخيفة الخالية من أي مجهود جاد عبر ترجمات رديئة، ويافرحة الأوساط «الخارجية» الداعية إلي النموذج «المحلي» المتخلف باعتباره هو الأصل وهو الصورة الحقيقية لنتاجنا وواقعنا، ولتذهب مجهودات المجددين الرهبان (في كل مجال) إلي الجحيم.

ـ لقد قام الروائيون المصريون الكبار ومنذ جماعة الستينيات بمجهودات شاقة للتجديد في مجال الرواية، حتى أضحت قيمة أدبية كبيرة، وقوة لا يستهان بها تؤكد علي أن المبدعين في هذا المجال قد قدموا الرواية «البديل» ثم تأتي هذه الحثالة لتختطف

هذه القوة وتستخدمها لصالح نتاجها المبتذل، ليعود يحي الطاهر عبد الله ومحمد البساطي وبهاء طاهر (وإلي آخره) إلي المربع الأول وهم الذين جاهدوا من أجل الخروج منه، ونجحوا، لكنهم يصبحون الآن محاصرين بهذه الموجة العارمة من الابتذال الذي تسببت فيه بالتأكيد دور نشر «إدفع وانشر»، وهي التي حان أوان تعرية سلوكها المشين الذي جعل الساحة تعج بالمدعين والمدعيات، وهنا لا بد من «بديل» جديد في مجال النشر حتى تعود الصراصير إلي جحورها، وهو ما نحن مقدمون عليه في القريب العاجل.

إن «شعبولة» حتى لو سب إسرائيل، وحتى لو سب بوش، وحتى لو سب كل المفترين في الأرض، فهو بالتأكيد لا يمثلنا، بنتاجه المبتذل، وسبابه الجاهل، وبالتأكيد هو لا يمثل سوى تلك الشريحة المبتذلة الخارجة مع «طيور الظلام» من العشوائيات التي تسببت فيها سياسات عشوائية لشد ما صفقت لها إسرائيل وباركتها دولة بوش حتى نظل دائما وإلي الأبد في قاع العالم بحجة «الشعبوية» المرذولة ابنة «البروليتاريا الرثة» التي تحمل جرثومة الخطر علي حاضر ومستقبل هذه الأمة.

***

استعمال لغة الناس

تحت دعاوى عديدة متنوعة (علي رأسها دعاوى التجديد أحيانا، واستعمال لغة الناس أحيانا أخري، بل دعاوى العودة للمحكي الشعبي عبر رطانة ممجوجة بالعامية المصرية ـ القاهرية بالأحرى) تجري الآن عمليات استنبات هجين مشوه للرواية لن يغفر لها التاريخ أنها تسير عكس قانون التطور الطبيعي من مرحلة البداية والرواية في مرحلتها الجنينية الأولي حين كانت مكبلة بالحكاية كشكل وباللغة المثقلة بالمحسنات غير البديعية كوسيلة حتى وصلت إلي النضج حين أضحت في نماذجها القوية فنا قائما بذاته، هو إن كان يحتمل الاستفادة من الأشكال الفنية المعاصرة لكنه يظل مستقلا عنها، الأمر الذي لم يتم إلا بعد صراع طويل خاضه الروائيون الكبار ليصلوا إلي ما يمكننا أن نطلق عليه «الرواية الخالصة».

المسألة في تقديري تبدأ بما إذا كنت مؤمنا حقا بهذا الشكل: شكل الرواية باعتبارها فنا، وما إذا كانت قدراتك تؤهلك لأن تري العالم من عيني روائي، وما إذا كان كفاحك ينصب علي أن إيمانك هذا من القوة بحيث أن أي شكل آخر (أو لنقل أي نوع آخر: الشعر ـ الدراسة ـ المسرح إلخ) أو أي شكل نثري آخر:

المقال، الصورة الأدبية، التقرير إلخ) لا يمكن أن يجعلك تسير في طريق العطاء المستمر للوصول إلي الرواية الخالصة إلا بهذا الإيمان. نعم هذا الإيمان.

هنا نصطدم بمقولة التجديد، الذي هو في تقديري يمكن أن يجري ويتم من خلال شكل الرواية كفن، وهذا لا يعني مصادرة أي كان لكتابة أي شيء دون ادعاء بأنه بالضرورة من فن الرواية، فإذا كان ادعاء التجديد يستعمل صيغة الإرهاب وهو يخرج عن صيغة الرواية ليعود إليها من الباب الخلفي، إذا كان هذا الادعاء يري أن من حقه أن يفعل ما يشاء بدعوى الحرية، فعليه أن يكون في ذات الإطار المنطقي ويستقيم مع من منطقه هو ذاته ليبحث عن مسمي جديد يطلقه علي منتجه الجديد.

ما هي المشكلة في أن يطلق كاتب ما من المنتشرين هذه الأيام، تحت مظلة الاختلاف والتجديد أن يطلقوا علي كتابتهم مسمي: «نص» كما فعل الصادقون منهم بالفعل؟

ما هي المشكلة في أن يصف متوسل المحكي الشعبي بذات شكل نتاجه ويصفه بأنه محكي شعبي؟ علي الأقل حتى (حين يعود الدرس الأدبي إلي صوابه وعدله وهو أمر مؤكد حدوثه في القريب) لا يحاكم (أو لنقل يدرس) بمنهج يتوسم الرواية كفن فتكون النتيجة: صفر، هذه ليست رواية، وإنما هي نص، هذه ليست رواية وإنما محكي شعبي، هذه ليست رواية وإنما خواطر

نثرية قد تكون جميلة، هذه ليست رواية، وإنما انطباعات عن مفارقات الحياة (وقد تكون مؤثرة بالفعل) هذه ليست الرواية التي جاهد مجددوها الحقيقيين وهم يعملون بالدم والنار لتصبح فنا تحكمه رؤيا الكاتب الروائي حقا الذي لا يرضي بأن يوصف- حتى ـ بأنه أعظم الشعراء لأنه يكتفي بحالة التواصل مع العالم وهو يري كل شيء من عيني روائي.

***

أصل القيمة الأدبية

من قرأ أغلب الشذرات التي كتبناها في جريدة «البديل» (عامي 2008م- 2009م) قراءة متجردة من التعصب الأعمى (سواء كان هذا التعصب لمذهب فكري خفيف، أو رأي مجاني مزركش بلغة الشناكيح، أو موضة ملونة بادعاءات مبتكرة) سيفهم أن جل همنا كان التأكيد علي ما أسميناه مرارا وتكرارا (والتكرار يعلم الشطار) التمسك بـ «القيمة الأدبية» خاصة للأعمال الروائية، وهو مذهب إن كان يراه البعض غريبا، فهو بالنسبة لأمثالي من المجاهدين في مجال الكتابة الروائية نراه الأمر الأساس للكتابة (من أصله)، إذا لم يتحقق، لضعف في الموهبة أو قصور في الوعي، أو قلة في الخبرة أو جهل عظيم، فعلي من يمارس استخدام هذه الصنعة دون أن يبلغ القصد أن ينتحر، فهذا هو الحل الوحيد الذي اقترحه

المعلم الكبير «أرنست هيمنجواي» حين سأله أحد الصحفيين : بم تنصح الشاب الذي يريد أن يكتب ليكتب؟ قال لا فض فوه هذه العبارة البليغة، التي لا يستطيع أحد بعد الكاتب الكبير أن يحذفها من قائمة النصائح الدامغة.

من معرفتي بطبائع البشر رأيت دوما أن فئة «المثليين» هم من أكثر البشر تعصبا لمذهبهم الجسدي (للأسف)، حتى أنهم لا يغفرون لك عنوانا لعمود أردته جاذبا لقارئ الصحيفة فاستخدمت كلمة مكان كلمة هي أكثر جاذبية ليس إلا.

كان ديزموند ستيوارت (الكاتب الإنجليزي الكبير) أحد أصدقائي الأعزاء، كنت قريبا منه لسنوات، وكان من هذه الفئة المثلية، ولم أكن أندهش منه أو من سلوكه، فكل رجل حر في نفسه (وكل امرأة أيضا) لأن كل ما كان يهمني فيه هو مستوي كتابته والقيمة الكبيرة التي تنطوي عليها (أي القيمة الأدبية) ولا أخفي بل أكرر إعجابي الكبير برامبو (الذي كنا نحفظ أشعاره عن ظهر وقلب في شبابنا) وأنا أضع كتب فوكو وجان جينيه وبودليرضمن الكتب الأساس التي حين أحس بالضياع في هذا العالم المتعصب أعود لقراءتها لأعود لتوازني، فهم لشدة نباهتهم يضعونك في الموقف الوحيد الصحيح عند القراءة هو اتصالك بقيمتهم الأدبية (هل نكرر المصطلح مرة أخري؟) وهم في نفس الوقت من فئة المثليين.

معركة الرواية البديلة

كانت الرواية، بشكل عام، شكلا جديدا علي تراث الأدب العربي الذي كان جله يصب في مجال الشعر، حتى أصبحت علي أيدي الرواد الكبار جزءا لا يستهان به من النشاط الإبداعي العربي الحديث.

جاءت موجة أدباء الستينيات لتحولها من مجرد عمل ريادي (بما في ذلك الأخطاء الأساسية للعمل الريادي الذي يكون همه ترسيخ هذه الريادة حتى ولو علي حساب الفن) نقول جاءت موجة الستينيات لتحول الرواية إلي فن له قيمة أدبية (Literary Value) ترسخت في شكل «رواية بديلة» حتى أضحت النتاج الأبرز الذي لا يقل عطاء عن الشعر كفن.

منذ ذلك الوقت، ومرورا بالسبعينيات(التي قام كتاب الرواية خلالها بتحقيق إضافات مهمة علي جيل الستينيات) يمكن القول أن «القيمة الأدبية» قد ترسخت، وأضحت الرواية المصرية «قوة» أساسية يسمع صوتها عاليا في الأوساط المهتمة (اهتمام الواعين)، ومع دخول السينما الجديدة(البديلة) علي الخط، وبعدد محدد من الأفلام التي أخذت عن روايات مهمة لصبري موسي، ويحي الطاهر عبد الله، ومحمد البساطي، وصنع

الله إبراهيم وغالب هلسا وإبراهيم أصلان، والمنسي قنديل وغيرهم، اتسعت دائرة الاهتمام بالرواية، الأمر الذي أضيف له ما جري في مجال الأكاديميا من دراسات عليا، ومؤتمرات نتج عن عدد منها الكثير من الأبحاث، أضحت الرواية البديلة الجديدة واقعا راسخا دفع الكثيرين للقول بـ «زمن الرواية».

علي الجانب الآخر كانت الرواية الشعبية (إحسان عبد القدوس ويوسف السباعي) موجودة دائما في إنتاج غزير متنوع الاهتمام وأن لم ينل الكثير من الشهرة، وكانت بتحولها إلي السينما التجارية الشعبية أضحت أكثر جماهيرية، لكنها، أي الرواية الشعبية، مع اعترافنا بأنها وسعت من دائرة القراء العاديين الذين أقبلوا عليها بنهم، لم تكن، بحكم طبيعتها، مجالا للبحث الجاد أو الدراسة النقدية الواعية.

مع اختلاط المفاهيم، وتداخل الفروق، في هذا الجو الضبابي الذي نعيشه هذه الأيام، يزعم كتبة الرواية الشعبية أن لهم الفضل في جماهيرية الرواية، وهذا حق، لكن زعمهم بأنهم يكتبون الرواية ذات القيمة الأدبية هو خلط للمفاهيم ناتج عن قلة إدراك وتدن في مستوي الوعي، بل ونقول أن هذا من دواعي الجهل العميق، ومحاولة فاشلة لاختطاف الرواية كشكل، وهذا تهافت لا يفيد أحدا، ولا يمكن أن يقنع طفلا فما بال المؤرخ العادل والناقد ذي البصيرة.

إن نجاح أي عمل أدبي علي مستوي التوزيع لا يعني أبدا نجاحه علي مستوي الإبداع، وقد ينجح شغل «الهجامة» الذين يحملون المطاوي (قرن الغزال) في ابتزاز العابرين في المناطق المقطوعة أو سرقة محافظ ركاب الأتوبيسات، لكنه لا يمكن أن ينجح في مجال الأدب الجاد، ولا يمكن أن يعترف به التاريخ الأدبي الذي لا يرحم، فكم من أسماء انتشرت حتى ملأت شوارع القاهرة وانمحت مع الزمن، فتواضعوا تصحو، و إلا فإن مزبلة التاريخ مليئة بالادعاءات الكاذبة والأعمال الهابطة، يرحمكم الله.

***

زاوية النظر لتاريخ الرواية

أعتقد أن أي روائي في الدنيا، لديه فهم خاص، ورؤيا مضمرة، عن تاريخ الرواية من جهة، ثم ما هي الرواية من جهة أخري، صغر هذا الروائي أو كبر، غزر إنتاجه أو قل، لكن، وأري هنا أن الاستطراد واجب، هناك من يستطيع التعبير عن هذه الرؤيا المضمرة في كلام شفهي، عبر الحوارات والكلام المباشر، أو كتابة، كما أن هناك من هم علي قدر كبير من القيمة، انطلاقا من إنتاجهم الروائي نفسه، لكنهم لا يستطيعون التعبير، لا شفاها، ولا كتابة، عن هذه الرؤيا المضمرة.

ولأنني أعتقد أنني جبلت علي الكدح بمفردي كصاحب مشروع، لا كمجرد كاتب اسعي دون وعي، فإن مسألة رؤيتي لتاريخ الرواية العربية بالذات، مسألة شغلتني، كما احتلت حيزا لا بأس به من كتاباتي النظرية (أقول ذلك ببعض التحفظ)، ومن هنا فإن هذا الكلام الذي أسرده عليكم الآن موجود في ثنايا شهادات أخري، ومقالات مختلفة، وإن لم يكن بمثل هذا الترتيب المقصود هنا.

دعوني أقول أولا بأنني تابعت باهتمام استثنائي الكتابات التي أرخت لقضية «ما أول رواية عربية» بمدارسها المعروفة (حتى الآن)، إلا أنني أعتقد أن كل النماذج التي طرحت في هذا المجال (زينب لمحمد حسين هيكل، وعلم الدين لعلي مبارك، وغابة الحق لفرانسيس فتح الله مراش) لا تعدو أن تكون (خاصة من ناحية التذوق) محاولات ساذجة ما هي إلا تطلع مشروع للخروج من عب الأعمال الإنشائية (المقامات) التي سادت القرن التاسع عشر في محاولة منها للتخلص من بعض المحسنات البديعية التقليدية (وعلي رأسها السجع طبعا) وإن كان بعض هذه لم يفلت تماما من ذلك.

لا أريد أن أطيل في هذه النقطة، فليس هنا مجال ذلك، لكنني أصعد إلي الهدف مباشرة وأقول: إن الرواية العربية، الرواية التي أدعوها «الرواية الخالصة»، لم تظهر في شكلها الكامل نسبيا

(وكان الطريق محفوفا بمخاطر الفشل والنجاح) إلا علي يد نجيب محفوظ، فهو الرائد الأول بلا منازع، الذي أسس، إن لم نقل أنشأ مكتبة عربية في الرواية (بإخلاص قد يكون أهم مميزاته الشخصية) جعلت القادمين بعده يطمئنون إلي القول: «لدينا تاريخ سابق في هذا الشكل الجديد علي الأدب العربي الذي بدأ الآن وهنا علي يد هذا الرائد الكبير».

من هنا فإن تشبيه موقع نجيب محفوظ من الرواية العربية، بموقع سرفانتس بالنسبة للرواية الأوربية هو تشبيه حقيقي وجاد.

***

إنقاذ الرواية من الغابة الموحشة

بسبب العشوائية التي لم تترك مجالا في حياتنا العامة إلا وأصبحت هي القانون المسيطر عليه، حتى في مجال الأدب والفن، أنت تري غابة موحشة من النباتات المتنوعة التي نبتت بلا قصد، بينها نباتات ضارة وأخري فيها بذور الموهبة التي لو وجدت الرعاية السليمة العادلة المثقفة والواعية بدورها الكبير لسارت في طريق النمو الطبيعي الذي يؤدي بها إلي إنتاج راق يتصل بطريق الازدهار الحقيقي لا الزائف،حتى أنك تعود للمثل الذي ساقه الناقد والمبدع الكبير الراحل غالب هلسا وهو يشهد (في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات) موجة من نتاج غزير

كان كثير منه زائف فقال: أنت لو سرت في أي شارع من شوارع القاهرة لسقطت علي رأسك قصة قصيرة، وكان طبعا يسخر من حالة الاستسهال التي جعلت كل من هب ودب يكتب قصصا قصيرة ليس لها طعم أو رائحة، وهاهي الصورة تتكرر مرة أخري لكن ـ ويالللعجب ـ في مجال الرواية.

ما هو الحل إذن؟

لقد وجد الستينيون الذين كانوا معنيين بالكتابة الجادة في حينه الحل في إنشاء منبر متميز، هو إن لم يكن قادرا بحكم إمكانياته علي استيعاب الصورة كاملة إلا أنه استطاع الإشارة لعملية فرز دفعت بحركة النقد إلي التأكيد علي النماذج الجادة من النماذج الضارة فكانت النتيجة العامة أن أبقت علي الصالح ونفت الخبيث.

هذا المنبر التاريخي الهام هو (جاليري 68) طبعا التي أثارت حركة نقدية واسعة رأينا آثارها في المجلات والصحف الأخرى لا في مصر فقط بل في أنحاء العالم العربي.

الآن نحن نفتقد هذا المنبر الطليعي المتميز بروحه تلك التي لا تجامل، ولا تناور، ولا تتبني إلا ما هو جاد، ولا تضع في اعتبارها سوي قوة الإبداع وقوة المبدع.

هيا بنا إذن، من أجل إنقاذ المواهب الجديدة الجادة، ومن أجل إنقاذ قليلي المواهب أنفسهم (حتى يمتهنوا مهنا أخري

تلائم إمكانياتهم قبل فوات الأوان) هيا بنا ندعو لإنشاء منبر يقوم بنفس الدور: الدور الطليعي الذي يعمل علي، لا فقط مجرد نشر النماذج، بل وأيضا يعمل علي بعث حركة نقدية جادة مصاحبة لهذا النتاج، حركة عادلة تضع الأمور في نطاقها الصحيح، حتى لا يحس المبدع الحقيقي بالضياع، وحتى يسعى غير القادرين في مناكب الأرض ليرتزقوا من أعمال أخري أكثر فائدة لهم ولنا.

***

الرجل الذي وضع الفقر في المتحف

علي الرغم من أن دموعي لم تكن تكف عن السيلان علي خدي في مراحل كثيرة وأنا أقرأ هذا الكتاب «بنك الفقراء» الذي كتبه الأستاذ محمد يونس البنجلاديشى الفائز بجائزة نوبل للسلام بسبب تجربته الإنسانية الرائعة التي سجلها في كتابه هذا ووصلت به إلي طموح القضاء علي الفقر و«عدم تواجده في أي مجتمع إنساني متحضر وخلق عملية يتم فيها نفي الفقر بشكل نهائي ووضعه في المتحف» أقول انه علي الرغم من تأثري البالغ بما وصلت إليه أفكار محمد يونس وتطبيقه لبرنامج «القروض متناهية الصغر» ليكون ملهما للملايين من البشر للتخلص من الفقر إلا أن هناك شيئا في نفسي كان يدعوني للقول، لكن ياسيد يونس أنت رجل إصلاحي وأن برنامجك مهما كان عظيما فإنه

ليس برنامجا تقدميا يهدف للقضاء علي الفقر بمعناه الأشمل والأعم، قلت ذلك وأظن أن معظم «التقدميين» في البلاد العربية خاصة سيقولون ذلك، لكن كان عليّ أن أقول لنفسي هذه: وماذا فعلتم أنتم أيها التقدميون للفقراء علي أرض الواقع؟ أليس هذا هو السبب الرئيس في انحساركم عن الساحة؟ وأليس عمل التنظيمات المتأسلمة بين الفقراء ومساعدتهم بمثل هذه البرامج هو السبب الرئيس في تغلغلهم في مجتمعاتنا؟

علي أي حال فإن برنامج القروض متناهية الصغر الذي طبقه محمد يونس ورفاقه قد أدي لمساعدة الملايين من البشر، لا في بنجلاديش فقط، بل في العديد من دول العالم، كما أن الهدف الذي يجتمع حوله محمد يونس والعديد من الهيئات الدولية العاملة في هذا المجال بهذه الروح يطمح للوصول إلي القضاء علي فقر مائة مليون بني آدم خلال سنوات المدى المنظور، وهو هدف يدعونا إلي:

1 ـ قراءة هذه التجربة عبر الإطلاع علي كل أدبياتها ودراستها دراسة متأنية، دراسة نقدية بالأحرى.

2 ـ الزيارة ما أمكن للعاملين في منظمات المجتمع المدني للمشاريع التي أنجزها «يونس» خاصة أولئك المهتمين بمسألة التنمية للاستفادة مما جري علي أرض الواقع.

3 ـ دعوة محمد يونس للتعاون بين بنك «جرامين، بنك

الفقراء» وبين هذه الجمعيات لاختبار التجربة بنفس الروح التي تعمل علي «التأكيد علي هويتنا كآدميين أكثر من أية هوية أو انتماء آخر» واعتبار القيادة «عملا يعتمد علي القدرة علي صياغة رؤية ملهمة للأفراد، بدلا من أن تكون القيادة عملا يعتمد علي التحكم والسيطرة».

المهم هنا أنني أدعو لقراءة هذا الكتاب ودراسته فهو علي كل حال كتاب مثير يحكي تجربة كبيرة ورائدة في مجال العمل العام.

***

محلات الأحذية تعود للكتب

كان الكتاب المصري ومنذ منتصف السبعينيات قد بدأ يعاني من أزمة خانقة تسببت في تدهور حركة توزيعه التي ارتبطت بحركة إغلاق المكتبات العريقة التي كان يغص بها وسط البلد (زمان) واحدة بعد الأخرى (والغريب أن أكثرها تحول إلي محلات للأحذية!) الأمر الذي أدي بدوره إلي تقلص عدد ما يطبع من كل كتاب من الرقم الذي اعتدنا عليه في أواخر الستينيات وبداية السبعينات بمتوسط يتراوح بين 3 إلي 5 آلاف نسخة،وحين أعود إلي مقالاتي في مجلة الهلال (في ذلك الوقت) أجدني غاضبا من تدني هذا الرقم؛ أقول، وصل هذا الرقم مؤخرا إلي خمسمائة

نسخة علي الرغم من الزيادة الكبيرة في عدد السكان.

توزيع الكتاب (وهذا أمر بديهي) مرتبط بعدد منافذ التوزيع، لأنني أتصور أن القارئ موجود، لكن المشكلة ترتبط بوصول الكتاب إليه، وهذا مرتبط بدوره بعدد المكتبات المخصصة لبيع الكتب لا الأدوات الكتابية.

ومنذ فترة قصيرة بدأ عدد كبير من المثقفين يعملون علي حل هذه الإشكالية عن طريق إنشاء مكتبات، المفرح أنها مكتبات «عصرية» تستخدم وسائل الاتصال الالكترونية، كما تستخدم الكمبيوتر في خدماتها التي تقدمها لقرائها، بل إن بعضها يلجأ إلي أسلوب توصيل الكتاب إلي المنازل، تسهيلا لمن يريد الكتاب دون أن يكون قادرا علي اختراق الشوارع المكتظة بالزحام، وبعضها يوفر خدمات أخري تجعل من زيارة المكتبة عملا ممتعا، كتقديم المشروبات والسندوتشات (ولم لا) فهذا يجعل الباحث عن الكتاب يقضي وقتا ممتعا، يمكنه من البقاء أكبر قدر ممكن من الوقت حين يحس بالتعب يمكنه الاستراحة ليعاود البحث عما يريد.

كانت مكتبة «ديوان» هي الرائدة في هذا المجال، فزيارتها بالفعل ممتعة، والخدمات التي تقدمها أكثر إمتاعا، وهي تقوم بفتح فروع أخري لها في مناطق مختلفة من القاهرة وربما في مدن أخري، وما بدأته بحفلات التوقيع هو أيضا أسلوب جديد

علي الحياة الثقافية في مصر (وإن شاهدناه في بلاد أخري منذ وقت طويل) فها هي والسلسلة تمتد وتكاثر في آفاق وسنابل وكتب خان وسندباد وما أجمل الأسماء العربية الأصيلة التي تدل على أن منشئي هذه المكتبات هم أيضا مثقفون يعون الدور الكبير الذي يمكن أن تقوم به المكتبة في المجتمع، إنها نقطة ضوء وسط الظلام الذي يخيم علي حياتنا، فتحية واجبة لهؤلاء المغامرين الذين يعون أكثر من غيرهم أن العمل في مجال الكتاب مغامرة محفوفة بالمخاطر المادية، وإن تكن مغامرة ثقافية مضمونة النتائج علي المدى الطويل.

***

النغم الشارد أو المغني الشعبي

فجأة تذكرت عود الشيخ إمام الذي كان قد تركه أمانة بين يدي لسنوات طويلة قبل رحيله.

لا أعرف لم أتذكره الآن علي الرغم من أنني ـ اعترف ـ كنت قد نسيته منذ فترة لا أستطيع تحديدها أو قياسها بعد أن سال الزمن مع المكان، فلم يعد ممكنا التفريق بينهما، أو مضاهاتهما، لأن ما جري وكان يجعل الألوان تختلط، والمرايا تتحول إلي سياج، ومع ذلك ترفض الذاكرة أن تتحرك عن وجوه شكلت أساس رؤيتنا للعالم، أو كانت دليلا ينير الطريق، أو لمسة ريح

من رياح الحقيقة الضائعة.

كان الشيخ إمام يحب بيت السيدة زينب الذي كنت أعيش فيه لسنوات حتى ما بعد رحيله بفترة.

كان يحب هذا البيت، ربما، لأنه كان مطمئنا أنه ليس كبيوت الأصدقاء الآخرين، تلك التي لها أبواب لها «كوالين» تغلق وتفتح منها، وأن أصحابها هم وحدهم من يمتلكون مفاتيحها، بل كان بيتا من نوع عجيب، إذ أنه يمكن لأي شخص يعرف «السر» أن يدفع بالشراعة الزجاجية ويمد يده للداخل ويفتح الكالون، ويدخل، وهو لأنه يفعل ذلك بكل ثقة واطمئنان، فإنه لا بد أن يكون له الحق في فتح الثلاجة ووضع ما جاء به من طعام لرواد البيت، كما له الحق تماما في فتح الثلاجة وتناول ما فيها من طعام، وربما كان يحبه لأنه كان مطمئنا تماما أن هذا بيته، وأن روحه خفيفة عليه، لذلك فقد كان الشيخ إمام حين يريد التمشية مع أحمد الليثي (جامع تراثه)، أو محمود اللبان (المثال التلقائي) فإنه يستطيع أن يمشي إلي هذا البيت، ويطلع بثقة، فسواء كان ساكنه موجودا أم لا، فإنه سيستطيع الدخول، والتمدد علي كنبته المريحة، ويستمتع بالنسمات الرطبة الآتية من نوافذه الواسعة المفتوحة علي كل الاتجاهات، ثم تأتيه الجلالة فيمد يده إلي حيث علق عوده ويبدأ في الدندنة، وكم من مطالع ألحان بدأها الشيخ إمام في هذا البيت الذي أفتقده، كما أفتقد عود الشيخ إمام

الذي لا أعرف أين ذهب، ومن أخذه، ومتي، حتى ليبدو وكأنه حلم، لكنه حلم يستحق البحث عنه، والتفكير فيه، في هذه الأيام الصعبة جافة العود والتي لا نسمع فيها سوي الغث من الألحان.

لقد آليت علي نفسي أن أعمل منذ الغد علي البحث عن عود الشيخ إمام، سأدور في الحواري والشوارع، في المقاهي والمنتديات، في بيوت الأصدقاء واحدا واحدا، سأعمل كل ما في جهدي حتى أعثر عليه.

أين عودك يا شيخ إمام؟

***

المحيط الثقافي المجهد

هل يمكن أن يكون الجو العام الذي يعيشه المبدع في مصر الآن صالحا ليكون حاضنا ودافعا للإبداع، والاستمرار فيه؟

هل هذه الحالة التي نعيشها هنا والآن قادرة علي دفع المبدعين للاستمرار، لا نقول للعيش من الإبداع، فهذا أمر مفروغ من استحالة تحقيقه، لكن مجرد الإحساس بأن عملك علي الأقل، يعامل بالجدية الكافية، فيجد، علي الأقل، المنبر اللائق، والمشرفون الرعاة حقا، العادلون، الذين يحنون علي شباب المبدعين بالنصيحة الجادة، والتقييم المنصف، ليحس الموهوب بأنه ينال حقه، ويصحو الواهم علي حقيقة أن هذا

الطريق ليس طريقه فيذهب إلي صنعة أخري أكثر إفادة؟

كيف يمكن لهذا العدد المتزايد من المبدعين الشباب أن ينضجوا ويترعرعوا في ظل قلة المنابر، وعدم تمثيلها الحقيقي للتيارات والأجيال؟ فالجيل الذي بلغ الستين الآن مغيب بالكامل، أما الأجيال الجديدة فتنام علي الضنى، والسادة العواجيز لا يزالون يقفون علي الأبواب يمنعون غيرهم من الدخول، حتى «تركبت» الأزمة، فأضحت أزمات.

ثم أننا كيف لا نزال نعني بالإبداع، فقط الأعمال الأدبية، وماذا عن الإبداع الفكري، والفلسفي، والفني، أين مجلة الفكر المعاصر، وأين مجلة المسرح، وأين مجلة السينما، وأين مجلة علم الجمال،وأين مجلة تراث الإنسانية، ولم هذا الإصرار علي قطع التاريخ الأدبي بأن نهدم الموجود الراسخ الثابت، لنقوم بعمل هجين تافه، لا لشيء إلا أننا نريد أن نثبت دائما بأننا فراعنة وعلي كل فرعون منا أن «يكشط» اسم ورسم الفرعون السابق دون إدراك بأننا سلسلة واحدة مستمرة من المصريين؟

ماذا لو كنا بنينا علي تاريخ «الفكر المعاصر» وجددناها ونفخنا فيها من روح الشباب الجديد والأفكار الجديدة، ماذا لو كانت مجلة «القاهرة» أيام غالي شكري، قد استمرت ليس بالضرورة بأشخاص المشرفين عليها بل بنهجها الجاد الذي سارت عليه خمس سنوات ونيف،حتى أنك إن عدت إلي ما أصدرته من

أعداد تحس بالحسرة، وتحس بأننا برجوازية لا تحسن التراكم بل تحسن «الطرد خارج الحلبة» كما قال يوما صلاح عيسى في بحثه النابه «البرجوازية المصرية ولعبة الطرد خارج الحلبة» الذي كان لي شرف تحويله من مجرد مقدمة إلي كتاب نشرته في دار التنوير المأسوف علي حياتها، وكان أكثر الكتب رواجا في حينه.

***

BBC للأسف

كان يا ما كان في سالف العصر والأوان محطة تسمي (بي بي سي) كان لها شنة ورنة، حتى أن والدي رحمه الله كان قد ترك مؤشر مذياعه عليها، لا يفتح غيرها ولا يتعامل مع سواها، وكان وهو معلم الأجيال، يقول أنها وحدها تقول الحقيقة، حتى جاءت حرب 67، فإذا بها تظهر علي حقيقتها، كما ظهرت علي حقيقتها أثناء حرب 73.

ما حقيقتها؟

إنها علي استعداد لقول الحقيقة في أي شيء يخص أي بلد أو طرف أو شخص أو مجتمع، إلا فيما يخص الصراع العربي الإسرائيلي (مع التحفظ علي هذه العبارة المراوغة) فإنها تظهر (وتخفى) كل ما في إمكاناتها المهنية العالية لترجح كفة الطرف الإسرائيلي، بل ولتظهره وهو المعتدي الغاصب الشوفيني المحتل

في مظهر المظلوم المدافع عن نفسه من المحتلين الغاصبين القتلة المخربين الذين يكرهون الدولة العبرية بلا سبب، ويا عيني هم الذين يقتلون الأطفال والنساء والشيوخ بدم بارد.

لقد استهوتني فكرة متابعة تغطية الإذاعة العريقة في مولودها الجديد (البث التلفزيوني العربي) أثناء العدوان الصهيوني الهمجي غير الأخلاقي علي غزة، ووجدت أن محاولات المذيعين المجيدين العرب لمواجهة المسئولين الإسرائيليين بأفعالهم الإجرامية لكي يبدون وكأنهم يقفون مع الحق، تدمره الخطة المهنية الخبيثة التي تعتمد علي ذكاء مفرط من قبل مسئولي الإعداد والتحرير غير المنظورين لنا، وهذه الخطة اعتمدت علي:

ـ التأكيد علي أن إسرائيل، في النهاية، تدافع عن نفسها وعن مدنييها.

ـ إظهار أن هذا الموقف الموالي لإسرائيل هو موقف متوازن باستدعاء كل الأطراف، لكنها نسيت أن الوقت المخصص للطرف الإسرائيلي هو الأطول، وفي التوقيتات المضبوطة.

ـ التأكيد علي أن موقف إسرائيل مسنود بموقف عربي يتفق معها خاصة فيما يتعلق بحماس.

ـ تكرار حقيقة الاختلافات العربية في التوقيتات المضبوطة لبعض الوقت وفي توقيتات مغرضة في أغلب الأوقات.

ـ التأكيد علي أن الخلافات الفلسطينية هي سبب المشكلة.

الخبرة المهنية تجعلنا،نحن أهل الكار، نتعرف علي الغرض بمقاييس قد لا تبدو واضحة للمتلقي العادي، عن طريق التقديم والتأخير وفرد المساحة لهذا وتضييقها علي ذاك، واختيار الباب المناسب لعرض هذه القضية أو تلك كما نراها في المطبخ الداخلي، ويضيف التلفزيون ألاعيب عديدة كالتشويش علي الخصم أو قطع الاتصال بعذر من العطل الفني كما بطرق توجيه الأسئلة، كما باختيار نوعية الضيوف ومستواهم ومدي كفاءتهم.

ولكن البي بي سي وقعت هذه المرة فيما أسماه الكثيرون(حتى من بين الصحفيين البريطانيين) فضيحة الامتناع عن نشر إعلان إنساني من احدي الجمعيات البريطانية من أجل جمع التبرعات لمنكوبي غزة فوفرت علي كل المتربصين أمثالي القول بتحيزها إذا تعلق الأمر بإسرائيل، وهو ما قال به حاخام يهودي معارض لقتل الأبرياء علنا، فهل ستنظر الإذاعة العريقة لوجهها في المرآة ولو لمرة واحدة؟.

***

الكتاب كعدو

يبدو أن العداء للكتاب وصل إلي حد مقدر بأن يكون من علامات هذا المجتمع التعس، فأنت لا تتخيل أن يكون أهل الكتاب هم أكثر الناس عداء له.

وإلا كيف نفسر هذه القصة؟

دعيت الأسبوع الماضي لحضور مناقشة لرسالة جامعية تخصني في إحدى الجامعات، وبعد المناقشة وحصول الطالبة علي درجة الشرف الأولي دعاني عميد كلية الآداب مع الأساتذة المناقشين للغداء، وقد ذهب الكلام بنا وعاد من هذا الموضوع إلي تلك المسألة، ثم عرجنا، بحكم عملنا منشئين للكتب، علي موضوع القراءة ومشاكل الكتاب، وكان السؤال الذي وجهته للسيد عميد كلية الآداب عن الميزانية السنوية المخصصة لشراء الكتب في الكلية، فإذا به يضحك ويسأل: ميزانية؟ ميزانية إيه ياحضرت، الميزانية رجعت تاني سليمة لم تمس. جنيه ينطح جنيه.

لم أفهم، فسألت عن القصة فأخبر لا فض فوه بأنه خصص ميزانية خمسين ألف جنيه لشراء الكتب هذا العام، لكن أحدا في أي قسم من أقسام الكلية اهتم بأن يطلب أيا من الكتب علي الرغم من تكرار الطلب من السادة المسئولين عن التوريد (الذي يجب أن يتم حسب اللوائح، أثناء معرض الكتاب) وكانت النتيجة أن لا أحد طلب أي كتاب من أي قسم، وكانت النتيجة أن ظلت الميزانية قابعة في الخزينة، والنتيجة أن لا كتاب جديد دخل مكتبة كلية الكتب (أقصد الآداب) هذا العام في هذه الجامعة.

هل هذا معقول، أن توفر الإدارة مثل هذا المبلغ ويأتي التقصير

من السادة الأساتذة الذين يقوم دورهم علي طلب المراجع التي يحتاجون هم وطلبتم إليها؟.

لم أترك الأمر، وذهبت لسؤال أحد الأساتذة فأكد أن هذا حصل بالفعل، لسبب أن موعد المعرض جاء مع موعد التحضير للترم، وهو ما جعل الأساتذة مشغولين بعملهم، وليس لديهم أي وقت لمثل هذه المهمات الإضافية.

هذا يعني عدة أمور.

ـ أن الأساتذة منشغلين فوق طاقتهم.

ـ أن كل شيء يتم عندنا في اللحظة الأخيرة.

ـ أن لا أحد يعد نفسه بناء علي أجندة مسبقة، فكيف لا يكون هناك من يهتم من الأساتذة بطلب المراجع الجديدة التي يعرفون بها في اللحظة التي يعرفون بها، وعلي إدارة المكتبة جمع هذه الطلبات حتى يحين موعد الشراء؟.

ـ ثم انه: لم تحدد اللوائح فترة المعرض فقط لشراء الكتب ولم لا تكون عملية مستمرة طوال العام؟.

والسؤال الأهم: هل هذه روح الإهمال، أم أنها بالفعل علامات غير سارة من علامات آخر الزمان، أن يأتي العداء للكتاب من أهل الكتاب.

يا رب استر.

***

الأطفال ومن هم ليسو أطفالا

لا أنسي يوم جاءني صديقي الكاتب العرمرم خيري شلبي (وكنا علي موعد لجلسة من جلسات السمر التي كان دوما مسامرها الذي لا يشق لها غبار في بيت السيدة زينب الجميل*) وعلي وجهه إشارات يختلط فيها الأسى مع الدهشة مع حس الفكاهة الذي تخطي به خيري جل أنواع الصعاب حتى انفكت حاله وبلغه اليسر علي كبر،وهو ما أسعدني سعادة غامرة، فقد كنت في بيت خيري، أحظي بمرتبة صديق الأسرة المقرب الذي يدخل ويخرج، وإذا دخل يرفع صوته بنداء الأهل: فين الطعام، وإذا خرج ودعه الجميع بابتسامة تشرح القلب ،راح ساعتها يضرب كفا بكف وهو يقول:

ـ تصور.

ثم يطلق ضحكته المجلجلة ويعود لضرب كفيه:

ـ تصور الواد ابني.

ـ ماله؟

ـ كنت ماشيا معه بجوار نادي المعادي فرأي الصبية يلعبون بالعجل وهم في ملابسهم الزاهية فإذا به يشد يدي ويقول:

(*) انظر كتابنا عن هذا البيت – تحت الطبع.

ـ بابا. بابا. شوف الأطفال.

المفارقة أن «الواد» ساعتها كان يشير لهؤلاء الصبية باعتبارهم يمثلون صورة الأطفال الذين يراهم بعين خياله الزاهية لا بعين حاله المزرية.

ساعتها أحسست ـ علي الرغم من ضحكات صديقي ـ بالغصة في حلقي، وهو ما دعاني لأن أحمل له في زيارتي التالية تفاحا أحمر لم أكن شخصيا من آكليه، وهو تصرف كنت أحاول به الالتفاف علي واقع الحال.

وها أنا ـ ويا للمفارقة وغريب الصدف ـ أسمع نفس التعبير(نفس التعبير) بعد أكثر من ربع قرن علي لسان طفل من أطفال القرية التي أعيش فيها بالفيوم،حين رأي تجمعا لأطفال احدي المدارس الأجنبية الذي قدموا لزيارة (الريف) في فسحة نهاية الأسبوع،وأشار لهم موجها كلامه لأخته حافية القدمين:

ـ شوفي يا زينب أهما دولت الأطفال.

قالها ببراءة شديدة، لكنه لم يعرف الألم الذي أحسست به وأنا أنتقل بعيني إلي ما عليه حاله وأقارنه بما عليه حال هؤلاء (الأطفال) الذين عليك أن تعرف أن مصاريف السنة الدراسية لمن لا يزيد عمره منهم عن تسع سنوات تبلغ عشرين ألف جنيه (سنويا).

هناك إذن في هذا العالم الظالم أطفال لا يحسون بأنهم أطفال، ومع ذلك ينتهي بهم الأمر ويخرج من بينهم المبدع الموهوب،

والعالم الكبير، والسياسي المشبع بروح العدل، الذي يجد نفسه دوما مضحيا بحياته في سبيل رفعة الوطن، بعكس أغلب هؤلاء «الأطفال» الذين من شدة دلالهم لن تعدم من بينهم المدمن والأفاق والمختلس والفاسد الذي لن يكون من العجيب أن يجد نفسه (كما هو حال صاحبنا الملياردير) في قفص الاتهام في سبيل غانية رخيصة مصبوغة الشعر والقلب والعينين اللتين أعماهما الطمع فلم تعد تري بهما سوي بريق الذهب الحرام، لينتهي بها الحال إلي المشرحة تزفها فضيحة مدوية، ويا للعار.

أما هو فقد قبع في السجن.

***

أجنحة مصر المحلقة

ظهر صديقي السيناريست والروائي براء الخطيب مؤخرا علي الفيس بوك، الذي أصر صديقي القاص مرسي سلطان علي أن يزج بي في أجوائه غير المطمئنة، فوجدت نفسي محاطا بهالة من الناس الحلوة، بعضهم من أبناء جيل السبعينيات، الذين علي الرغم من بلوغهم شاطئ الشيخوخة، إلا أنهم لا يزالون في قمة عطائهم النبيل كما كانوا دوما، وبعضهم من الأجيال الطالعة التي تربت علي أيدينا، وسوف تثبت الأيام أنهم أجنحة مصر المحلقة في سماوات الإبداع بكل أشكاله، وإذا كان لي أن أتورط في مقولة

الأجيال (التي لا أجدها في أغلب الأحيان معقولة أو مقبولة) فإنني شخصيا لا يمكن أن أجد لي مرجعية أهم من جيل الستينيات الذين حاولوا بكل بطولة شق طريق جديد في طريق الإبداع علي وجه التحديد، ولولاهم لكان علينا أن نخوض معركتين علي الأقل، إحداهما هي معركة تجديد الأشكال الإبداعية، والثانية ما قبلها من تمهيد الطريق بالأفكار التقدمية التي لا تزال صالحة لإثارة الدهشة، علي الرغم من كل الادعاءات الباطلة.

المهم أنني بعد لقائي براء الخطيب علي الفيس بوك التقيته الأسبوع الماضي في «عش الطيور الجريحة» أعني في بيت صديقي الحبيب الشاعر نجيب شهاب الدين وأصر براء علي أن أستجيب لدعوته التي نشرها علي الفيس بوك طالبا مني الكتابة عن الراحل إبراهيم منصور.

والحقيقة أنني ومنذ سنين طوال أعمل علي نص أسميته «قطاف العنب..ذكريات ساخنة عن الحياة السرية التي كان يعيشها حرافيش القاهرة من الفنانين والأدباء في المقاهي والبارات وغرف السطوح من الستينيات وهلم جرا» ويمكن اعتباره من نصوص السيرة الجماعية التي تسرد ذكرياتي مع رهط ممن كانوا يشكلون جوهر حياة الوسط الثقافي، الذي لم يكن منفصلا عن الوسط السياسي التقدمي، منذ أتيت من بلدتي الصغيرة في الصعيد وسكنت في غرفة علي سطح عمارة في وسط القاهرة.

والشاهد أن إبراهيم منصور يحتل نصيبا لا بأس به من صفحات هذا الكتاب الذي أتمني أن أنتهي منه قريبا، و أتمني عندئذ أن يؤخذ كلامي علي محمل موضوعي، فقد كانت علاقتي بإبراهيم منصور علاقة معقدة بقدر ما في شخصيته من تعقيد وما أنا عليه من تركيب أيضا، وأعتقد أن سوء الفهم الذي جري وكان بيننا ما هو إلا حلقة من حلقات الجدل المستمر والمعقد في ضوء نظرية الأجيال، التي لم أكن أبدا من المتحمسين لها، لكن إبراهيم منصور كان مؤمنا إيمانا لا يتزحزح بأن هناك «جيل الستينيات» وأنه هو عراب هذا الجيل، لذا فقد اعتبرني ضمن الوجوه الأدبية البارزة ممن أسماهم النقاد بجيل السبعينيات خطرا محدقا، وهو ما لم يكن لي أو لأي من أبناء زمرتي أي يد فيه.

لكنه لا يسعني إلا أن أقول أن إبراهيم منصور قد ضحي بكل وقته تقريبا بل وبموهبته في سبيل أن ترتفع راية الستينيات عاليا، لكن المشكلة أنني كنت أيضا أرفعها عاليا، لأنني لم أكن أري نفسي ولا حتى أيا من أبناء جيلي إلا حلقة أخري من حلقات الموجة التي بدأت في الستينيات، وها هي تؤتي أكلها في الموجات الطالعة التي أنا علي ثقة من أن بينها طيور ستحلق في سماء الإبداع عاليا،في القريب العاجل،وهي أيضا ليست علي النقيض من مبدعي الستينيات الكبار حتى ولو كان المظهر غير ذلك.

***

ترجمة موسيقي عبد الوهاب

وهذه قصة مذهلة من قصص مكائد قليلي الموهبة الموصفون بالإفرنجية كمديوكر، وتحالفهم (حتى مع الأعداء) ضد الفنانين المصريين الكبار الموهوبين.

قصة لم أزل غير قادر علي تصديقها حكاها لي صديق يعمل في إحدى المنظمات الدولية تخص محمد عبد الوهاب (الأكبر من أن أصفه بالكبير وهاهي ذي الأيام تدلل علي ذلك).

ففي ندوة عقدت بالقاهرة في مارس 1999 م أورد أحد فناني الدرجة الثانية آراء سردها دون دليل إثبات عملي علي سرقة محمد عبد الوهاب لعدد من ألحان فنانين عالميين، وترددت هذه التهمة في حينه علي أقلام صحفيي الدرجة الثالثة في بعض الصفحات المسماة بالفنية ونحن نسميها الصفحات الصفراء.

لم يقل لا فض فوه كلمة سرقة صراحة وإنما فهم من كلامه المغلف ذلك، وإن كان ادعي هذا المدعي بأن عبد الوهاب حين أخذ هذه الألحان عمل منها ما يفوق الأصل اتقانا، وبالتالي فقد شرّع لا فض فوه هذه السرقة لعبد الوهاب (يا حبيبي).

لم يقل هذا المدعي بإمكان أن يكون عبد الوهاب قد تأثر بهذه الألحان مجتمعة (وهو المتابع الكبير لتراث الموسيقي في العالم

كله) فأين هو الكاتب أو الفنان المتابع ولم يتأثر بما درس وتابع (فهل علي الفنان أن يكون جاهلا بإنجازات الآخرين في مجاله حتى يكون فنه بريئا خالصا لوجه الله؟)

ما جري بعد ذلك، حسب ما قاله الصديق، هو أن أحد القريبين من هذه المنظمة الدولية (إسرائيلي الجنسية لكنه يعيش في باريس) كتب بهذا الكلام المرسل الذي قاله فنان الدرجة الثانية (المصري) تقريرا رفعه لهذه المنظمة الدولية ليصدر بعدها تقرير من هذه المنظمة يحمل هذه التهمة المشينة لعبد الوهاب.

لكن ما هو أكثر إذهالا هو أن كاتب التقرير الإسرائيلي لم يكتف بما جاء في المؤتمر، وإنما اتصل بفنان الدرجة الثانية (المصري) اتصالا مباشرا يسأله أن يمده بقائمة بأعمال عبد الوهاب المسروقة، فتحدث إليه، وهو يعرف أن ديفيد هو اسم لا يمكن أن يكون إلا ليهودي فمده بها علي عجل، أي انه عرف أن صاحب الاتصال إسرائيلي، لكنه تعاون معه ومده بالقائمة المزعومة، الذي كتب التقرير علي أساسها، وهو ما يعد خرقا لاتفاق المثقفين الوطنين بمقاطعة الصهاينة الذي وقع عليه المذكور ذات مرة.

الغريب أن هذا المدعي دائما ما «يتشعلق» بالحركة الوطنية ويشارك في بعض الاحتجاجات فعدته الحركة الوطنية أحد أبنائها، وأنا لا أستطيع قط نزع فتيل الوطنية عن أي شخص، حتى

لو ارتكب الأخطاء الكبيرة، فلست من فئة المكفراتية بل إنني ضد هذا علي طول الخط حتى مع خصوم التقدم إذا شئت اعتباري أحد الداعين للتقدم.

والسؤال الآن: هل يمكن أن يصل عداء المديوكر للموهوب إلي هذه الدرجة؟

هل يمكن أن يصل الحقد إلي درجة خيانة المبادئ في هذه الحالة؟

هذه القصة تقول للأسف بذلك.

لكن «الفينالة» هنا:

فحين سئل محمد عبد الوهاب من قبل أحد المذيعين عن قصة السرقات المزعومة، أخذه إلي غرفة ملابسه وطلب منه أن يمد يده إلي أي جيب من جيوب ستراته العديدة ليجد ورقة سجل عليها فكرة لعمل موسيقي لم يبدأه بعد، فوجد المئات من الأفكار، وهذا ما صرح به المذيع وقرأناه.

وكان عبد الوهاب يعني بكل بلاغة: إذا كان لدي كل هذه الأفكار وليس لدي وقت لتنفيذها، فهل من المعقول أن ألجأ إلي أفكار الآخرين قبل أن أنتهي من أفكاري؟

نعم يمكن أن يكون المديوكر في نفس درجة خطورة الأعداء فاحذروه.

***

إعادة إنتاج ما لا ينتج

بعض النقاد يدمنون مفردات بعينها لا يغيرونها، حتى غدا قاموسهم «مكرورا» معروفا لدرجة أنك تستطيع إعادة إنتاج مقالاتهم دون أن يكون النقد هو شغلك أو شغفك.

نفس المفردات تقود لنفس المصطلحات ونفس المرجعيات، وحتى أن موضوعهم هو: نفس الكتاب الذين يتناولون (بالنقد)، أو في أحسن الأحوال «أشباه» هؤلاء حتى أنك لتعجب من هذا النوع من الدأب الذي لا اسم له سوي «الإدمان».

وأنت تعجب من ذلك الذي لا يمل هو نفسه، تكرار نفسه، يا ساتر علي هذه القدرة العجيبة علي إعادة الإنتاج ثم تكرار إعادة الإنتاج، والخسارة هنا كبيرة،خاصة في المساحة المبذولة لمثل هؤلاء، والمشكلة أن سوق النقد قد بار علي أيدي هؤلاء وأمثالهم،لكن كيف تخرج الصحف والمجلات دون نقد؟ فهذه مادة مطلوبة ولو كنوع من التنويع علي الصفحات ولو من باب سد الخانة.

الغريب في الأمر أن هذا النوع من المدمنين ملزوم بخاصية ترافق الإدمان هو أن ضميرهم مطاطي الهوى (أي هو المتنوع استثناءا) فهم يكررون هذا لأسباب لا علاقة لها «بالقيمة الأدبية»

بل لأمر في نفس يعقوب، وبعض هؤلاء قد يصل به الأمر إلي تأجيل الضمير (وأحيانا إلغاؤه بالمرة) أو بيعه ببخس الثمن الذي قد يصل إلي كأس من الشراب، وأحيانا يكون سبب الحماس لهذا أو تجاهل ذاك مجرد أن هذا الكاتب أو ذاك محسوب علي هذه الشلة أو تلك ولبئس ما يقدرون.

طبعا لدينا نقاد كبار مبجلون لا شك في أن ضمائرهم يقظة كالشمس، وهذا مما يثلج الفؤاد وإلا أضحت الدنيا ظلاما دامسا لا نري فيه سوي الأشباح، لكن يظل الناقد الجاد الكبير في حاجة ماسة، أكثر من غيره، إلي تفرغ كامل لمهمته الثقيلة المضنية، فهو، أكثر من غيره يحتاج إلي ما ينفق به علي أدواته ومراجعه، كما هو في حاجة لأغلي ما يمكن أن يتوفر له وهو الوقت المخصص لرسالته، والغريب في الأمر أنك تجد الجهات المانحة للتفرغ تفضل دوما إسداء هذه المنح لكتاب القصة والرواية وبقية المبدعين علي منحها للدارسين المجتهدين من النقاد الذين هم أكثر حاجة لهذه المنح، فمن لنا بجهة تخصص منحها للنقاد خاصة، حتى نغلب هذه النوعية الجادة علي نوعية المدمنين علي التكرار الذين أصابونا بالملل، حتى أن أحدا لم يعد يقرأهم، ويمكنك باستطلاع خفيف التأكد من أن المطالعين حين يرون أسماءهم يقلبون الصفحة دون إحساس بأن شيئا يفوتهم، ومع ذلك فأنت تطالع أسماءهم وقد انتشرت كالوباء،

وهم بالتالي أصبحوا سببا إضافيا من أسباب الكآبة المنشورة في الجو العام.

***

السخرية كسلاح في المقاومة

تهدف الآلة الأمنية الإسرائيلية، ومن قبلها الأمريكية، بإطلاق أسماء ذات رنين فارغ مثل «بنك الأهداف» و«الرصاص المسبوك» إلي صياغة رسائل إليكترونية مختومة بخاتم «الدولة» التي تسوق لأهدافها في أطر تريدها راسخة قاطعة هي أشبه بالقوانين التي تصدرها الدول الحقيقية، من وجهة نظرها، ولكن هذا، وهو ينبني علي غرور بيروقراطي جاهل وديماجوجي مرذول يقابل من جانب الناس، من جانب البسطاء حتى، وهم الذين غدوا ـ عل امتداد الأرض ـ متفاعلين إلي أقصي حد مع المقاومة الفلسطينية- يقابل من قبل هذه الشعوب بالطريقة الراسخة عبر الزمان وهي السخرية، التي هي بوابة أولي للحط من قيمة المستهدف (وهم غالبا المعتدين المستغلين) للتقدم إلي خطوة أكثر جرأة وهي المقاومة الفعلية علي الأرض وفي الخنادق.

الحاصل أنني كنت في مقهى شعبي علي أطراف القرية الريفية التي أعيش فيها، فإذا بالجميع كبارا وصغارا، متعلمين وغيرهم،

وهم يتابعون الأخبار باهتمام بالغ، فإذا بهم، ورغم مستوي ثقافتهم المتفاوت يأتون علي ذكر هذه المصطلحات المشفرة بسخرية حولت المكان لمسرح ارتجالي ضج بوابل من الضحك مزق تلك المصطلحات وحول واضعيها إلي «مضحكة»، وهو ما يؤكد علي أن المقاومة الكامنة في نفوس الناس تجعلهم يبحثون عن نقاط الضعف والهزال في نفوس الذين صاغوا هذه المصطلحات بوازع من الغرور المتشح ببيروقراطية دولة هي مفتعلة أصلا، لأنه ليس هناك بالإمكان أن تقوم «دولة» علي الباطل إلا إلي حين.

فالأصل أن الدولة هي آلة حضارية تفرز تطورا ماديا وروحيا وأخلاقيا يقوم علي أساس ولهدف تقدم الشعوب، أو لنقل تقدم سكان هذه المدن المكونة للدولة.

هذه السخرية التي جرت علي هذا المسرح الشعبي المرتجل، استعان فيها المؤدون بالقهقهة والتصفيق بالأيدي والإشارة بالأصابع واستعمال تعابير الوجه المستخفة بتلك العقول الفارغة التي تدعي التفوق وتستريح إلي التعبير عن ذلك بهذه المصطلحات الدموية الفاشية التي تحاول الاستخفاف بعقول الناس فإذا بها تتحول هي إلي موضوع للسخرية والاستخفاف تحت سنابك الحركة الساخرة المعبرة بصدق عن الوقوف في وجه الباطل.؟

هنا، لنقل، أن هذه وسيلة راسخة ونافذة من وسائل المقاومة التي تستعملها الشعوب المغلوبة علي أمرها، ضد العدوان والاحتلال، والفصل العنصري.

الدعوة الآن إلي جمع هذه المصطلحات وإجراء دراسة تتضمن استفتاءات شعبية حولها منذ شاعت في بداية الحرب علي العراق بمصطلح «عاصفة الصحراء» وحتى «الرصاص المسبوك» هذا الذي لا يحمل أي معني سوي الخواء الروحي والأخلاقي بكل جدارة.

***

فكرة معارض الكتب

الذين وضعوا فكرة معارض الكتب، كانوا يقصدون بها أساسا أن تكون احتفالية بما ينجزه الكتاب من تطور، في فترة معينة، ليطالعه المهتمون، من مؤلفين إلي ناشرين، إلي موزعين، إلي أمناء المكتبات،إلي العاملين في دور الكتب، مصحوبة ببرنامج من النقاشات حول قضاياه ومشاكله والتحديات التي تواجهه، خاصة في ظل منافسة الطفرة الإلكترونية.

لكننا، كالعادة، نستورد الأفكار «المدينية» من الخارج، ونحولها إلي أساليب «بوليسية» بطريقتنا العشوائية المدفوعة بأدمغة مسئولين صغار جهلة وسلطويين يعوجون الفكرة لتتناسب

مع خططهم الفاشية .

مثلا، أنشئت «النقابة» لتكون وعاء جامعا لكل من يعمل في مهنة معينة، لينضم إلي زملائه في تنظيم تنظمه قيادة تم انتخابها انتخابا حرا، يدافع عن حقوق جميع أبناء المهنة، وبالتالي فإن هذا البيت يتسع لكل عامل في المهنة، وبالتالي فإن من الحق الطبيعي لكل عامل أن يكون عضوا عاملا في نقابته بطريقة شفافة.

لكن، وبقدرة قادر،حولنا فكرة النقابة إلي «حظيرة» محكومة بلوائح تسلطية، تستبعد من تشاء وتضم من تشاء، لها آلية تنفر الموهوبين ـ ويستعمل القائمون عليها أساليب العصا والجزرة أي يتم إفسادها بعطايا السلطة الصغيرة مما يعني أن النقابة تحولت عندنا إلي سجن آخر.

وإذا عدنا إلي مفهومنا الخاص لمعرض الكتاب نجده تحول إلي سوق لكل شيء، أصبح يضم الكتب الجديدة مع تلك البائرة، إلي سوق للحقائب والملابس والإكسسوارات ثم الأحجبة والنقاب وأنواع غريبة من أغطية الرأس يتزايد تنوعها كل عام، ثم دخلت السندوتشات والكشري وشعر البنات علاوة علي الزمامير والطبل والدفوف والترمس واللب والفشار، وما أروعنا في سكب براميل الفوضي علي وش «المعرض العالمي» لنحوله إلي مولد.

طبعا، فإن واحدا مثلي لا يمكن أن يكون ضد أن يقتنص أي

مواطن غلبان لقمة عيش مزرية ليعود بها إلي أطفاله البائسين، لكن لم لا نفكر (وليعوذ بالله) في حل هذا الإشكال الذي يحدث الخلط بين معرض الكتاب وسوق الكتاب ونجعله يجمع بين الاثنين:

معرض للكتب ينبني علي أساس الفكرة الرئيسية للمعرض الأمر الذي يراه كل مهتم بالكتب أمرا ملحا الآن، خاصة إذا خطط لندوات حول مشاكله التي تفاقمت عندنا حتى أصبحت كابوسا «يضج» مضجع الناشرين والموزعين وطبعا مؤلفو الكتب الغلابة.

ثم نصحبه بقسم آخر نقيمه هو السوق التليد، مع تنقيته ما أمكن من باعةالملابس رديئة الذوق.

هل سنفعل أي شيء؟

ليس لدي أي شك في أن أحدا لا يسمع ولا يري ولا يتكلم، لأنه إن تكلم «سيهرفط» بإنجازات معرضـ (نا) العالمي التي تفوق انجازاته كل معارض العالم، أي عالم؟ لا يهم، فنحن الذين خرمنا التعريفة سابقا، وخرمنا الجنيه مؤخرا.

***

الحياة الأدبية و المعارك الأدبية

سأتخذ من نفسي «نموذج حالة» لأوضح ما أرمي إليه:

1 ـ أولا لمعني ومستوي ما أقصده بالمعركة الأدبية، ومن هم المؤهلون لها.

2 ـ ثانيا لمعني وجود مثل هذه المعارك ومعني عدم وجودها من أصله.

أقول بداية أنني لم أشهد بنفسي أيا من المعارك الأدبية ذات الحجم الثقيل التي دارت بين طه حسين وخصومه، والعقاد وخصومه، وزكي مبارك وخصومه، ومصطفي عبد الرازق وخصومه، وإلي آخره، وإن كانت القراءة قد عوضت عن ذلك، والشاهد أن استفادة القارئ من مثل هذه المعارك لا تعدلها استفادة من أي مصدر آخر، وسأبين هذا حالا.

لكنني هنا في سبيل تقديم شهادة حية علي معركة أدبية ساخنة دارت رحاها في أعقاب ظهور مجلة «جاليري 68»، والحقيقة أن المعركة بدأت قبل ذلك علي صفحات مجلة المجلة برئاسة الكاتب الكبير يحي حقي، والملحق المسائي بإشراف المعلم الكبير عبد الفتاح الجمل، وكان الكلام ينصب علي ظهور موجة جديدة من الكتابات الأدبية التي تحاول تغيير (أو قل تجديد)

شكل ومحتوي الأدب بشكل راديكالي، وقام الأعضاء المؤثرون لهذه الدعوي بتأسيس «جاليري 68» وكان في بالهم طبعا أن هذا التاريخ قد ارتبط بالحركة الاحتجاجية العارمة والتي بدأت في فرنسا علي يد طليعة من الطلبة المسيسين، وامتدت آثارها لبلدان غربية عديدة شملت حتى الولايات المتحدة، ثم تحركت أصداؤها حتى وصلت عندنا.

بعد أن استقرت قناعة أن هناك أدب جديد يكتب (الآن ـ في هذه الفترة) بدأ النقد يناقش ما يرمي إليه هذا الأدب، وكيف، وإلي أين يتجه وما هي علاقته بالمتلقي.

وكان النقاش يتوسل بالمذاهب الأدبية الغربية والمحلية، فكنت تحس، علي الأقل، بأن هؤلاء النقاد يعرفون، بثقافة عريضة، ما يتحدثون عنه، كما كانت المقالات، في جلها، ذات مستوي رفيع وعميق في تحليلاتها وبسط آراء أصحابها، وكان أطراف المعركة مؤهلون لها لأنهم كانوا من النقاد المشتغلين بالأدب، لا من علماء اجتماع أو سياسيين لا باع لهم في الأدب (كما يحدث الآن).

وكان معني وجود هذه المعركة الأدبية أن هناك شيئا حقيقيا يجري، وأن ما يحرك البحيرة هو الإبداع الراقي، أولا وأخيرا، هذا باختصار شديد، وإنني إذ لا أحبذ الاتكاء علي المقولات الجاهزة، أو الربط الميكانيكي بين الظواهر، إلا أنني أجد نفسي

مدفوعا بالسؤال: هل معني عدم وجود معارك أدبية راقية بين النقاد والمشتغلين بالأدب الآن أنه لا يوجد أدب يستحق معارك؟ أم أن الساحة خالية بالفعل من النقاد الكبار الشجعان الذين لا يهابون من قول الحق في زمن الزور والبهتان؟

***

كيفية التخلص من الفقراء علي شاطئ البحيرة

إن كان لنا أن نبحث عن «المرجعية» الدموية التي تستند إليها عملية القتل الممنهج الذي دار ويدور في غزة المحتلة فإن هذا الكتاب (الذي أدعو إلي إعادة نشره وتوزيعه علي نطاق واسع) يدلل علي أن هذه المذبحة تأتي في سياق خطة موضوعة قامت بجمع خيوطها مؤلفة الكتاب مما تعلم يقينا أنه حقائق ومعلومات جمعتها من خلال دراسات وتقارير وأبحاث قدمت في مؤتمرات، شاركت المؤلفة في بعضها أو عادت إلي بعضها الآخر، خلال رحلة بحث استمرت سنوات لتكتب هذا التقرير الذي يؤكد علي أن عمليات القتل التي تجري في أفغانستان والعراق ولبنان ودارفور والصومال ثم غزة ليست مجرد أحداث منفصلة بل هي فصول متتالية لخطة موضوعة سلفا.

فهذا الكتاب المسمي «تقرير لوجانو» يفترض أن القوي الرأسمالية المتحكمة في عالم اليوم قد طلبت من مجموعة

علماء في كل نواحي المعارف السياسية والاقتصادية والسكانية والأنثربولوجية والفيزيائية الذين يشكلون نخبة ممتازة(!) من الأكاديميين الغربيين المتخصصين في فروع المعرفة المختلفة أن يجدوا حلا لمشكلة محددة « تتلخص في ضرورة ليس فقط إيقاف تزايد سكان العالم عند الرقم الحالي وهو نحو ستة مليارات، ولكن ضرورة تخفيضه إلي أربعة مليارات، حتى ولو أدي الأمر إلي استخدام أفظع الأساليب وأشدها همجية ووحشية من التعقيم والإجهاض إلي إشعال الحروب والمجاعات والصراعات الطائفية والعرقية وزيادة الأوبئة والكوارث والأمراض الفتاكة لكي تلتهم الزيادة السكانية الحالية والقادمة». مما يضاهي أكثر أساليب النازية فحشا تلك التي كانت تؤمن بأن هناك عرقا واحدا متميزا ـ هو العرق الآري ـ لتتماهي معه الآن ليصبح هذا العرق المتميز هو «الغرب الرأسمالي» وما غيره إلا حثالة وعالة علي البشرية يجدر التخلص منها بالتطهير العرقي والقضاء علي الأجناس الرثة.

ورقم الأربعة مليارات من البشر هو الرقم المثالي ـ الذي حدده «العلماء» الغربيون كما جاء في الكتاب ـ الذي تستطيع معه الرأسمالية وآليات السوق أن تحقق النجاح والازدهار الذي يؤمن به الغرب الأوربي الأمريكي ليقيم في ظله نظاما اقتصاديا نموذجيا الذي هو الآن في وضع حرج بل هو مهدد من كل جانب.

إنك أن تابعت ما يجري في غزة اليوم من عمليات قتل، لتتساءل عن السر الذي يجعل الأطفال والنساء هم الرقم الأساس من الضحايا وإنك إن عدت لهذا الكتاب لوجدت أن هذا أمر مقصود وممنهج ومخطط له منذ سنوات، وهو منذ بداية الهجمة علي أفغانستان مرورا بالعراق ودارفور والصومال ولبنان وصولا إلي غزة قيد التنفيذ، يؤكد الكتاب « لأن الوسائل التي استنبطت إلي الآن لحماية ما يسمي «حرية السوق» والاقتصاد العالمي وصيانتهما وإبقائهما غير كافية بشكل صارخ، خصوصا أن المؤسسات العالمية القائمة ـ ثبت ـ أنها عديمة القيمة فضلا عن أنها تعطي إحساسا زائفا بالأمن».

وبالمناسبة فإن مؤلفة هذا الكتاب هي كاتبة وخبيرة أمريكية في قضايا التنمية اسمها «سوسان جورج» قد تختلف معها في بعض النقاط، لكن ضميرها الحي هو الذي دفعها لتوثيق المعلومات التي استندت إليها في كتابة هذا التقرير الخطير والمثير المبني علي حقائق وأرقام خلصت إليها مجموعة الأكاديميين الذين كلفتهم القوي الرأسمالية المتحكمة ودفعت لهم الثمن مقدما ليقدموا تحليلاتهم الفظة في ثوب من العلمية والموضوعية الزائفة.

***

تاريخ المسلمات عند مفكري الفضائيات

بعض من يدعون بالمفكرين الظاهرين بكثرة في فضائيات هذه الأيام، المفتعلة، المتأسلمين منهم أو مدعي الليبرالية (دون فهم) يبدؤون مقولاتهم، دائما،وينهونها بأن هناك مسلمات لا يمكن المساس بها بادئ ذي بدء، هي لا تناقش، ولا يمكن التحاور معها، لأنها «لا يأتيها الباطل من أمامها أو خلفها أو جانبها» حتى.

هذه المسلمات هي ركيزتهم الأساسية، في سلطتهم المزعومة، المخطوفة من فم الحقيقة، وطبعا، فإن هذه السلطة مجيّرة لسلطة أعلي، دنيوية في الأساس، لكنها علي اتفاق معهم علي تولي السلطة، أو لنقل التسلط علي مقدرات البلاد والعباد.

طبعا هؤلاء جميعا لا ينظرون بعين الإنصاف إلي مقولة أن كل مسلمة كانت (أو تكون) في لحظة ما، غير مسلمة، كما أنها يمكن أن تعود وتصبح غير مسلم بها.

هم إذن لا ينظرون إلي تاريخ المسلمات وكيف تطورت، ولا كيف نشأت أو كانت، لأن الأهم أنهم ينتزعونها من، أو لنقل، يختطفونها من تاريخها.

والأساس أن لكل مسلمة تاريخها الخاص بها، حسب السياق

أو الحراك الاجتماعي، والحراك الفكري، في أي مجتمع اعتيادي من مجتمعات البشر.

علي سبيل المثال، وحتى بداية السبعينيات مذ كنت طالبا في الأزهر كان القول بوجوب ختان الإناث وتحريم منعه، مسلمة من المسلمات التي أجمع عليها مشايخنا الموقرون في الأزهر في تلك الأيام، ولا أذكر أنني سمعت يوما أحدهم وهو يقول بـ«جواز» الختان وجواز منعه، بل أذكر أن والدي، وهو الأزهري المتخصص في «المنطق» كان يحلل المسألة بأن طلب الختان يؤدي إلي منع فتنة الفتاة، والمنطق يقول بأن كل ما يمنع الفتنة يقف في حكم الوجوب.

الآن تصبح هذه المسلمة بالعكس منها، وأغلب رجال الأزهر المعتبرين في سلك السلطة يقولون بعدم جوازها (وتخرج عدة الحاوي من الجراب بالمنطق) لأنها تسبب أضرارا نفسية واجتماعية لمن يجري لها الختان، علي الرغم من أن بعضهم لا يزال يرجح وجوب إقامة حد الختان علي طفلاتنا المسكينات، أجاركم الله شر التسلط علي عقول وأفكار وحياة وكرامة وقدسية الجسد الإنساني ـ الذي نؤمن به ـ أجمعين يا رب العالمين.

***

«الخرتية» ضمن المنظومة الأدبية

لا بد أن أنسب الفضل لأصحابه حيث ينسب الفضل هنا لأخي الشاعر محمد فريد أبو سعدة الذي «صك» تعبير «الكتبة الخرتية» في إحدى مقالاته بمجلة «أدب ونقد» قاصدا به جماعة من أدعياء الكتابة «نثرا وشعرا» وعرفهم بأنهم جماعة من المتطفلين الذين يحومون حول بازارات الثقافة ومعهم عدتهم التي يستعينون بها علي الأجانب للاحتيال والنصب عليهم بطرق خسيسة منها المظهر الهيبي المفتعل، والحفلات الداعرة، كما اللغة الركيكة، باعتبار ذلك من سمات الانتساب إلي طبقة الحرافيش من البرولتاريا الأصيلة (ظلما وعدوانا) وما هم في حقيقة أمرهم سوي بروليتاريا رثة حذرنا منهم قادة الفكر التقدمي باعتبار أن أس خطورتهم يكمن في هذا الانتساب غير المشروع، ثم في تأثيرهم الضار علي الحقيقة بتضليلهم المستمر وتجارتهم «البائرة» التي يروجون لها حتى تختلط الساحة وتندس البضاعة المغشوشة في ثوب النتاج الأصيل.

وأعود، مرة أخري، لأنسب فضلا آخر لصاحبته المخرجة الشهيرة إيناس الدغيدي التي طالبت بتقنين الدعارة، ومن رأيها أنه بما أن الدعارة، التي توصف بأنها «أقدم مهنة في التاريخ»

سلوك منتشر وموجود في كل العالم، وحتى نحمي المجتمع مما تسببه من أمراض صحية واجتماعية، فلا بد، حسب طلبها، أن تتم عملية تقييم لها، كما كان قبل ثورة 23 يوليو، علي حد قولها، حيث كانت لها أحياء معروفة وقوانين ولوائح مقننة، تطالب بعودتها، حتى تبين الفروق واضحة ما بين من تمتهن الدعارة ومن هي حرة شريفة.

وأنا لا يمكنني هنا أن أتبني رأي المخرجة الشهيرة بقدر ما أقتبس منها فكرة التقنين لأضيفها لفكرة الخرتية لأخرج بطلب، من هنا يكون خاصا بي، لتقنين الخرتية، أي بالإعلان الصريح عن وجود ملمح جديد في الأدب العربي هو الملمح الخرتي، الذي لا بد من تبيان ملامحه بوضوح، حتى لا تختلط الساحة فيندس الأدب الخرتي في ثوب الأدب غير الخرتي، كما هو قائم اليوم، أو العكس، فلا يحصل كل ذي حق علي حقه، وإذا كان حق الخرتي مضمونا مقدما باعتبار أن الخرتي لا يكون خرتيا إلا إذا حصل في لمح البصر علي حقه ولو في الفراش، فإن من حق غير الخرتي الغلبان الذي لا يحصل علي أي حق، أن يتميز بصفته البريئة علي الأقل، وحتى لا تمر الأيام علي هذا الاختلاط، فيصبح غير الخرتي ضحية مستمرة، ويسود مذهب الخرتية، فينتشر الوباء في أرجاء الكون، ويبدو المحتل الغاصب في صورة المظلوم، كما يشهد العالم اليوم،علي ما يروج له الصهاينة من أكاذيب، باعتبار

أن الفلسطينيين هم الذين يحتلون فلسطين من يد الإسرائيليين القتلة الذين يسحلون النساء والأطفال وهم يروجون لهذه الأكاذيب التي تقطر دما، ويا لهول هذا العالم الظالم الذي «يموج أخطاء» كما قال شاعرنا الكبير صلاح عبد الصبور.

***

حسن سليمان والوزير المأسوف علي وجوده

دعونا نتكلم «ع المفتشر» وعلي عينك يا تاجر.

الموضوع هو الهجوم السافر علي فناننا الكبير حسن سليمان.

الملاحظة الأولي أن هذا الهجوم (المبيت) حدث بعد وفاته (يا للعار، ويا لبؤس الرجال ويا للجبن)، ولربما أثارت الكتابات العديدة عن حسن سليمان، وعلي امتداد الوطن العربي (كل الصحف العربية ـ تقريبا ـ اعتبرت وفاته خسارة كبيرة للفن والثقافة في الوطن العربي والدليل يمكن العثور عليه ببساطة في جوجل وكل مواقع هذه المنابر). والعديد من افتتاحيات المجلات الثقافية قالت بذلك، وأغلب المجلات والصحف والبرامج الثقافية في الإذاعات العربية المنظورة والمسموعة، قالت بذلك، ويبدو أن هذا (ويا للهول) أثار غيظ البعض من بطانة الوزير فاروق حسني، وهم الذين كانوا مغتاظين منه طوال حياته، ولهم الحق في ذلك،فهو الموهوب وهم مديوكر معدومي

الموهبة، هو المثقف وهم المتميزون بالجهل المفرط، هو الفنان المستقل صاحب الموقف التقدمي، وهم مجرد أفراد عصابة من الفاسدين واللصوص الذين يلاحق القضاء الواحد منهم بعد الآخر، يوما بعد الآخر، ويرمي بهم في سجون العار، ولن يفلت الذين أفلتوا من يد عدالة القضاء المصري العظيم ـ حتى الآن ـ وسيسقطون واحدا بعد الآخر.

ظل حسن سليمان طوال حياته خارج السرب، خارج كل الحظائر، لم يدخل حظيرة اليسار (علي الرغم من أنه كان تقدمي الفكر) ولا حظيرة اليمين طبعا، وأيضا كان خارج حظيرة وزير الثقافة فاروق حسني، وهو حين سئل عما إذا كان له رأي في رسوم الوزير قال في مجلة روزا اليوسف قبل أن يتم اختطافها، وبالفم الملآن: «فاروق حسني ليس له أي علاقة بالفن من قريب أو بعيد» وبالتأكيد هذا هو السبب الوحيد وراء هذه الحملة الرخيصة.

وهنا تأتي الملاحظة الثانية ذات الدلالة لأن هذا الهجوم علي الرغم من انه كتب بمعرفة أحد أزلام الوزير، إلا انه نشر في منبر آخر معروف أن له موقف سابق من الوزير، أعني جريدة أخبار الأدب، وهذا ما يؤكد ويكشف اللعبة «بالمفتشر» وعلي عينك يا تاجر، لأن السيد الكاتب ليس من كتاب هذا المنبر بل من كتاب منبر الوزير الملاكي، المأسوف علي وجوده، ربما لأن الجريدة

المشار إليها (في ثوبها العاري) لا توزع أكثر من عشرات النسخ، فرحلت الحملة إلي أخبار الأدب الأكثر توزيعا وتأثيرا بالتأكيد، وطبعا لذر الرماد في العيون، أي إبعاد الشبهة عن الوزير الفنان، وإلقائها علي مسئولية المنبر المعادي له (ويا مخطط خطط) وهذا يكشف أكثر أن الموضوع مبيت بالتأكيد.

لكن الملاحظة الثالثة تأتي هنا لتفقع العيون، فهم يريدون من مشايعي حسن سليمان وتلامذته، ورواده، وزملائه، وكل النقاد الذين كتبوا (حتى في منبر الوزير الملاكي) في كل هذه الأعداد المهولة من المجلات والصحف والإذاعات والتلفزيونات أن يبتلعوا الطعم (لخسئتم)فأنتم الأقل ذكاء وفهما كيف لكم أن تقدموا علي محاولة الاستخفاف بعقول كل هؤلاء؟ أليس هذا قمة الغباء؟

حسن سليمان لم يمت، فكيف لتاريخ من الفن العظيم أن يموت؟ وليعرف الجميع أن كل هجوم عليه سيضيف له، وسيخصم منكم.

لكن، «تاخذ إيه الماشطة من وش المديوكر العفش»؟

***

حسن سليمان كظاهرة فنية

مسني حسن سليمان بكتابته الساحرة حين التقيته في مجلة الكاتب حوالي عام 1965م في احدي مقالاته البديعة التي كان يواظب علي كتابتها في ذلك الوقت، وحوالي العام 1969م كنت قد تعرفت علي صديقي الكاتب والمثقف الكبير إبراهيم عبد العاطي في سرادق الكتب الذي كان يقام وقتها طوال شهر رمضان أمام الجامع الأزهر، وأذكر أنني مددت يدي لأتناول كتابا (علي ما أذكر كان للمتصوف الكبير محيي الدين ابن عربي) فإذا بيد أخري تمتد مع يدي لتتناول نفس المجلد، وإذا بنا نتناظر بالعين، ثم يصر صاحب اليد الأخرى علي أن أتفضل، ويبتسم ويلاغيني: أنت أصغر من أن تهتم بابن عربي، قلت لقد قرأت له كذا وكذا، ما اسمك؟ فإذا به يحتضنني لأنه كان لتوه قد قرأ لي قصة قصيرة في جريدة المساء،وقال انه كان يريد التعرف بكاتب تلك القصة، ومن الأزهر إلي مسكني في بنسيون أم محمد في مصر الجديدة، ثم لقاء آخر بعد ظهر اليوم التالي في مقهى ريش، وكانت الكاتب بين يدي، فإذا بإبراهيم يسألني: هل قرأت مقالة حسن سليمان؟ قلت إنني معجب بهذا الكاتب إعجابا شديدا وأتمنى رؤيته، قال إنه ليس فقط كاتبا، بل هو مصور ومترجم ومثقف كبير، علي

أي حال إنه قريب منا، ووقفنا لنمشي إلي مرسمه الواقع في روف إحدى العمارات خلف أمريكين سليمان باشا، وطلعنا بالأسانسير «المهكع»، وطرقنا الباب باليد النحاسية، فانفتح، فإذا برجل قصير القامة إلي حد ملفت (لدرجة أنني اعتقدت أن هذا مجرد شخص يعمل مع حسن سليمان الكبير) لكن سرعان ما انتفضت من الدهشة حين وجدت إبراهيم عبد العاطي يشير إليه: الفنان الكبير حسن سليمان.

وهنا برزت لي أولي خصائص حسن سليمان، فهو في الحقيقة شخص متوحد، يخشي الناس حتى يضمن سلامتهم، لذا لم يمد يده، بل ولم يقل تفضل، بل انه دخل أمامنا إلي غرفته المزحومة بالعلب والزجاجات واللوحات المتراكمة هنا وهناك، وكان في ملابسه المرقشة بالألوان، فدخلت خلف إبراهيم فإذا به يشير لنا أن نجلس علي مقعدين واطئين وأمسك بالفرشاة وراح يعمل،ونحن صامتين، ثم وفجأة ترك الفرشاة وذهب للداخل وعاد وبين يديه صينية نحاسية عليها ثلاثة أطباق عليها ثلاثة فناجين عتيقة بها قهوة وبجوارها قطع من الحلوى.

ـ أنا عملت هذه الحلوى.

قال حسن سليمان، وهي كانت حلوي جميلة لم آكل مثلها من قبل، وفي نهاية اللقاء قال إبراهيم عبد العاطي: أنت دخلت قلبه، وإلا لما قدم لنا هذه الحلوى.

المهم أنه مر الوقت، في هذا التعرف الأولي وكان علينا أن نرحل وعند الباب شاهدت شابا نحيلا كان يحمل بين يديه لفافة من توال الرسم، عرفت انه ثروت فخري.

***

حسن سليمان في دور الأستاذ

ما أذكره هنا مجرد ذكريات مع الفنان والكاتب الكبير «حسن سليمان» الذي تعلمت علي يديه الكثير، ولم أكن في هذا وحيدا، بل إنني حين التقيت بالفنان ـ الشاب وقتها ـ ثروت فخري في مقهى ريش في اليوم التالي للقائي به علي سلم مرسم حسن سليمان، عرفت منه أنه يشتغل «في مدرسة حسن سليمان» يتعلم أصول الرسم، وهذا ما أذكر أن ثروت رحمه الله قاله لي، ثم استطرد أنه في هذه المدرسة لا يتعلم فقط أصول الرسم، بل أيضا معرفة علمية بالتراكيب الكيميائية للمواد المستعملة في مهنة التصوير، كما يتعلم التشريح، علاوة علي الثقافة العامة الضرورية لأي فنان لا يكتفي بمجرد المعرفة التشكيلية ـ لو صح التعبير ـ وإنما لا بد أن يحصل علي القدر الكافي من ثقافة العصر، من جهة، كما تراث الأجداد الثقافي في تنوعه بين الأدب والفن والموسيقي والعمارة وحتى المعرفة بمقومات البيئة المحيطة بالإنسان، من جهة أخري.

هذا هو حسن سليمان إذن، معرفة واسعة وموسوعية بثقافة العصر كما بثقافة الأجداد، ثم معرفة واسعة وعميقة بالقضايا النوعية للفن الذي يمارسه، وهو ما يمكنك أن تلحظه (كدليل مادي علي هذا القول) من كتاباته التي تركها لنا في كتبه «حرية الفنان» و«الفن الشعبي» و«كيف تقرأ لوحة» و«سيكلوجية الألوان» وغيرها.

مدرسة حسن سليمان إذن خرّجت الكثير من الفنانين بل وأكاد أقول الكتاب الذين كانت علاقة حسن بهم أكبر وأعرض من علاقته بالفنانين علي وجه العموم.

واحد من هؤلاء الفنانين الذين تخرجوا من مدرسة حسن سليمان هو «عادل السيوي».

لم يكن عادل هو أول من تعرفت به من عائلة السيوي، بل كان شقيقه الأكبر السيناريست المعروف سامي السيوي وسرعان ما أصبحنا أصدقاء نقضي جل وقتنا معا، وفي الأغلب كانت حجرة سامي ببلكونتها الضيقة التي تري طرفا من البحر الصغير بالمنيل هي مكان مجلسنا المفضل، وغالبا ماكان عادل مشغولا بدراسته في كلية الطب، وكان ينظر لنا معشر الكتاب الشبان الذين نجالس شقيقه كما لو كنا رهطا من الفوضويين الذين لا يحسن الاختلاط بهم، كان في صورة الطالب الشاطر الملتزم لا فقط بواجب الدرس بل وأيضا بمظهر الطالب المجتهد، حتى اكتشفنا انه في سنوات

دراسته الأخيرة بدأ يصاب بلطشة الفن عبر اهتمامه بالرسم، فاشتري حاملا وكل العدة وكان ينفرد بنفسه في عرفة الجلوس المجاورة ويروح يرسم، ثم بدأ يخالطنا ويستمع لنا ونستمع له، وحين سألته ما إذا كان الرسم أضحي موضوعا جديا بالنسبة له، قال انه يحس ذلك، فشجعتني إجابته علي القول: أعتقد أن هناك مدرسة حقيقية يمكنك أن تتعلم فيها، هي مدرسة حسن سليمان، فإذا أردت فعلاقتي به تسمح لي أن أقدمك إليه، وهكذا كان.

***

ذهبت وعادل السيوي الذي كان قد عزم علي تعلم الرسم بكل جدية،إلي مرسم حسن سليمان ويدي علي قلبي، لأن مزاج فناننا الكبير متقلب (كما أغلب الفنانين) إلي درجة انه قد يسبب لي حرجا مع صديقي الذي دخل قلبي ولم يخرج منه من هذا الوقت وحتى هذه اللحظة،خاصة حين رأيت إصراره عل أخذ أمر الفن بالجدية المطلوبة، لكن لحسن حظي وحظ عادل انه استقبلنا بابتسامة وترحاب، وبروح النظرية التي تعلمتها من أمل دنقل ويحي الطاهر عبد الله (باعتبار أن الفنانين والكتاب هم أهل قبيلة واحدة) وربما كان هذا بتأثير تربيتنا في الصعيد، أخذت مسئولية الجلسة الأولي كلها علي عاتقي بما فيها عمل الشاي وتهيئة المكان (الأمر الذي لم يكن يسمح حسن سليمان به إلا للقليلين)

المهم أن هدفي الرئيسي كان كيف أتمكن من ترسيخ علاقة عادل السيوي، الفنان المبتدئ، وحسن سليمان الفنان الكبير، ليستطيعا رسم خيوط علاقة قوية مبنية علي أسس راسخة تؤدي إلي الهدف الذي كان بالنسبة لي هو: كيف يتعلم السيوي من حسن ويستفيد فنيا وثقافيا حتى يقف من البداية علي أرض صلبة وينطلق بعدها في عالم الفن الرحيب وهو علي أسس راسخة وهو ما كان، ليثبت عادل كما أثبت حسن سليمان من قبله أن الفن ليس هو بالتسلية كما انه ليس مجرد صنعة لعاطلي المواهب، وكيف أن الثقافة الموسوعية العريضة والعميقة هي التي ترسم حدا فاصلا بين فنان مؤثر وفنان عابر، وكيف أن المعرفة بثقافة العصر هي التي تقود الفنان إلي الطريق السليم.

لا أسرد هذه القصة لأثبت ـ حاشا لله ـ فضلا لي علي عادل، بل لأثبت ما هو أهم وهو كيف كانت الروح بيننا في هذه الفترة، وكيف كنا نسعى ليأخذ أحدنا بيد الآخر دون إحساس بغيرة قاتلة أو أنانية مرذولة، فقد كنا ـ نحن أبناء جيل السبعينات ـ نعتمد علي جيوب بعضنا البعض لنأكل ونشرب ونشتري الكتب والتبغ كما في الحياة الجماعية التي تعرفنا عليها لا حقا في السجن السياسي.

ربما لن يصدقني أحد من شباب كتاب هذه الأيام، الذين يتطاحنون ويأكل أحدهم لحم أخيه حيا بمجرد مغادرته مكان صاحبه، والقضية غالبا تتعلق بمسائل تافهة لا يجب أن تكون لها

قيمة بين الكتاب والفنانين.

لكن هذا ما كان يحدث، وطبعا أنا لا أزعم بأننا جميعا كنا نسلك هذا السلوك في كل وقت وبين أي واحد والآخر، لكن هذه الحياة الجماعية كانت سمة عامة بين أهل الفن والأدب، علي الأقل في السنوات الممهورة ما بين أواخر الستينيات وأواخر السبعينيات، وهو ما سيراه القارئ في كتاب عن الحياة الثقافية ربما أتمكن من الانتهاء منه قبل أن أموت كمدا مما يحدث من أمثال المليونيرات الجدد مصاصي الدماء،ربنا يسمم عيشتهم كما سمموا عيشة أمة بكاملها.

***

تراث حسن سليمان

أختم هذه الكلمات عن حسن سليمان بتوجيه نداء لمن يهمهم أمر ما تركه لنا جميعا (ولوطنه) من تراث، وأبدأ بما أعرفه، فقد ترك فناننا الكبير ما يمكن تصنيفه في المجموعات التالية:

1 ـ مجموعة مختارة من أعماله في فن التصوير التي اقتناها لنفسه ورفض بيعها، وكان غالبا ما يحتفظ بعمل أو اثنين من كل معرض من معارضه.

2 ـ مجموعة مختارة من مقتنياته لفنانين آخرين مصريين وعرب وأجانب، بعضها أهدي له وبعضها اقتناه هو وكان يرفض

دائما بيعها أو حتى إعارتها.

3 ـ كتب مؤلفة ومنشورة سابقا، وبعضها نفدت طبعته أو طبعاته.

4 ـ مؤلفات أخري كانت منذ زمن تحت «التفنيش» ولا أعرف ما وصلت إليه، هل انتهي منها أم لا.

5 ـ قصائد وقصص ومقالات مترجمة بعضها نشر في صحف ومجلات وبعضها لم ينشر، ومجموع ما رأيته مترجما علي يديه للشاعر الأيرلندي الكبير ديلان توماس ربما يشكل أغلب قصائده، في ترجمة دقيقة ورائعة ويمكن أن يشكل ديوانا كاملا، ومجموع هذه الترجمات تبلغ عدة مجلدات حرام أن تضيع.

6 ـ مجموعة ضخمة من المقالات التي نشرها فناننا الكبير في ملحق المساء في عهد كمال الجويلي، وعبد الفتاح الجمل، ثم مجموعة أخري في مجلة المجلة في عهد يحي حقي ومجموعة ثالثة في مجلة الكاتب في عهد الناقد الكبير أحمد عباس صالح، ومجموعة أخيرة في مجلة الهلال وهذه تحتاج لتصنيف وتبويب وتحرير لكنها تشكل عدة مجلدات من الكتابة الراقية التي تعد نموذجا للكتابة في مجال الفن.

أغلب الأعمال المشار إليها سابقا ـ خاصة منها الكتب والمقالات والترجمات ـ تفوق قيمتها الأدبية قيمتها المادية، وأنا أعرف أن بعض الورثة قد يؤدي تعنتهم إلي تعطيل نشر

هذه الأعمال، كما حدث في حالات أخري حيث يتخيل الورثة أن هذه الكتابات تدر الملايين وهي في الحقيقة لا تدر سوي الملاليم، وقيمتها تنصب علي الجانب الأدبي، ومع ذلك فلا أحد يعارض في أن ينال كل من له حق نصيبه، المهم أن تنشر هذه الكتابات، لا أن تترك للإهمال.

7 ـ يضاف إلي ذلك مجموعة من الأعمال الأثرية المسجلة، وهذه يمكن في حالة تسجيل جمعية نفع عام يكون مقرها في منزله الذي بناه في الفيوم بنية تحويله إلي متحف يضم مقتنياته يمكن إنقاذها من يد العابثين.

إن فكرة إنشاء جمعية نفع عام يقودها مجلس إدارة منتخب من الورثة والأصدقاء يمكن أن تكون حلا للحفاظ علي تراث حسن سليمان، وتوفيره للباحثين ليكون موضوعا للدرس والكتابة عنه وعن أعماله، كما تحفظ اسمه من الضياع، لأن الثعالب الصغيرة المفسدة الكروم تتربص بحسن سليمان ميتا كما كانت تتربص به وهو حي، ويهم هؤلاء التافهين أن ينمحي اسم فناننا الكبير من الوجود، وأرجو أن تتضافر جهود ورثته وأصدقائه وتلاميذه لتقيم هذه المؤسسة المرجوة والتي يمكن أن تحفظ اسمه للأجيال المقبلة الذين هم في أشد الحاجة لمثل هذا التراث العظيم.

***

ضرورة المراجعات

ماذا نعني بـ «المراجعات» هنا؟

أعتقد أننا في هذه الفترة التي نعيشها، في بداية القرن الحادي والعشرين، نمر بمرحلة من المراجعات علي كل المستويات، وفي كل نواحي المعرفة، بحيث يمكن وصفها بفترة المراجعات.

هل يمكن أن نحدد بداية هذه الفترة؟

.. ربما يمكن تحديدها بتفكك القوة العظمي الثانية، أعني الإتحاد السوفيتي السابق طبعا، حيث بدأت جماعات عديدة من التقدميين بطرح تساؤلات عن أسباب هذا التفكك (الذي كان ينبئ به بعضهم) وعما جري، كيف ولماذا، وما يمكن أن يحدث في المستقبل.

فالآن وفي هذه الأيام، ومع الأزمة الاقتصادية الكبرى التي يعيشها العالم، بدأ حتى عتاة الرأسمالية والسوق الحرة، الذين كانوا يقولون بتفتت الدولة، وانتقال السلطة إلي المؤسسات عابرة القارات، بدءوا هم أنفسهم في مراجعة أفكارهم السابقة، وبدأت الأقاويل تترى بقوة عن «أزمة رأس المال»، حتى أصبحت تقرأ لكاتب رأسمالي شهير مثل «فريد زكريا» (الذي يكتب المقال الافتتاحي لمجلة نيوزويك، ويعد برنامجا شهيرا

لمحطة السي إن إن) مطالبته بإعادة قراءة كتاب كارل ماركس «رأس المال» ونسمع أن الكتاب أضحي يطبع بمئات الألوف مرة أخري في البلدان الرأسمالية نفسها (خاصة ألمانيا) ربما لمحاولة فهم طبيعة الرأسمالية ومساراتها وإلي أي الطرق يمكن أن تؤدي.

وكما أصبح الفكر السياسي في عمومه قيد المراجعة، أضحت علوم الفلسفة، والاجتماع، والنفس بمدارسها العتيقة، وحتى صناعة الدواء أضحت موضع هذه المراجعة، وبدأت حركة دءوب، مهما كانت بطيئة، إلا أنها تمشي بثقة وثبات، نحو نبذ العديد من طرق الحياة الرأسمالية وهي التي كانت تعد من قبيل التقدم، للعودة مرة أخري إلي أساليب أكثر انضباطا من جهة، كما ثارت بقوة دعوات العودة إلي دراسة الآثار الضارة للصناعات الغربية وما سببته من تلوث وضرر بالطبيعة ومواردها بحثا عن حلول أكثر إنسانية، من جهة أخري.

في مجال الأدب والفن هناك أيضا مراجعات للمذاهب العتيقة، والنماذج المتعارف عليها إلي محاولات خلق أشكال جديدة طابعها الأساسي هو الانفتاح فيما أسماه «أمبرتو إيكو» «العمل المفتوح».

هناك أيضا مراجعات في مجالات السينما والفن التشكيلي كما المسرح والموسيقي وكل الفنون تقريبا.

نحن إذن،كما أظن وأعتقد، في عصر المراجعات، وأفترض

أن هذا هو السبب الذي دفعني لتبني هذه الدعوة لربما أكون علي مسافة ما مما يمكن وصفه بالصواب.

***

صاحب الدعوة لقراءة الكتب

من من محبي الكتب في مصر المحروسة، وطوال أكثر من أربعين عاما، لم يكن الحاج مدبولي صاحب الفضل الأكبر عليه، وهو يوفر له من الكتب ما لا يجده في مكان آخر؟

حين وصلني خبر وفاته متأخرا للأسف، وأنا في بيتي الصغير في الفيوم، نزلت إلي مكتبتي التي تحتل أكبر غرفه وتطلعت لأرفف الكتب وقدرت أن أكثر من نصفها جاء من مكتبته العامرة، وأعتقد أن ما من قارئ جاد في مصر إلا وأغلب ما لديه من كتب قد جاء من يدي هذا العاشق الولهان الذي كان يتعامل مع الكتب بروح الحب والاحتراف في نفس الوقت، وما أجمل أن تكون هوايتك هي حبك وفي نفس الوقت حرفتك و مصدر رزقك.

هذه الروح هي التي صنعت ظاهرة الحاج مدبولي، وهي التي صنعت عبر التاريخ كل ظاهرة إيجابية، وهي التي تدفع بصاحبها لأن يري ما لا يراه غيره، ويفعل ما لا يستطيع غيره أن يفعل، وفي الأساس كان الحاج مدبولي خادم الكتب المفدى الذي دفع من حريته الكثير سجنا أو عقابا أو شكاوي كيدية من بعض صغار

النفوس، لا لشيء إلا لأنه كان ديمقراطيا في تعامله مع الكتاب، يتعامل مع كل عناوينه (من أقصي اليسار إلي أقصي اليمين) دون تفرقة أو خوف من زوار الفجر.

لقد دفع هذا الحب بالحاج مدبولي أن يرقي من مجرد موزع صحف علي «فرشة» في ميدان طلعت حرب، إلي كشك تزينه أغلفة الكتب وصور المبدعين، إلي دار نشر ساهمت، لا فقط في نشر من لا ناشر له، بل قامت بنشر سلسلة من أهم السلاسل التي صدرت عبر تاريخ النشر في مصر، ألا وهي سلسلة تاريخ المصريين، وهي بالمناسبة إحدى مشاريعي التي كنت أود تنفيذها أيام كنت أعمل بالنشر،ولم أستطع، فأهديتها للحاج مدبولي الذي حققها بنجاح.

وأصل الحكاية قادني إليها حوار مع الصديق (القديم) المؤرخ طارق البشري بعد أن قرأت كتابه المسلمون والأقباط.. «حيث لفتت نظري مجموعة من أسماء الكتب الواردة في قائمة المراجع فسألته عنها فقال إنها نفدت تماما وياليت من ينشرها، فأرسلت مساعدتي في ذلك الوقت لدار الكتب وعادت بتواريخ نشر هذه المراجع، فإذا بها تزيد عن خمسين عاما فاستهوتني فكرة جمع أكبر عدد من أسماء هذه الكتب التي أضحت بلا عائل علي الرغم من أهميتها الشديدة ووصلت بالقائمة إلي ما يزيد عن ثلاثمائة عنوان، ولكنني بعد تجربة نشر مجلدات مجلة الأستاذ لعبد الله

النديم وخسارتي البالغة أصبت بإحباط من الاستمرار في النشر، وهكذا أغلقت دار «كتب خانة» وظلت القائمة معي فترة كنت خلالها مترددا لمن أهديها خاصة وأنها تضم ثروة من المؤلفات النادرة، وفي النهاية أهديتها للحاج مدبولي الذي لم يتردد في نشر هذه السلسلة الهامة، ولا أقول هذا إلا من باب التدليل علي أن الراحل الكبير لم يكن يتواني عن التصدي لأي عمل ثقافي حتى ولو كلفه كل ما يملك ككل إنسان نبيل الأصل والفصل.

***

تحريم المظاهرات السلمية

لا أعرف، ولا أظن أحدا آخر يعرف، كيف يمكن لرجل يدعي أن من حقه إصدار فتاوى إسلامية أن يصل به عدم الضمير لأن يصدر مثل هذه الفتوى الحقيرة التي تجرأ ونشرها علي الملأ أحد المتخلفين من تجار الفتاوى في الجزيرة العربية ليحرم فيها خروج المظاهرات للشوارع تعبيرا من الناس المغلوبين علي أمرهم للاحتجاج السلمي علي العدوان الصهيوني الغاشم علي أطفال ونساء وشيوخ غزة الجريحة.

كيف سمح له ضميره المعوج أن يصدر مثل هذه الفتوى القذرة مسايرة للصهاينة في فتاواهم الفاشية التي تعتبر كل أشكال مقاومة الشعب الفلسطيني للمحتل جريمة؟

ألا يخجل مثل هذا الشخص المختل من نفسه وهو يري أحد خامات اليهود وهو يحرق باسبوره أمام أنظار العالم احتجاجا علي ما صنعته الآلة العسكرية الإسرائيلية الباغية وزملاؤه الحاخامات الآخرين يقفون بجواره وهم يحملون لافتات تندد بالعدو الصهيوني في مظاهرة حاشدة ملأت شوارع باريس؟

ألا يخجل هذا المخبول من نفسه وهو يري الملايين من المتظاهرين في كل شوارع مدن العالم بما فيها تل أبيب وواشنطن علاوة علي مدن شملت القارات جميعها وأغلب هؤلاء لا هم عرب ولا حتى مسلمون؟

لقد أصدر هذا المأفون فتواه هذه، وللأسف أعادت نشرها بعض صحف هذا البلد «الشقيق» ورددتها كأنها تريد إشهارها، ومضي الآن علي هذه الفتوى أكثر من أسبوعين ولم نسمع أو نشاهد أي شخص، رسمي أو غير رسمي، قد احتج علي هذه الفتوى المنحطة، أو حتى جادلها، أو طلب تفسيرات لها.

كنت أود شخصيا أن تصدر دار الفتوى الرسمية في هذا البلد «الشقيق»، تكذيبا أو احتجاجا، أو نفيا لهذه الفتوى، وللأسف لم نسمع بشيء من هذا الأمر الذي يوحي بأنه أصدرها بناء علي اتفاق مسبق ولبئس ما كان ويكونون.

وهنا ألم يسأل أحد من المسئولين في هذا البلد كيف يمكن أن يكون رد فعل، لا نقول الفلسطينيين المكلومين، بل مواطني

البلاد الأخرى غير العربية وهم يقرأوون مثل هذه الفتوى الحقيرة وماذا سيقولون عنهم؟

هل وصلت العمالة إلا هذا الحد؟

هل لم يبق هناك ـ حتى ـ ضمير إنساني يتعاطف ولو مجرد التعاطف مع الرضع الذين شوتهم القنابل الفسفورية وهم في أحضان أمهاتهم؟

هل هذا مرض أم جنون؟ أم عمالة من نوع مسجل في قوائم الموساد والبنتاجون، أم هي الدعارة بعين ذاتها؟

لا يستطيع الواحد أن يقول للأسف في مثل هذا الشخص سوي ما قلناه سابقا، لكننا نقول للمسئولين عنه في هذا البلد «الشقيق» «ياعيب الشوم» علي رجال آخر زمن.

***

معمل الروائع المزعومة

لا بد أن البعض من أبناء جيل السبعينيات لا يزال يذكر هذا الوصف الغريب «مخرج الروائع» الذي كان البعض من صحفيي الجرائد السيارة يطلقونه علي «حسن الإمام» المخرج البسيط الساذج، لأن بعض أعماله في الحقيقة،لا كلها، نجح علي مستوي شباك التذاكر. وها هي الأيام تروح وتجيء فلا نجد له أثرا قليلا أو كثيرا، لا في تاريخ السينما، ولا في إخراج الروائع،

ولا في شباك التذاكر، وهذا ما يقرره أهل السينما أنفسهم، لا نحن معشر الأدباء، ولكم أن تتصفحوا موسوعاتهم ومؤلفات تاريخ السينما لتجدوا مصداقية هذا القول.

ما كان ولا يزال يدهشني في هذا الوصف، أنه مصاغ بصيغة القطع التي لا يأتيها الاستثناء من بين يديها أو خلفها، بالإضافة إلي أن تأكيد هذا التعميم ليشمل أي شيء فعله السيد الأمام الهمام، لا يستثني أعمالا له لم تجد النجاح حتى علي مستوي شباك التذاكر، هو ما يجعلنا نقول ولا بد بمجانية هذا الوصف.

وحسب قراءاتي فإنني لم أعرف مخرجا عالميا واحدا وصف بهذا الوصف، بل أكاد أجزم بأنني لم أقرأ له ـ هذا الوصف ـ مثيلا في ثقافات الآخرين، خاصة إذا تعلق الأمر بفنان جاد وصحف جادة، وهي موجودة ولو علي جانب شباك التذاكر، في العالم كله.

طبعا هذا يحيلنا إلي إحالة هذا الوصف إلي مجال الأدب، الذي أعتقد انه أمر مسيء للمنابر التي تطلقه علي هذا أو ذاك من أهل الأدب (أو الثقافة عموما) خاصة إذا كنا في مجال الجدية: جدية العمل وجدية صاحبه ثم جدية المنابر نفسها.

كما أعتقد أيضا أنه يسئ في نفس الوقت للمبدع كما يسيء لأعماله الرائعة فعلا لأنه يخلط الحابل بالنابل.

وأنا لا أعتقد أنه بالإمكان، والتجربة خير دليل دامغ، أن

يكون هناك مبدع ينتج طوال الوقت وفي كل الظروف والأحوال «روائع» فقط لا غير، وأن أعماله كلها هي هكذا روائع، حتى يكون الوصف صادقا ودقيقا، فالمبدع ليس معمل تفريخ عمومي يشتغل الليل والنهار علي «الروائع» إلا إذا كان معمل تفريخ من النوع السائد هذه الأيام الذي يستعمل أصحابه الهرمونات لنفخ الكتاكيت الصغيرة، لتصبح ديوكا كبيرة في ظرف أيام، لتنتج لحما فاسدا بلا لون أو طعم أو رائحة أو فائدة.

إذا أخذنا أيا من المخرجين الكبار الذين أنتجوا روائع حقيقية،فإنك ستجد من بين أعمالهم ما لا يعد من قبيل الروائع، يمكنك أن تقول هذا عن وودي آلان وأطنيوني، كما تقوله علي ديوستيفسكي وتشيكوف، كما بيكاسو أو حسن سليمان.

وأنا شخصيا معجب غاية الإعجاب بروايات وليم فولكنر، لكنني أجد من بين أعماله ما لا أطيق قراءته مرة أخري.

فإذا كان هذا التقييم ينطبق علي مثل هؤلاء العمالقة، فهل هو حرام أن ندعو لأن ينطبق علي هذه الفئة من الكتاب البسطاء والمخرجين الفقراء والمغنين الأشد بساطة وفقرا وهباء؟

***

دروس يوسف شاهين

في السبعينيات، حيث كانت الحالة الثورية في مصر، بقيادة الحركة التقدمية، علي أشدها، وجدت نفسي عالقا في بيروت التي كانت في هذه اللحظة التاريخية قبلة الحركات السياسية التقدمية، وشاهدت (من موقعي المتعاطف) أعدادا غفيرة من المثقفين وقد لجأوا إلي عاصمة الحرية في الوطن العربي في ذلك الوقت، متضامنين مع بعضهم البعض، ومع قضايا الأوطان التي كانت أنظمتها (وعلي رأسها نظام السادات) من جهة أخري، في حالة رعب دفعها لتصبح أكثر شراسة مع شعوبها (وطليعتها التقدمية بالذات) حتى أننا رأينا بالصور جثث المناضلين الشبان من ظفار، والمغرب، والأردن، والسعودية، وسوريا، وهي مشوهة أشد ما يكون التشويه علي أيدي الجلادين، وسمعنا عن عشرات الشبان الذين ألقتهم الطائرات من آلاف الأقدام في عمق الصحراء فلم يبق لهم أثر، فكانت بيروت هي الملاذ والملجأ لكل الهاربين من هذه الوحشية.

كان هذا في العام 1974، وجاءت الأخبار بإنجاز شاهين فيلمه الشهير «حدوتة مصرية»، ثم جاءت ليلة العرض في صالات بيروت (كلها)، في ليلة واحدة.

بصعوبة شديدة حصلت وأصدقائي علي تذاكر لمشاهدة الفيلم، وذهبت بصحبة عبد السلام رضوان، وسعد الفيشاوي، وهاني مندس، وفاروق وادي، وخالد زيادة، وجورجيت، ومصطفي الشقيفي،، وشربل داغر ففوجئنا بالحشود المكدسة أمام قاعة العرض التي اضطر أصحابها لبيع تذاكر عدة حفلات في هذه الحفلة مما جعل عدد الواقفين أضعاف الجالسين.

كل هذا ليس مهما، إنما المهم هو «كيف يقيم يوسف شاهين علاقته مع الجمهور».

فليس «حدوتة مصرية» فيلم مناظر تعر، ولا فيلم تسلية رومانسية، وليس فيلم مغامرات ينتصر فيه البطل المغوار، لا، ليس العصفور من هذه الأفلام، وإذا كنت مثلي تريد أن تتعلم من هذه القدرة علي إقامة علاقة جادة مع الجمهور فتأمل ما جري.

وما جري أن الناس بقيت صامتة فترة بداية العرض، ثم تنوعت ردود أفعالهم: صفقوا تصفيقا حادا مدويا، ثم بكوا بكاء شديدا، ثم ضحكوا حتى دمعت عيونهم، ثم غنوا مع الشيخ إمام «مصر ياما يابهية» وكان هذا الجمهور الذي لا تزيد نسبة المصريين بينهم أكثر من 1 ٪ يغني لمصر، بلد المخرج الكبير، وخرجوا من قاعة العرض في مظاهرة ملأت شارع الحمراء في قلب بيروت بالغناء للوطن الغالي «مصر ياما يابهية، يام طرحة وجلبية، الزمن شاب وانتي شابة، هوا رايح وانتي جاية».

الجمهور في حالة صلاة صامتة

أعود إلى علاقة شاهين بجمهور السينما، وأذكّر بحقيقة مؤكدة هي أن شاهين هو المخرج العربي الوحيد الذي يذهب الناس لرؤية أفلامه بسببه هو، وليس لوجود هذه النجمة أو تلك، أو هذا البطل أو ذاك، في هذا الفيلم أو ذاك. إنهم يقولون بالفم «الملیان» نحن ذاهبون لرؤية فيلم يوسف شاهين.

أذكر أنني رأيت فيلم «إسكندرية ليه» في حفلة الظهيرة وكنت بصحبة كاتب صديق لا يحب مرحلة ما بعد «عودة الابن الضال» ويعتبرها هرطقة ويقف عند مرحلة «باب الحديد» و«الأرض» ككل المتأثرين بمدرسة «الواقعية الاشتراكية» في صيغتها الجامدة.

كانت السينما ممتلئة عن آخرها، وما أن جلس الناس وبدأ الفيلم حتى بدأنا نسمع أصواتا تتململ من الصالة، حتى أن أحدهم شتم بصوت عال، وبكلمات نابية، صديقه الذي جاء به لرؤية هذا الفيلم «الهباب، المنيل يابن الشـ..».

لم تستمر الهمهمة طويلا بل غرقت الصالة في صمت عميق، وكأن الجمهور قد راح في حالة صلاة صامتة.

لم يستمر الصمت طويلا، وبعد دقائق إذا بالضحكات تعلو

حتى وصل بعضها إلي درجة القهقهة الساخنة.

لم تستمر القهقهة طويلا بل بدأ الناس يغنون مع أم كلثوم، حتى أصحاب الأصوات النشاز لم يخجلوا من الغناء.

وحين ظهر عبد الناصر إذا بالناس يصفقون بحرارة، وقد تبع وصلة التصفيق نهنهة تبعتها وصلة من البكاء الذي راح فيه البعض إلي درجة النحيب. ولا أذكر ما إذا كان هناك شعار راح الناس يهتفون به في هذا الفيلم أم كان ذلك في فيلم آخر، لكن:

ـ حين تصل العلاقة بين الفنان وجمهوره إلي حد أنهم:

ـ يشتمون.

ـ يصمتون.

ـ يضحكون.

ـ يغنون.

ـ يبكون.

كل هذا بكل حرية وعفوية وصدق، فبالله عليك، أنت يا من تقف عند مرحلة باب الحديد بجمود، وتريد أن تلغي بقية مجهود فنان كبير صاحب مشروع كبير، أليس هذه سذاجة مفرطة منك؟

أحيان يبدو الشعار الذي يدسه شاهين في قلب الفيلم «شعارا سياسيا مباشرا» قد يصل إلي حد السذاجة، لكن شاهين يريد أن يلعب مع جمهوره ليصل به إلي إجباره علي ترديد هذا الشعار المباشر، حتى يخرج من «الغموض» إلي الصراحة.

وما حدث، ولأنني كنت دائما مهموما بقضيتين متشابكتين هما: قضية التجريب، وقضية العلاقة بالمتلقي، هو أنني حملت جهاز تسجيل صغير وذهبت في اليوم التالي لرؤية نفس الفيلم في نفس الحفلة، ومع جمهور متماثل، وسجلت ردود أفعال الجمهور التي جاءت متماثلة لردود أفعال جمهور اليوم السابق، وعدت لبيتي لأستمع لهذا الشريط مرات ومرات، وفي كل مرة كنت أجد نفسي أقول: «ياواد يا جو يا معلم».

المخرج والكتب

قلة من المخرجين السينمائيين والتلفزيونيين الذين عرفتهم ولهم علاقة قوية بالكتاب، أي بالثقافة الحية والضرورية للفنان في عصرنا، فكيف لفنان يقول انه فنان وهو غير مطلع علي ثقافة العصر (كان عادل إمام حين يدخل علينا في بيت علي بدرخان ويجدنا مرارا ـ العبد لله وصقر بدرخان والدكتور حسين عبد القادر منهمكين في الحوار حول كتاب جديد يقول وهو يشوح بيديه: يا ساتر المثقفين هنا) وكأننا وباء.

وقد دخلت كثيرا من بيوت «فنانين» سينمائيين وتشكيليين ومن أهل الغناء فوجدت كل شيء في أحسن صورة ما عدا الكتب، لم أجد منها ولا حتى ظهر غلاف، وقد ساقتني الظروف مرة للمبيت في بيت قيادي شهير في إحدى الحركات السياسية

الشهيرة، وكان إذ ذاك مديرا لوكالة الأنباء الرسمية لهذه الحركة في بيروت (وأصبح فيما بعد وزير إعلامها فلم أجد في منزله العامر سوي مجلدات الشبكة التي احتفظت بها زوجته الدلوعة كجزء من الديكور).

لكن أنظر ما حدث: نمت لأول مرة في حياتي وفي يدي مجلد من مجلدات «الشبكة»

***

أذكر أنني رأيت فيلم يوسف شاهين «نابليون بونابرت» في حفلة خاصة مع كثير من الأصدقاء، وانتهي بنا الأمر لقضاء بقية السهرة في بيتي المتواضع بالسيدة زينب، واشتد الخلاف بيننا حول الفيلم، من رآه فيلما خارجا منتقدا إياه بشدة بحجة «المعلومات المغلوطة» ومن رأي أن به سقطات لا تغتفر، ومن رأي أنه تحفة فنية، وإلي آخره، (والخلاف لا يفسد للود قضية علي أي حال) لكن ما حدث أننا كنا نعود بين كل لحظة وأخري لنسحب مجلدا من تاريخ الجبرتي أو ابن إياس، او كتابا عن الثورة الفرنسية أو مجلد «مصر ولع فرنسي»، أو هذا أو ذاك من الكتب،ولأن العبد لله مولع بالتاريخ، تراكمت حولنا المجلدات التي سحبها هذا الصديق أو ذاك من أرفف المكتبة، وحين انتهت السهرة كانت الكتب حولنا في كل مكان في الغرفة الواسعة،علي الطاولة وتحتها والكنبة و المقاعد،وحتى علي الأرض، وفي

نهاية السهرة لاحظ حكيمنا وصديقنا الجميل «جلال الجميعي» ذلك، وأشار بيده للكتب المتناثرة هنا وهناك وقال لا فض فوه: «علي الرغم من أنني لست معجبا بالفيلم علي الإطلاق، إلا انه شوفو ابن الأيه .. خلانا قلبنا في كل الكتب دي؟» وكان لا بد لي من أسأل صديقي العزيز الذي كنت علي خلاف شديد معه حول هذا الفيلم الكبير: ألا يكفي يوسف شاهين أنه أثار بيننا كل هذا الحوار «الثقافي» العميق، ألا يكفيه انه جعلنا نعود لكل هذه المراجع ونعيد استذكار ما كنا قد درسناه سابقا؟

هذا واحد من دروس يوسف شاهين المعتبرة، فهو واحد من قلة من فنانينا المثقفين الكبار أيضا، الذي كان الكتاب يشكل له، لا نقول فقط منبعا لعمله، بل مرجعا أساسيا له كإنسان مهموم بقضايا وطنه.

***

الماضي كمرجعية وحيدة

أين نحن في هذا العالم؟

أين نحن من هذا العالم؟

كيف نراه؟ وكيف يرانا؟

لا أعرف لم نحاول دوما إطلاق المقولات النظرية علي وقائع التاريخ، هل لأننا نريد القفز علي واقعنا المر من أجل تجاوزه

«وهما» نشارك فيه نحن «كجماعة المثقفين»، لإراحة البال، بالكلام اللغو، دون حتى محاولة النظر العميق الذي يجعل لهذا الكلام قيمة، أي يصبح الكلام عندئذ «مادة» نظر محسوسة، يمكن أن نبني عليها صرحا معرفيا يصبح بدوره درجة في بناء يمكننا أن نستند إليه كمرجع؟.

إننا لا نريد، بسبب من الهزيمة علي الأرجح، أن نتعرف علي أنفسنا، كما علي الآخر من خلال ما هو واقع محسوس، إنبني علي وقائع تاريخية محددة، فأصبحت العلاقة هي ما هي عليه الآن، وهنا، علي هذا النحو المحدد.

علي سبيل المثال نحن نقارن بين ما جري في مصر علي يدي محمد علي من بدايات نهضة واعدة، ثم مسيرة هذه النهضة المتعثرة، مرورا بكل ما جري حتى اللحظة الراهنة، ونقارن ذلك بما جري في اليابان التي أرسلت أيام محمد علي الوفود لتتعلم من تجربته، ولكن أحدا لم يسأل: ألا يكمن فشل تجربة محمد علي في كونه هو نفسه أجنبيا، نظن أنه لم يكن يطمح لقيام إمبراطورية مصرية أو عربية، بل كان يطمح لقيام إمبراطوريته الخاصة، بدليل أنه وهو الذي تولي الحكم بمسيرة (يا للبلاهة) من «علماء الأمة وكبرائها» قام بتوريث الحكم لذريته، وهم الأجانب، وصراعه مع الإمبراطورية العثمانية يؤكد أن هدفه كان كذلك: إمبراطورية شخصية تورث، بصرف النظر عن مصلحة الأمة؟.

ثم ها هنا سؤال ثان: هل يمكن أن تبدأ نهضة بمجزرة، ألم يستهل محمد علي أيامه الأولي لتولي السلطة بمذبحة القلعة الشهيرة التي توفرت لها صفات النذالة والخسة والغدر والهمجية والوحشية الرهيبة، فالرجل يدعوا رجاله وبينهم من كانت به صلة إنسانية ليجمعهم داخل القلعة ثم يعمل فيهم قتلا وتمزيقا حتي مزق أجسادهم إلا نفر فر بقدرة قادر؟

ثم: هل أقام محمد علي حقا مؤسسات عامة لها لشخصية الاعتبارية من جهة، ولها قانون يحمي استمرارها،كمؤسسات، لتتراكم الخبرات، وتصبح تراثا حديثا محليا؟

ثم: هل يمكن أن تقوم دولة حقا بجيش بدأ تأسيسه محمد علي بالاستعانة بجنود من السودان، ثم لما فشلت التجربة استعان بجنود جهلة من الأرياف؟

ثم: هل قام أهل محمد علي بداية به، مرورا بأحفاده بعمل شيء محسوس ومؤثر بخصوص الأمية التي ظلت حتي عصر إسماعيل تفوق نسبتها التسعين في المائة؟

ثم: هل يمكننا أن نقارن بين الإمبراطور الياباني المستنير مايجي وما قام به من تحويل تقاليد الساموراي إلي تقاليد المؤسسة الحديثة والمستمرة مستعينا بهؤلاء وهم علي قدر كبير من الوعي بماضيهم وحاضرهم؟

ثم: هل كان هناك من بين من نقول عنهم مفكرين عربا من

هو في مستوي فوكوزاوا وعيا وإحساسا بالمسئولية بالقدر الذي انبت عليه صروح معرفية، ثم قانونية أسست لليابان الجديد؟ صحيح أن عزلة اليابان عن العالم باعتبارها تقع عند أطرافه ساعدت علي هذه النهضة، لكن يد الاستعمار الأجنبي لم توفر اليابان، بل يمكن القول أنها امتدت إليه كما امتدت إلينا، لكن الزعامة الحكيمة هناك قادت إلي نهضة حقيقية، والقيادة الرعناء هنا قادت لتبديد كل الموارد والطاقات الأمر الذي جعل المنطقة العربية موضوع طمع انتهي بتأسيس دولة إسرائيل حتى لا تقوم لنا قائمة، وأزعم أنه لو كانت النهضة العربية قد قامت علي أسس سليمة ومؤسسية، لما فكر الإنجليز واليهود في قيام دولة إسرائيل في المنطقة، وهناك من الوثائق ما يؤكد أن المشروع الصهيوني كانت له خطط عدة لإنشاء دولة إسرائيل في هذه المنطقة، وساعد علي ذلك المزاعم التاريخية لبعض الصهاينة (وليس كلهم) في اعتبار فلسطين هي أرض الميعاد الموعودة.

إننا يجب إذن أن ننظر حولنا جيدا لنري ما هو قائم، وليس ما يجب أن يكون، سنجد أن المشاكل الرئيسية المسببة للتخلف قائمة، وللأسف، تتفاقم.

فعلي سبيل المثال يمكن القول باطمئنان أن مشاريع محو الأمية، ونشر التعليم، مشاريع فاشلة، أو في أحسن الأحوال متعثرة، وحين يتحقق النجاح في مجال «فك الخط» تكون النتيجة

أمية من نوع أكثر خطورة لأن المتعلم « حامل الشهادة « الجاهل بما هو أساسي في أمور الحياة، يصبح أكثر خطورة علي نهضة الأمة، لأنه من جهة، يوهم بأن هناك تقدما، لكن الحقيقة أنه يكبل بهذا الوهم القدرة الحقيقية علي الإبداع، وبالتالي يصبح الوهم هو الواقع.

وعلي سبيل المثال، فإنه حين يرسخ نظام الحكم في يد فرد هو الأوحد المستبد القادر الحاكم بأمر الله، يصبح الوطن كله في مهب الريح، فلا مؤسسة حقيقية يمكن أن تنشأ، ولا بناء حقيقي يمكن أن يقام، ولا معرفة يمكن أن تنمو، ولا عقد اجتماعي يصبح هو المرجع، لأن المرجع هنا هو الفرد الحاكم الوحيد، فهو أيضا وبمساعدة «المفكرين» إياهم تصبح له صفات القديسين لو أراد، فهو العطوف الرحيم الوهاب وإلي آخره، و.. أليس هذا هو حالنا كما هو عليه الواقع؟

هذا هو وضعنا في هذا العالم، والمصيبة، أن هذا العالم يعرف ذلك جيدا، ويعمل علي أساسه، ومن هنا يمكن القول بأن الاستعمار الصريح في الماضي وهو يتلبس لباسا عصريا يمارس وجوده في الحاضر وعلي عينك يا تاجر، أي أن الاستعمار القائم، يتجاهل حتى مقولات الاستعمار الجديد، (أي تجاوز الوجود العسكري المباشر بتبعية محلية وشراكة اقتصادية تأخذ ما تريد وتترك المتاعب لأهل الدار) ويتمادي ليصبح كما كان عليه في

الماضي، لأننا نحن أيضا نعيش في ماضي التاريخ الذي تجاوزته أغلب الأمم.

نحن إذن في الحضيض، نحن، بالفعل، في الماضي.

***

رحلة المسرات

الرحلة؟.. يا لها من كلمة غريبة نصف بها أجمل مسراتنا، متى بدأت؟ لا أستطيع أن أدعي أن ذاكرتي توصلني إلي التقاط اللحظات البعيدة، وأكون مطمئنا بالضبط، هناك من يقول، دوما، بأنه يذكر ما جري له وهو في الرابعة، وأنا أحسده علي ذلك، فأنا لا أذكر حتى الكثير مما جري لي في الأمس القريب، ربما، لأن ذاكرتي الميمونة متعبة، مثقلة بالآلام، بالإحباط ، بالحيرة التي لم تجعل الذاكرة وحدها تترنح، بل روحي نفسها، تراوح أنفاسها، حتى أنني كثيرا ما أحس بالدهشة من أنني ما زلت أتحرك، ما زلت أمشي، ما زلت أنادي فيعود الصدى الخافت: لا أحد.

وماذا الآن لو اعترفت بأن بداية هذه الرحلة لم تكن سوي فصول من رحلة الهرب التي مارستها لأصل لخلاص الروح، خلاص النفس، من القسوة والعنف؟ من افتقاد الدفء واليد الحانية؟ هل سيأتي النقاد الأوغاد المتربصون لاجتثاث سيرتي وتفسير رواياتي باعتبارها هي الأخرى عملا هروبيا عبثيا طفوليا

ويضعونه في خانة الإدانة الإيديولوجية؟

مذ قرأت أول كلمة مجاملة لكتابي الأول «فارس علي حصان من الخشب» حيث أورد الناقد (الأستاذ الجامعي الكبير الآن) ثمانية أخطاء معلوماتية (منها خطأ في عنوان الكتاب) تأكدت من أن القراءة لابد أن ترتبط بمعرفة الكتابة والكاتب، حتى تطمئن النفس إلي أن ما تحصله ليس نتيجة سهو، أو استهتار، وصدقوني، إنني لم أعد أصدق إلا القليل من الكتاب، حين تكرر الأمر مع ناقد آخر كبير وشهير ، فسر روايتي الثانية «تحريك القلب» تفسيراً بناه علي معلومات مغلوطة، لكنه، هذا التفسير، جعل زوجتي السابقة، تطير فرحا، لأن الناقد الكبير مدحني حتى قارنني بسيد من سادة الرواية الكبار، وهكذا تأكدت من أنه لا يجوز للمرء أن يستكين للقراءة الميكانيكية للكتب فقط، بل، وأيضا، لقراءة البشر والناس، والمرأة منهم علي وجه الخصوص.

وها أنذا سأعترف اعترافا آخر قد يضيف حجة أخري للنقاد بأنني من العابثين، هو أنني كنت شغوفا شغفا شديدا بما يكتبه الكتاب عن «أفضل طريقة للقراءة» كأن يقول أحدهم أن القراءة الحقة هي درس الموضوع وقتله بحثا، أو يقول آخر إن أفضلها هي تلك التي تسير علي نهج، أو ثالث يقول إنها إجابة عن الأسئلة، ثم أنني استخلصت لنفسي طريقة أخري عابثة هي أن القراءة «تسلية» بريئة، ممتعة كما اللعب مع الحبيب، وليذهب

النقاد وأصحاب الأقوال للجحيم.

لكن كيف تظهر الجدية البادية في أعمال من قبيل «سبيل الشخص» أو «عطلة رضوان» أو «الوداع تاج من الشعب»؟

أظن أنها تظهر من بذل الجهد لإخفاء القصد، من معاناة الوصول إلي حالة التفاني في الحب إلي درجة الوجد والذوبان في الحبيب لتصل إلي شيء، ولو قليل، مما وصل إليه الحلاج، وهو يري الحبيب في جبته، وهكذا هي قراءتي، لذا فإنني، وهذا اعتراف مشين آخر، قليلا ما أجد هذه الأيام كتابا يستحق أن يقرأ حتي نهايته، لذا فإنني «أقرأ» في عشرات الكتب مع بعضها، حتى يأخذني أحدها مأخذ الوجد إلي سدته فلا أري سواه، فأمضي معه إلي حدائق الفردوس، حيث الحور العين، وطيور الحق ترفرف بأجنحتها فوق الروابي الخضر.

لكن هل هذا يعني أنه ليس هناك كتب بعينها قد أثرت في تكويني (العقلي والوجداني) خلال مسيرة الحياة الطويلة؟ بالقطع كانت هناك كتب «شقلبت» يافوخي وأخري دفعتني للشك في كل ما كان في تكويني السابق، وإلي آخره.

ففي مرحلة الصبا كانت هناك ألف ليلة وليلة التي بهرتني موضوعات حكاياتها في البداية، ثم عدت إليها في الكبر، فبهرتني طريقة الأداء، أي اللعبة الفنية، فالراوي يدخل في قصة ليخرج إلي أخري ببساطة وقدرة عجيبتين مما دفعني لكتابة

سلسلة من المقالات لقراءة هذه الطريقة في الأداء.

وفي المرحلة التالية كانت هناك روايات نجيب محفوظ وعلي رأسها ثرثرة فوق النيل، والثلاثية التي كنت أقرأها بشغف حتي اكتشفت أنني في حاجة لروائي أتعلم منه، فبدأت قراءة تشيكوف في مجلد قصصه القصيرة الرائعة، ثم كانت الأخوة كارامازوف التي قلبت كياني الفكري والوجداني، لكنني أدين أكثر بتعلم حرفة الكتابة من كتب أخري، هناك «الصخب والعنف» للروائي الأكبر وليم فولكنر، ويوليسيس للمعلم الأيرلندي العظيم جيمس جويس، والروائية والمعلمة العظيمة فرجينيا وولف خاصة روايتها «إلي الفنار» التي تعلمت منها كيف يمكن للروائي أن يتحكم في مشاعر أبطاله ويحولها إلي صور حية حتى ولو كانت مجرد ملاحظات عابرة، ثم كان اكتشافي لروايات ترومن كابوتي حدثا هاما في حياتي ومن يومها لا تفارق رواياته «قيثارة العشب» و«غرف أخري وأصوات أخري» «وبدم بارد» حقيبتي حين أسافر لأعاود قراءتها.

هناك بالقطع كتب عديدة أخري، لكنني أدين بمعرفتي المتواضعة لأسرار اللغة العربية لكتاب تراثي مجهول هو «المزهر في علوم اللغة للسيوطى» الذي خلصني من معاناة شديدة قاسيتها من دروس مشايخ الأزهر الذين كانوا يلقنوننا اللغة، كما كل علم آخر، باعتبارها لوغارتمات منفصلة عن الحياة، في الوقت الذي

تعلمت فيه من السيوطى أن اللغة هي الحياة نفسها، لذا فإنني أدعو كل من يريد الخلاص اللغوي أن يعود لهذا الكتاب العظيم.

***

الكاتب العربي ليس له بيت

كان هناك كتاب صغير جميل في حجم كف اليد.

كان الكتاب يحكي حكاية قصيرة، بسيطة، لكنها تنفذ إلي القلب مباشرة.

كان الكتاب يقول، باختصار، أن الكلب له بيت، والحمار له بيت، والقط له بيت، لكن الفلسطيني ليس له بيت.

كان الكتاب واحدا من تلك الكتب الجميلة الصغيرة المشغولة بدقة وإتقان للأطفال، يوم أن اجتمعت ثلة من أعظم الرسامين والكتاب العرب في بيت أطفال جميل هو «دار الفتي العربي»، ولشدة جماله ونفاذ بصيرته استطاع أن يعبر الحدود والسدود ويطبع بالملايين بكل لغات الشعوب الحية، حاملا رسالة الطفل الفلسطيني المشرد إلي أقاصي الأرض.

ومن شدة نفاذ وحكمة كلماته النيرة، أضحي الكتاب الذي خطه ورسمه فناننا العظيم محيي الدين اللباد أضحي شاهدا ومثلا يلجأ إليه كل مظلوم تم الاعتداء علي حقه.

وهكذا، حين سرقت احدي الجهات شغل فناننا العبقري

محي الدين اللباد، استشهد به مطالبا بحقه، فحور حكايته وقال شاكيا أن الكلب له بيت والحمار له بيت أما الرسام فليس له بيت.

وها أنذا أستشهد به الآن، وأنا أتذكر كلمات للصديق جمال الغيطاني، الذي قد يظن الناس، لذيوع اسمه واتساع شهرته أنه لا يعاني مشكلة، خاصة في مجال النشر.

قال الصديق: تصور. بعد كل هذا العمر الطويل، وبعد أكثر من خمسة وأربعين كتابا، وحتى الآن، ليس لي بيت نشر يؤويني.

كان الصديق يقصد طبعا ذلك الناشر الحقيقي (غير الموجود عند العرب) ذلك الذي يبدأ من حيث ينتهي الكاتب: يحمل أمانة إنتاج الكتاب، وإيصاله إلي متلقيه، ثم حين تنفد طبعته لا ينام علي الكري، وإنما يواصل العمل علي الكتاب ليظل حيا وموجودا بين أيدي الناس.

مرة أخري سمعت هذه الشكوي من صنع الله إبراهيم وبهاء طاهر، وأسمعها كل يوم من نفسي، فأحد كتبي نفد منذ عام 82 وليس له بعد من يرعاه، علي الرغم من أنه لم يكن بائرا أبدا، وأظن أنه لولا عناية شخصية من دار المستقبل العربي لأعمال يحي الطاهر عبد الله، هذا الكاتب المهم، لانتهى يحى الطاهر كما انتهي وسينتهي عشرات من كتابنا ورساميا العباقرة.

تذكرت كل ذلك وأنا أري الأسى في عيون أصدقائي الكتاب إسماعيل فهد إسماعيل وخلدون الشمعة وليلي العثمان لأن

الرقيب «المصروف» لهم في الطالع، منع كتبهم من التداول، في معرض الكتاب المقام الآن في الكويت وهم في عقر دارهم؟!

نعم تذكرت ذلك وأسفت له، كما أسف علي حال الطفل الفلسطيني صديقي اللباد، الذي لم يعدله هو أيضا بيت، لتصبح العبارة: الحمار له بيت، والكلب له بيت، أما الكاتب العربي فليس له بيت.

***

الفصول الأربعة في بيت العاطفة

فصل الشتاء:

• س: متى تصيبك رجفة اليأس؟

• ج: كل إنسان له طبيعة خاصة اكتسبها من بيئته، ثم من ثقافته وخبرته، لتتحول بعد ذلك إلي وعي، وأعتقد أن تربيتي في بيئة الجنوب أكسبتني صلابة داخلية وعنادا ضد كل ما هو غير حقيقي، ثم أنني بذلت جهدا كبيرا سهرت فيه الليالي وأنا أقلب صفحات الكتب، ثم أنني خرجت للحياة في وقت مبكر من عمري وتلطمت في طرقات الحياة، ومن ذلك كله وعيت انه لا يوجد ـ بالنسبة لي ـ شيء اسمه اليأس.

هناك صعوبات في الحياة، بالطبع، لكن يجب أن نعي بأن نخلص أرواحنا من اليأس لأنه العدو الكبير للإنسان،فقد يخسر

الإنسان معركة، لكنه لا ييأس، لأن اليأس معناه خسارة الحرب، معناه الهزيمة.

• س: متى تثور عواطفك وتهب رياح غضبك؟

• ج: تثور عواطفي وتتوهج أحاسيسي، حين أكون في حضرة الحبيب، حين تترقرق جوانحي من الشوق، حين أنظر في عينيها فأري نفسي، أما الغضب فشيء آخر، إنه أقصي درجات الاحتجاج الإنساني، وبالنسبة لي فإن غضبي يظهر ويعبر عن نفسه حين أحس بأنه قد مست كرامتي، من قريب أو بعيد، بشكل مباشر أو غير مباشر، أعني كرامتي الشخصية، ثم كرامة أمتي العامة، وفي هذه الأيام العصيبة فإنني أحس بغضب عارم علي ما يجري من إهانه لأمتي، بداية مما يجري علي أرض فلسطين، مع ما يجري في حياتنا العامة من مذلة وإهانة للمواطن.

• س: ما هي الغيوم الملبدة في حياتك؟ وهل تتواري منها؟

• ج: ليس في حياتي الشخصية أية غيوم، ملبدة أو غير ملبدة، لكن ما يجري للشعب الفلسطيني من تنكيل وقتل وتعذيب وتشريد ومحاولات مستميتة لطمس هويته والقضاء علي وطنه، ثم هذا السكوت العجيب من العرب، كل هذا يظلل حياتنا جميعا بغيوم سوداء، لها طعم العلقم، ولا أظن أنني وحدي من يحس بهذا، بل كل مواطن عربي لديه حس إنساني.

• س: متى تمر بفترة صقيع؟

• ج: أحسست بصقيع شديد إلي حد الارتجاف حيث كان القلب خاليا من الحب، فهو الذي يدفئني ويجعلني أحس بالحياة تسري في روحي، لكن حين عاد الحب عاد الدفء إلي حياتي.

• س: ما لذي يحول الصقيع إلي دفء في حياتك؟

• ج: الحب هو البلسم لكل الجراح، والدافع لأن يسري الدفء في عروق الناس.

فصل الربيع:

• س: ما الينبوع الذي لا ينضب في حياتك؟

• ج: أعتقد أنه ينبوع العطاء، الذي يعني هنا علي وجه الدقة العمل المستمر والدائم، فلسبب ما أصبت مبكرا بمرض إدمان العمل، والنظر إلي ما ومن حولي بعين أنني الذي يجب أن يعطي للآخرين، أحيانا أحس بالإرهاق من ذلك، لكن هذه طبيعة لا مفر من التعايش معها.

• س: متي تنبع الخضرة في قلبك؟

• ج ـ حين أنظر لإبنتى «لين» و«لنا» فأحس بأن الحياة جميلة ورائعة تتجلي في هذه البراءة الممزوجة بالحيوية والنظر إلي العالم من عين الحياة.

• س: من الشخص الذي يغرس فيك شتلات الأمل؟

• ج: بالتأكيد هي حبيبتي التي حين أكون بالقرب منها أحس

بأن الغد لابد أن يكون أفضل، وما هو قادم لابد أن يكون أكثر إنسانية من الحاضر.

• س: متي تعزف قيثارة الطبيعة في قلبك؟

• ج: لنأخذ هذا السؤال في حرفيته، فالحقيقة أنني أحس بموسيقي الحياة تتصاعد نغماتها وأنا في شرفة بيتي الصغير المطل علي بحيرة قارون في ريف الفيوم الساحر، هناك في حضن الطبيعة الخضراء، وفي انعكاس الضوء الخافت علي سطح البحيرة المتلألئ بالظلال الخفيفة أحس أنني كل لحظة أبدأ من جديد، وأسمع في روحي أنغاما هادئة تخلصني من التلوث الذي نعيشه في حياتنا المعاصرة.

• س: ما أجمل زهرة في حياتك؟

• ج: هي بالتأكيد ابنتي «لين» و«لنا» اللتين أحس وأنا أراهما تنموان بأنهما بالفعل وردة حياتي.

• س: لمن تهدي باقة نجاحك؟

• ج: لا أعرف مبدئيا ما إذا كنت ناجحا أم لا. لكنني علي الأقل راض تماما عن حياتي. قانع بالبساطة التي أعيشها، وإن كانت هناك باقة لهذا السلام الداخلي فاهديها بالقطع إلي حبيبتي.

• **فصل الصيف:**

• س: هل تؤلمك حرارة الانتظار؟

• ج: حين كنت أضرب مواعيد الغرام كان انتظار قدوم الحبيب يجعل النيران تشتعل في قلبي. وأحس وكأنني دب في قفص يتحرك شوقا للحرية.

• س: هل تلهبك الصراحة الزائدة؟

• ج: دائما ما تمنيت أن تبني جميع الأمور، صغيرها وكبيرها، الشخصي منها والعام علي الصراحة المطلقة، لكن الحياة تصطدمنا بعد ذلك بأن هذه الصراحة ليست مطلوبة، بل تسبب المشاكل، وفي الحقيقة فإن التنازل الكبير الذي قدمته في الحياة هو أنني أقنعت نفسي، علي الرغم من إيماني بالصراحة المطلقة أن هناك أشياء تقال وأشياء لا تقال، حسب الظروف، ويكفي المرء أن يحاول إلي أقصي ما يستطيع أن يكون صريحا دون أن يمس مشاعر الآخرين.

• س: متى تشعر بمداعبة النسمات الباردة وسط قيظ الحياة؟

• ج: حين أجد أن شيئا جميلا قد حدث في هذا العالم المليء بالظلم والقسوة. حين أري حقا يعود إلي صاحبه، حين أري أن العدالة قد طبقت في هذه المسألة أو تلك.

• س: من هو الشخص أو الشيء الذي يحرك فيك أمواج الكراهية؟

• ج: كل ظلم وكل ظالم يحرك في قلبي أمواج الكره، ثم أن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد، فأجدني، كل مرة، أحس بالدهشة لأن هذه الدنيا جميلة علي الرغم من أن فيها ظلم وظلمة، فلا شيء استطاع أن ينزع عن روحي هذه الدهشة الدائمة.

• س: متى قطفت أول ثمار النجاح؟

• ج: حين تحررت من العمل اليومي المكتبي الذي كاد يخنقني وتفرغت للكتابة أحسست بأنني حر لأول مرة وأنني أقطف ثمار أيام وليال من العمل السخيف.

• **فصل الخريف:**

• س: متى تصف الشخص بأنه بلا أوراق؟

• ج: حين تجف روحه ويتحول إلي آلة ميكانيكية يتبع غرائزه العدوانية الباردة، عندئذ أراه كالشجرة الميتة موتة أبدية لا رجعة فيها.

• س: متى تعترف بخريف العمر؟

• ج: إذا كنت قد فهمت السؤال علي محمل المجاز المفترض فإنني أعتقد بأن علي الإنسان أن يجاهد نفسه ليفهم لعبة الزمن، وأن يعي بأنه لا أحد ولا شيء قادر علي إيقافه، وبالتالي فإن علينا أن نستمتع بكل مرحلة من مراحل حياتنا، فلكل من الشباب والكهولة والشيخوخة جمالها الخاص.

• س: ماذا تعني لك هشاشة الأحلام؟

• ج: أن تكون مبنية علي غير أساس عميق. علي مجرد ظن أو تخمين. علي عدم يقين كامل بأن الحلم حق،وأنه سر الحياة.

• س: أحداث اصفرت وسقطت مع أوراق شجر الخريف؟

• ج: كل تلك الأشياء التي شاخت وذبلت، كل تلك الأفكار التي ثبت بطلانها. كل أولئك الأشخاص الذين ثبت عدم أصالتهم.

***

الحياة هي في مكان آخر

لم تتسلط عيك هذه الفكرة؟ لم لا تستطيع التخلص منها علي الرغم من أنك، حين فكرت فيها للحظات: قلت أنها مستحيلة، لا يمكن أن تكون أنت هو الذي يفكر بهذه الطريقة. الفكرة ببساطة أنك تحس بأن الجميع يريدون أن يتسلطوا عليك إذا حسنت نواياهم أو أن يهمشوك.

***

ذهبت إلي المقهى لتحتسي فنجانا من القهوة، وتضيع قليلاً من الوقت حتى يحين موعدك. أحدهم، وهو مجرد شخص عابر، كان يجلس علي الطاولة المجاورة لطاولتك.

هذا الرجل نظر إليك نظرة عابرة، سريعة خاطفة، لكنك وجدتها، في هذه اللحظة، موجهة ضدك: عدواناً علي كرامتك،

علي شخصك المبجل، وجهت أنت بدورك إليه نظرة مضادة، لكن الرجل حمل حقيبته ورحل، بكل بساطة، لأنك لم تكن تعنيه، ولم يكن هو بدوره يقصدك.

قمت إلي موعدك حيث دعوة العشاء التي وجهها إليك صديقك (س)، هناك وجدت مجموعة من الأشخاص، رجالاً ونساءً، أشخاصا من الذين تمتلئ بهم الدنيا، رجال أعمال، صحافيين، مذيعين «ومذيعات» موظفين بيروقراطيين من رتبة مدير ورئيس قسم، رجال ونساء في منتصف العمر (تعلو وجوهم علامات التعب) شرق بهم الحديث وغرب لكنه توقف طويلا أمام محطة «الثقة في النفس» استعرض كل منهم وضعه في هذه الدنيا، بالذات بين مرؤوسيهم، وقال أحدهم:

ـ بنظرة واحدة أستطيع السيطرة علي مائة وتسعة موظفين حين أدخل صباحاً إلي المكتب، فإنني اندفع في اتجاه غرفتي، ولكن عند نقطة معينة من الممر الطويل الخافت الإضاءة ألتفت إلي إحداهن، هي بالذات لأنها الأكثر مراوغة من الجميع، أرمقها بنظرة ساخرة حادة قاتلة، وامضي إلي مكتبي.

قال آخر: الأمر يختلف بالنسبة لي، فأنا اعتقد أن العلاقات الإنسانية يمكن أن تؤدي إلي سيطرة أفضل علي الناس.

وراح يستعرض تاريخه في الأعمال الإنسانية التي مارسها مع موظفيه ليسيطر عليهم: كم مرة زار مريضا منهم، وكيف يقضي

وقتا طويلا وهو يمر علي الموظفين، يربت علي أكتافهم، يبتسم في وجوههم، والهدف: أن يظل ممسكا بزمام المبادرة بين يديه القويتين.

قالت أخري إن مشكلتها أن جميع من حولها، خاصة الخادمة «أم سيد» تتقن ألعابا لا تستطيع مجاراتها فيها، وأنها تحس التعاسة لأنها حين تأتيها من الشمال تجدها من الجنوب، وحين تظهر لها في الشرق، تجدها متجهة ناحية الغرب.

وقال رابع، بدا أكثر كياسة وحكمة: أن الحياة هي هكذا، لعبة بلا نهاية، كلعبة: «أم سيد» وأن الأفضل، حتى لا يجن المرء ويصاب بالخبل، أن يلعب لعبة «المتفرج».

وقالت آخري أن أفضل الحلول جميعا هي أن يبدو المرء في «مظهر» «المتألق»، الذي يهتم بمظهره ويعتني بأناقة ملبسه، فهي، بهذا استطاعت السيطرة علي كل من حولها.

عند هذه المحطة من السهرة تحس بأنك لست من هذا العالم، تحس بالأسى والحزن لأن الناس وصلوا إلي هذا الحد، تحس بأنك تعس وبأنك تلعب وحدك خارج الحلبة: علي جرف هاو علي شاطئ مهجور، تحس بأن هذه اللعبة، التي اسماها أعضاء الحفل لعبة الحياة، ليست لعبتك، وباعتبار انك لست علي هذا القدر من الثقة بالنفس، وبأنك لا تستطيع أن تكون علي هذا القدر من الإنسانية التي تبذلها للسيطرة علي الآخرين. (أو علي الأقل

لكي تكون محبوبا طوال الأربع وعشرين ساعة من الجميع) وبأنك لا تحسن الظهور بالمظهر الأنيق اللازم للتأثير علي من حولك، ولأنك لم تمتلك الحكمة التي تجعلك «منظرا» لا تخرج من فمه إلا «الكلمة الأخيرة» الحاسمة، لأنك لست مؤهلاً لأي من هذه المهام، ولأنك لا تمتلك هذه المواهب، فأنت عاطل.

***

ها هو ذا الحفل قد انتهي وعليك أن تمضي إلي بيتك، فتجد نفسك، وأنت تجلس علي حافة الفراش، عاطلاً بالفعل، «صايع» في عالم احتل فيه كل شخص من حولك مقعداً ودلدل رجليه من فوقه، وراح في ممارسة ما يراه، من أجل أن يحتل مساحة أوسع، ومكانا أعلي، حتى ولو كان قطعة من الصخر الأجرد فوق جبل.

وتقف كالمفزوع لأنك بالفعل وصلت إلي «لحظة التنوير» في المسألة، وصلت إلي حقيقة وضعك، حقيقة انك موجود علي الهامش، وتتذكر حالة الاستنكار التي بدت علي وجه رجل الجمارك حين سألك عن مهنتك فقلت: كاتب قصة، فكرر الرجل السؤال قائلاً: أنا أسألك عن مهنتك!، فارتبكت، فقال: يعني لا تعمل!

***

كاتب قصة؟

شاعر؟

هل هذه مهنة؟

انه لابد أن تكون لك مهنة في هذه الحياة: موظف بيروقراطي، محام، سمسار، صحافي أو مذيع، أما أن تكون شاعراً أو كاتب قصة، فأنت إذن عاطل، هكذا يقول لك الجميع، ومع الزمن تنتقل عدوي هذا القول إلي نفسك وتتعامل معها بهذا الإحساس، ولأنك مصاب بخبل الفن، فأنت لا تستطيع الحياة بدونه، ولكنك تصبح «حساساً» هذه الحساسية التي تجعلك تفكر بأن الجميع يتسلطون عليك، لكن الحقيقة أن مسألة التسلط هذه مسألة أخري، ليست واردة في هذا السياق، إنما أنت تطمح، في داخلك إلي الاطمئنان علي الاعتراف بأن ما تمارسه هو عمل، وعمل مجد وحقيقي يهم الآخرين كما يهمك، وحين يتم هذا، فأنك لن تجد مشاعرك تقودك إلي نفق مظلم تصفه بأنه تسلط، وهو في الحقيقة مجرد ممارسة كل منا لدوره في الحياة حتى ولو كان دوراً تافهاً.

***

جمال حمدان في الراديو

هل يمكن ان يعيش الإنسان لحظة فرح مع لحظة أسي في الوقت نفسه؟

العبد لله ليس «سوبر مان» يأتي بما لم يستطعه الأوائل. لكنني، كنت، ومازالت، كلما وقعت علي اسم «جمال حمدان» أحس بالفرح، والحزن، في اللحظة نفسها.

أحس بالفرح لأن العزلة التي تم دفعه إليها قسرا، منذ أوائل السبعينات، بعد أن وجد انه لا يستطيع العيش في وسط ثقافي يعج بالغربان والأدعياء، هذه العزلة،أدت في النهاية، إلي هذا العمل المجيد،اقصد سفره الضخم «شخصية مصر» بأجزائه الأربعة، ففي النهاية أصبح لدينا مرجع، ومرجع مهم فريد، عن قسمات مصر الجغرافية ـ السياسية، وما يرمي إليه موقعها العبقري من أبعاد أخري، حضارية وثقافية، تدخل في إطار التفاعل الخلاق، والتكامل ذي الأبعاد الإنسانية الذي يؤدي، إذا ما أحسنت قيادته إلي تحضر المنطقة كلها.

وعلي عكس ما يشيعه البعض، من المثبطين للهمم في بلادنا، الذين يدعون أن الأعمال الجادة والعظيمة قليلة القبول، قليلة الانتشار، قليلة التوزيع، بلا جمهور، يثبت لنا جمال حمدان،

بعمله العلمي الجليل، عكس هذا الادعاء.

فهذا السفر الضخم الذي يربو عدد صفحاته علي ثلاثة آلاف صفحة، هو من أكثر الكتب رواجا، وتوزيعا، وتأثيرا، ومناقشة، لا بين المصريين فقط بل في جميع أنحاء العالم العربي، ما تكاد تصدر طبعة له، حتى تنفد، ويعاد طبعه من جديد، مرات ومرات.

الآن، يقوم احد معدي البرامج المجيدين في الراديو المصري، وهو الأستاذ محمد السيد عيد، بإعداد هذا السفر العظيم في حلقات إذاعية، لا أعرف كيف سيكون أمرها في النهاية.

ومع الفرحة الغامرة التي أحسست بها وأنا أعرف هذه المعلومة، تسرب إلي نفسي ما يختلط بها من حزن كلما عرفت خبرا جديدا عن جمال حمدان.

وسبب هذه الحالة الغريبة علي ما أعتقد، هو الخوف من أن يكون مصير هذا السفر المهم، تبسيطاً قد يؤثر علي قيمته، وإن كان الأمل كبيرا في المعد الجاد فتاريخه السابق يقول ذلك.

عرفت من خلال الأشخاص المعدودين الذين كانوا يلتقون بجمال حمدان في عزلته، قبل وفاته، انه كان يعمل علي سفر ضخم آخر، إسمه «جغرافية الإسلام»، وأن هذا العمل لا يقل جهدا عن سفره السابق.

كما عرفت انه كان لديه مشروع آخر عن «شخصية سورية» والآن بعد أن رحل عنا نحن لا نعرف عن هذه المشاريع شيئا.

وأحس مرة أخرى بالفرح والحزن.

الفرح لأن عزلة جمال حمدان قد أثمرت عن هذه الأعمال العظيمة. والحزن لأن هذه العزلة حرمت تلامذته في الجامعة من علمه الغزير، وثقافته العميقة، وشرفه الذي حمله دائما كراية علي جبينه كعالم كبير.

***

الحرية لحاضن الأشجار

تمنيت أن يكون لدي الوقت الفسيح، والمال الكافي للسفر إلي نيوزيلاندا، لا للفسحة، ولا للفرجة، ولا حتى لممارسة هوايتي العزيزة: التسكع. بل للقاء هذا المدرس النيوزيلندي النبيل، والجلوس معه، وسماع قصته، حتى أتمكن من أن أصبح أحد مناصريه الأقوياء، أدافع عنه ما حييت، وأنشر رسالته في ربوع الدنيا ما أمكنني ذلك، وقبل أن أغادره فإنني بلا شك سأحتضنه،وأشد علي يديه، وأعاهده عهداً لا تنفض عراه أن أكون أحد مريديه.

هذا المدرس النيوزيلندي كان موضوع خبر نشرته الصحف منذ أيام للأسف في صفحاتها الداخلية، وبنبرة فيها من السخرية ما حز في نفسي،وفيها من الطرافة، ما جردها من روحها الرفيع، وكان الأولي بهذه الصحف أن تقدر الخبر حق قدره، وتضعه في

مانشتات صفحاتها الأولي.

قال الخبر: دافع مدرس نيوزيلندي اليوم الثلاثاء عن عادته في احتضان الأشجار قائلا أنها عادة لا تؤذي أحداً، وهي قطعا، لا تمت إلي السحر بأي صلة.

وقال «روجر فروست» نائب ناظر مدرسة «موتشيسون» أن اتهامات «جيم أوريغان» رئيس مجلس بلدية «وست كوست» بأن أفعاله هذه من قبيل الشعوذة، مزاعم سخيفة.

وأضاف «فروست»: الناس جميعا تربت علي الحيوانات الأليفة، وأنا أحب أن أحتضن الشجر، وأنا أتعجب من تناول أي شخص لهذه المسألة بقسوة، فهل تدليل الحيوانات الأليفة «شعوذة»؟

وكان رئيس مجلس البلدية المذكور قد قال إن «فروست» يلقن تلاميذه دروساً عن الأشجار التي يحدثها ويحتضنها وينتظر سماع ردودها.

ودافع «فروست» من ناحية أخري عن حريته في احتضان الأشجار وقال انه يسعي، من وراء ذلك، إلي زيادة وعي الطلبة بالبيئة المحيطة بهم.

انتهي الخبر.

ولا تعليق لنا إلا أن نهتف مع كل الذين يتألمون الآن وهم يرون الخضرة تنحسر، ومجازر الأشجار تعمل فيها تمزيقاً وتحطيماً:

ألا ما أنبلها من غاية، وخسئ أمثال رئيس مجلس بلدية «وست كوست» هذا الذي بدلا من أن يجعل هذا المدرس النبيل، عاشق الأشجار، مثالا يحتذي، ويكافئه، وقف في طريقه واتهمه بأبشع التهم، والدعوة لكل محب للأشجار والإنسانية للهتاف معنا: الحرية لحاضن الأشجار.

***

الحب الشرقي بالتوابل الملتهبة

لم أر فيلماً، أو مسرحية، أو مسلسلاً تلفزيونياً، عربياً أو أجنبياً، يتناول العلاقة بين الرجل والمرأة في الشرق إلا وجدت توابل المشاعر الملتهبة البلهاء، والغيرة القاتلة، والمؤامرة التي لا تنتهي إلا بالموت، تناقضات لا تحصي، كلها تؤكد علي أن الرجل الشرقي يخلو من الإنسانية، والعقل، والحنو، وجمال الروح.

أما في ما يخص المرأة الشرقية فحدث ولا حرج.

كأننا كائنات هبطت من الفضاء، لا تحكمها إلا الغرائز المتوحشة، وكأن الآخر هو «الإنسان» الحقيقي، المثالي، الخالي من كل السلبيات، والشوائب: الإنسان الكامل المتكامل.

للأسف، هم يصورون هذا، ويؤكدون عليه، ونحن أيضا.

انظر إلي 90 في المائة من مسلسلاتنا العربية، و 90 في المائة

من أفلامنا السينمائية، و 90 في المائة من أشعار الحب والغرام، و90 في المائة من الروايات السريعة، و 90 في المائة من القصص الصحافية، ستجد هذا الغرام الملتهب، السطحي، الذي تراق فيه الدماء بلا مبرر، وتتحطم القلوب دون سبب، وتسيل الدموع بلا حساب، ومن هنا يغرف الآخرون ويعبئون «النظريات»، والكتب،والشرائط،ويلهجون بالرثاء لحالنا. فهل بعدما فعلناه بأنفسنا، نريد من الآخرين أن يكونوا أكثر إنصافا لنا، هل نطلب منهم أن يجهدوا أنفسهم ليروا الجانب الآخر من الصورة، فيتجهون إلي أفلامنا الراقية القليلة، ومسلسلاتنا الصادقة، ورواياتنا الأدبية التي تقدم كل يوم عن الآخر مستوي يقف بجوار المستويات المتقدمة في العالم كله، وشعرنا الذي يكتوي بنار العمادة المقدسة، وموسيقانا ذات الخصائص المميزة.

هل نريد من الآخر أن يتعب نفسه ويبحث عن فننا العظيم، ونحن وبأيدينا، نضعه علي الرف، أو في أحسن الأحوال، علي هامش حياتنا الثقافية والفنية؟

نعتقد أننا إذا أردنا أن يعرف «الآخر» الجانب الايجابي من نتاجنا، أن نراه ونحترمه نحن أولا: أن نخرجه من الظل إلي الضوء، أن ندفع به إلي صدارة الصورة، وان نجعل جمهورنا نفسه يعتاده فيحبه، فليس هناك شكل فني غير قابل للتواصل مع الجمهور، إذا اعتاد عليه، وهنا اضرب مثلا لا تنساه الذاكرة، وهو

كيف أن القصائد الراقية (الصعبة) التي كانت أم كلثوم تغنيها، كنت أسمعها من فم أمي ترددها بلا خجل، وتحفظها عن ظهر قلب، وهي المرأة البسيطة التي لم تنل من الثقافة أو التعليم إلا النذر اليسير.

وهكذا نشرت أم كلثوم، بما لها من قوة انتشار طاغية، هذا الفن الرفيع.

كذلك يمكننا أن نقول بأن كل ما غناه محمد عبد الوهاب من قصائد من الشعر الكلاسيكي ليست سهلة علي الإطلاق، حتى عل المتخصصين، لكنها وجدت طريقها لرجل الشارع الأمي البسيط، لأن هذه القصائد أذيعت علي أوسع نطاق وبشكل متكرر فاعتادها الناس.

إذن، قبل أن ندين «الآخر» وموقفه من الجانب المشرق الجاد والحقيقي من حياتنا وفننا،علينا أولا أن نبرز نحن هذا الجانب، ونؤكد عليه، ونقدمه للناس علي أوسع نطاق، عندئذ تختفي، ضمن ما سيختفي، صورة العاشق العربي الولهان «الأهطل» الغبي، الباحث عن الغرائز بأي ثمن، لتظهر صورة العربي الفارس النبيل، حتى في عشقه، العربي الإنسان الذي يحب كما يحب كل الناس، ويتألم كما يتألم البشر، والذي يتذوق الفن العظيم كما يتذوقه أي إنسان متحضر في هذا العالم الغريب.

***

زهور لأحمد بهاء الدين

عملت مع أحمد بهاء الدين أربعة أشهر في مجلة «الشموع» التي كانت تحت رئاسة تحريره، تحفة فنية، ومنبرا للفكر الحر، والفن الجميل، والذوق الرفيع.

لم يكن «الأستاذ بهاء» كما ندعوه جميعا، معشر مريديه وأحبائه، قد تعرف بي قبلها، لكنني حين التقيته لأول مرة فوجئت بقوله: كنت أظنك اكبر من هذا بكثير، لقد نقل لي زياد (ابنه وصاحبي العزيز) انطباعا، وما قرأته لك أكد هذا الانطباع بأنك رجل في الخمسين، أو علي الأقل في الخامسة والأربعين، المهم هيا نعمل.

وبالفعل، بدأنا العمل، وكانت هذه الفترة القصيرة علاوة علي لقاءات استمرت سنوات حتى مرض الأستاذ، أو بالأحرى كما أرجح،رفض هذا الذي يجري فتمدد في فراشه، بعيدا عن وساخات هذا العالم المنحط، كانت هذه الفترة مليئة بالعبر والدروس.

• أولا فوجئت، والرجل لم يعد صغيرا بعد، بهذه القدرة العجيبة علي العمل، ولا أقول حب العمل لأن هذا أوضح من الشمس، نعم، فوجئت انه، وعلي الرغم من انه آنذاك

كان مطالبا كل طلعة شمس بعمودين يوميين، ومقال أسبوعي، وعدة محاضرات وسفرية أو أكثر كل شهر، واستشارات ومقابلة صحافية واحدة علي الأقل، كل طلعة نهار، علي الرغم من كل ذلك فقد كان يصر علي قراءة مادة المجلة كلها، الخبر الصغير قبل التحقيق الخطير.

• فوجئت وأنا الذي كنت وقتها شابا عفيا، بهذه القدرة علي «سهر المكاتب» و«شغل الموضوعات» واحدا بعد الآخر، حتى وكأن الرجل يأكلها أكلا، لا بل وهذه القدرة العجيبة علي وضع اللمسة السحرية علي موضوع معتم، غبي، فإذا بمقدمة صغيرة،وعدة عناوين ذكية، ولمستين أو ثلاث، وعنوان رئيسي جميل، تجعل الموضوع يحيا من العدم، وكنت أظن أن الأستاذ بهاء «أستاذ بالفعل» مثل كل هؤلاء الأساتذة الذين يحسنون إلقاء تبعة إعادة أحياء الموضوعات علي الشغيلة، رجال «المطبخ» (الدسك) أو الجنود المجهولين، أكثر المواهب أهمية في صحافتنا الغراء.

لكن علي الرغم من أهمية ما سلف إلا انه ليس مربط الفرس في الكلام، إنما مربط الفرس هو ما لمسته عن قرب لا أقول، من خلق هذا الكاتب الإنسان، بل روحه الرفيعة، وإنسانيته الفذة.

ذات يوم كان عليّ أن أتأخر في عملي بالمجلة، لأنه كان لابد من «تقفيل» العدد، وكان لابد من سهرة طويلة، وحين علم

الأستاذ بذلك، وكان مقر المجلة في أطراف القاهرة، إذا به، ودون علم مني، ينتظرني أكثر من ساعة جالسا، حتى يحملني معه إلي بيتي، لأنه لم يكن لدي سيارة، وخشي أن يتركني، مع انه كان بإمكاني أن أتصرف، وحين وجدته في الصالة، فوجئت، وكدت اصرخ وقلت: يا سيدي كان بإمكانك أن تذهب، وكان بإمكاني أن أجد حلا، فالوقت متأخر جدا. لكنه ابتسم ابتسامته العذبة الذكية وقال: تعال. فالصحبة جميلة.

نعم، أيها المعلم الكبير، كانت صحبتك دائما جميلة، فقد افتقدناك ونحن نجلس إليك، ونتعلم، جمال الروح، قبل جمال الكتابة.

لذلك لم أتعجب، في ذلك الوقت، حين فوجئت بسيدة، رفضت ذكر اسمها، كانت تأتي كل صباح (ومنذ صدور العدد الأول) إلي مقر المجلة، وتترك علي المدخل، صحبة جميلة من الزهور (ومعها تحية من قارئة معجبة) لأحمد بهاء الدين.

***

نسق الحياة داخل ورشة الكتابة

ذهبت منذ فترة إلي بلد غربي ضيفا علي إحدى الجامعات للمشاركة في وقائع ورشة أدبية شارك فيها نحوا من ثلاثين كاتباً من الشرق والغرب، وفي إحدى الليالي تجمع في غرفتي عدد من

الكتاب العرب الآخرين الذين كانوا يشاركون في هذا المنتدى.

أثار أحدنا الكلام حول قيمة الوقت، حتى بالنسبة لنا نحن المشتغلين بالإبداع، وقيمته بالنسبة للخواجة، وتفرع الكلام حتى وصل إلي كل الحال، وكيف أن الخواجة من هؤلاء، حتى ولو كان يتمتع بنصف موهبة، يمتلك القدرة علي تنمية إمكاناته، ويحافظ عليها، لا يبددها، ويستطيع أن يرتب حاله حتى يهيئ الجو لعمله، ويقدر علي استغلال كل دقيقة وثانية في يومه لا يذهب إلا بميعاد، ولا يعود إلا بالمفيد، إذا دخلت غرفة عمله وجدت كل شيء في مكانه، حتى أكثرهم بوهيمية تجد هذه اللمسة واضحة في حياته، وتلك القدرة متوفرة، فلا شيء يحدث عبثاً، ولا شيء مجاني.

زعم أحدنا أن المسألة تكمن في التربية التي تربينا عليها، وزعم آخر أن الجو العام الذي نعيشه في بلادنا هو السبب، وقال ثالث أن هناك نظاماً ونسقاً في كل الحياة من حوله، وهو لا يستطيع الخروج عن هذا النسق، وقال رابع إن السبب يكمن في أنه يحس بجدوى ما يقوم به، وهذه الجدوى قال لا فض فوه، تترجم علي الفور علي هيئة وضعية عالية يعترف مجتمعه له بها، وبالتالي فإنه يوفر له حياة كريمة، تستمد قيمتها من عمله نفسه، لا من كونه منتمياً إلي قوم، أو حزب، أو تيار.

الآن، قد مر وقت علي هذا الكلام، وأجد الأمر مطروحاً علي

أوسع نطاق في حياتنا كلها، وأعتقد أننا لو استطعنا الوصول إلي نسق حاكم لحياتنا كمجتمعات، لأمكن للمبدعين من أبنائه، أن يمتلكوا هذا النسق، في حياتهم الخاصة، وفي فعلهم العام، والأهم في تقديري،أن يكون هذا النسق نابعا من ذواتنا، وبناء علي ما نريد فعلا، وما نراه بالذات، مما نحس بجدواه، وما نري أفضليته، وحين نصل إلي هذه الدرجة العالية من الصدق، نكون قد وضعنا أقدامنا علي الطريق الصحيح، طريقنا الخاص المميز الذي يجعل الآخرين بدورهم ينظرون إلينا علي الأقل، كما يتطلعون إلي القادم من اليابان أو القادم من هونغ كونغ حتى.

فالمسألة ليست مسألة الغرب أو الشرق، المسالة هي مسألة نسق للحياة، فما هو نسق حياتنا؟!

***

تربية المستمعين علي السطح

روي طرفا من سيرته بعض ظرفاء أدباء مقاهي القاهرة من الحرافيش فقالوا: انه لما ذهب ذات يوم إلي المنتديات التي اعتاد الذهاب إليها ليتكلم، أو بالأحرى ليجد مستمعين، فلم يجد أحداً يستمع إليه، قرر أن «يربي» جماعة من المستمعين الصغار علي سطح بيته، مع البط والدجاج، ليأخذهم معه في كل مكان يذهب إليه، ذلك طبعا،بعد أن أعيته حيلة ضمان أن يجد مستمعين،

في كل وقت، وكل مكان، فهو الرجل الراديو الذي لا يمكن أن تكتمل مقومات وجوده إلا بوجود الطرف الآخر: المستمع الكريم.

لم اضحك في الحقيقة علي هذه الرواية التي وجدها البعض خفيفة الدم، فضحك عليها، بل أخذت الموضوع مأخذ الجد، وقلت لابد لي أولا حين ألتقيه أن أعبر له عن الإعجاب باختراعه الجديد، وما يقضي به واجبي الآن، وهذا هو الأهم، هو أن أسجل له اختراعه باسمه من جهة،ومن جهة آخري أن أقوم بدعوة كل من يجد نفسه حيران أمام مشكلة المستمعين، إلي توجيهه لهذا الحل، فهو علي كل حال، أرخص الحلول، واقلها تكلفة.

فأنت، أيها الرجل الراديو، لا يمكنك أن تضمن وجود مستمعين منصتين لا يناقشون ولا يعترضون ولا يقولون إلا: موافقين،موافقين، في كل وقت. إن وجدتهم في الصباح، في أحد المقاهي، وقد «زوغوا» من أعمالهم، فأنك لا تضمن وجودهم في المساء «مزوغين» من زوجاتهم، وإن وجدت بعضهم في البيت، وهذا بالذات غير مضمون الآن بعد أن انتشرت ظاهرة حق كل أفراد الأسرة في الكلام، فإنك لا يمكن أن تضمن وجودهم في النادي، وإن وجدتهم في النادي، لا يمكن أن تضمن وجودهم في «التاكسي» وإن وجدتهم في التاكسي، لا تضمن وجودهم في المطعم، وهكذا دواليك.

لذا، فإنني أنصحك، يا من تري نفسك من صنف الرجل الراديو، أن تلجأ إلي هذا الحل الحاسم، وتربي مجموعة مستمعين صغار، علي سطح بيتك، أو حديقتك، أو حتى في الشرفة، أو تحت السرير، وتصبح بعد ذلك المسألة سهلة، لأنك ستحتاج فقط إلي «قفص» صغير، تدفعهم داخله حين تقرر الخروج إلي أي مكان، وحين تجلس في المقهى مثلا، تخرجهم من القفص، وتجلسهم حولك، و«هات يا رغي» ولأنهم «تبعك» ومن صنع يدك، فأنك ستضمن، لا أن يصغوا إليك بإنصات واستغراق فقط، بل وأيضاً، ستضمن أن يهزوا الرؤوس بعد كل جملة قائلين: موافقون.. موافقون..

وشكرا للرجل الراديو علي اختراعه الجميل.

***

قضية الكاتب والسباك

هذه قضية مهمة أعرض لها هنا بكل الجدية و«العبوس» فالحقيقة أن الأخوة الكتاب، صدعوا رؤوسنا، ومنذ بداية القرن، بالكلام فيها، ما أن تدخل ناديا أدبيا، إلا وتجدهم يلغطون بها، وما أن تعرج علي أحد مقاهيهم حتى تجدهم يناقشونها، وما أن تلبي دعوة أحدهم لحفل غير بريء، أو جلسة بريئة، إلا وتجدهم، بدلا من أن يناقشوا ما هو المفروض أن يناقشوه من قضايا «بنيوية»

و«تفكيكية» من قبيل «التناص» أو «التماهي» أو «الفضاءات الفنية» بدلا من مناقشة هذه الأمور «العويصة» نجدهم يهربون إلي قضية «السباكين» ويبدو أنها تجد في نفوسهم هوي وغرض، وهم يعتبرونها قضيتهم الأولي.

ما هو الموضوع؟

الموضوع ببساطة، وبعد اختياره بمقياس «التماهي»، وخبطه علي سندان «التناص»، ووزنه بميزان «التفكيكية»، يتعلق بحقد دفين في نفوسهم علي ما وصل إليه حال السباكين من وضع مميز «يبز» كل وضع، وما وصل إليه وضعهم، طبعا.

كيف؟

فلنأخذها بالكلمة.

فالمفروض أن الكتاب يعملون بالكتابة، والكتابة هي مجموعة كلمات، لكن ما حدث أيضا أن السباكين أصبحوا يعملون بالكلمات، وليس هذا مربط الفرس، إنما مربطه، أن ثمن الكلمة عند الكاتب أصبح في حده الأعلى الغالي المرتفع جدا، لا يزيد عن 3 دولارات علي الأكثر.

أما كلمة مثل «صامولة» أو «صنبور» أو «جلبة» فأصبحت تساوي ما يقرب من 7 دولارات، أي زيادة إلي الضعف بالدولار.

هذه هي القضية، وهذا هو مثار الحقد والحسد الذي يصبه الكتاب علي السباكين، وهو ما صدعونا به منذ بداية القرن،ودون توقف.

والحقيقة أنني اضطررت للتعبير عن رأيي بكل صراحة وموضوعية، وهو للأسف، رأي مضاد لكل آراء الكتاب الذين التقيت بهم في كل المقاهي والنوادي والحفلات.

قلت: أيها الزملاء والأصدقاء أرجو أن تناقشوا الموضوع بموضوعية، ودون تحيز.

أولا قارنوا بين ما تفيدون به البشرية وما يفيدها به الأخوة السباكين.

وعلي سبيل المثال لا الحصر، نفترض أن الواحد منكم ألف كتابا في حجم الأغاني مكون من 22 جزءا، هل هذا الكتاب، علي طوله، يمكن أن يصل في أهميته إلي درجة أهمية إصلاح ماسورة مجاري، هل يصل في خطورته إلي درجة خطورة منع تسرب مياه الشرب من «الحنفية» بعد تغيير جلبتها، هل تستطيع البشرية أن تعيش بدون مواسير مجاري سالكة؟.

طبعا الإجابة بالنفي، والآن أسألكم ماذا سيجري لو أن البشرية لم تقع علي أعمال شكسبير، أو لو أن الأصفهاني لم يؤلف الأغاني؟

الإجابة بسيطة جدا: لا شيء.

إذن بالله عليكم كفوا عن اللغط في الموضوع، وخلو «الطابق» مستور، و«بلاها» فضائح.

***

الرقيب هو في الداخل

أصدقكم القول إنني لم أعد اهتم بالرقيب الرسمي الذي نعرفه جميعا، لأن هناك حلا بسيطا لهذه المشكلة، ألا أتعامل معه، حتى ولو اقتضي الأمر ألا أنشر ما أكتب، وأتركه للزمن.

لكن المشكلة الملحة الآن، بالنسبة لي، واعتقد بالنسبة للكثير من الزملاء المصابين بداء الكتابة (علي الأقل هكذا ألمس من حواراتي مع العديد منهم) أقول أن المشكلة هي الآن في الرقيب الداخلي، الذي نما وكبر، وترعرع داخلنا مع الزمن حتى أصبح مقيما ممسكا بساطور ضخم ينقض به علي كل فكرة جريئة، وكل رأي نابه، وكل جملة متحررة.

هذا الرقيب ساهم في نموه داخلنا، ما أصبحت عليه مهنة الكتابة من وضع مهزوز، بعد أن اكتظت الساحة بالأدعياء، والمنافقين، وقليلي الموهبة الذين تبوءوا مقاعد الصدارة في غفلة من الزمن.

هذا الرقيب تغذيه الحيرة الساخنة أمام مشكلة تتفاقم أبعادها يوما بعد الآخر، فالعالم أوشك أن يتخلص من مشكلة الأمية، ونحن للأسف، نتراجع للخلف، أي: تزداد الأمية عندنا، والأرقام شاهدة علي ذلك حتى ليخجل المرء من ذكرها.

هذا الرقيب ينمو ويترعرع في ظل إرهاب تمارسه جيوش الظلام التي تغذيها جهات معروفة، وأخري خفية، لكنها تنتشر كل يوم عن الآخر، حتى أصبح من الطبيعي أن يخوض صاحب القلم المستنير معارك يومية سخيفة ضد ممثلي جيش الظلام، في العمل، وفي الطريق، في البيت وفي الغيط،ومع أقرب الناس إليك، أخوك أو ابنك، خالتك أو حتى زوجتك.

هذا الرقيب يغذيه وعي جاهل انتشر في قلب أجهزة الإعلام، حتى اكتسب الجهل والتخلف مساحات متزايدة داخل هذه الأجهزة، خاصة منها التلفزيون، أخطر الوسائل التي تخاطب أعرض مساحة من الناس.

هذا الرقيب تغذيه أعداد هائلة من الكتب والمجلات والصحف الصفراء الداعية لأفكار جيش الظلام، حتى غدا طبيعيا أن تري مانشيتات صحف وعناوين أغلفة مجلات تطالب برقبة نجيب محفوظ، أو تاريخ يوسف إدريس، أو قلب أحمد بهاء الدين.

هذا الرقيب هو مصدر عذابنا، ومدعاة حزننا، ودافعنا لصمت طويل أحيانا، وإنني وان كنت لا أجرؤ علي قتل دجاجة، فإنني أتمني أن أقتله بكل برود.

***

الخوف من الإعتراف

سألني أحدهم يوما: لماذا يخلو الأدب العربي من « أدب الإعتراف «؟ فلم أستطع الإجابة.

لأنه ليس هناك أحد يستطيع الإقتراح علي فنان أن ينتج نوعا من الفن، وتأتي النتيجة مرضية، لكنني وجدت الإجابة متجسدة أمامي ذات مساء حين طلب أحد الأصدقاء، وكنا مجموعة من الكتاب والفنانين نجلس في منزل أحدنا، أن يعترف كل واحد منا بأهم خطأ ارتكبه في حياته، وحين كان الدور يأتي علي أحدنا، تحس وكأن رعب الدنيا كلها قد ركبه في لحظة واحدة، وقد أحسست أنا نفسي بهذا الرعب المقيم، ولم يهدأ الجو بيننا إلا بعد أن تحول الكلام، من اعترافاتنا، إلي تحليل الأسباب التي تقف وراء خوفنا جميعا من مسألة «البوح» هذه، علي الرغم من أننا في مناسبات لا تنقطع كنا نتفاخر بأننا أحرار، وبأننا قادرون علي ما لم يستطعه الأوائل.

وعلي الرغم من أنني ما زلت أحتفظ بما قيل في ذاكرتي، إلا انه بدا لي لحظتها أن أهم سبب لهذا الرعب الذي انتابنا واحدا بعد الآخر، وهو في بؤرة الاختبار، تم تجاهله منا جميعا بطريقة مراوغة، علي الرغم من أنني كنت أحس بأننا جميعا نعرفه، وأننا

جميعا نحاول بكل إمكانيات لذائقة اللسان التي يتمتع بها الكتاب عادة، أن نلف وندور حوله، لكن أحدا لم يجرؤ علي الاقتراب منه، أو حتى، من فضائه البعيد.

لقد تحدثنا وأفضنا في «أسلوب التربية» التي نشأنا عليها في بيوتنا، ومدارسنا، ومجتمعاتنا،وقلنا إن هذا الأسلوب المحافظ، كان يعمل دائما علي دفعنا إلي أن نبدو في أحسن صورة أمام الآخرين، وهو ما يعني بالضرورة، أن نحاول إخفاء عيوبنا.

لقد تحدثنا وأفضنا في قضية التسلط الأبوي الذي عشناه صغارا علي أيدي أهالينا، وكبارا علي أيدي قياداتنا، وقلنا إن مجتمعا أبويا لابد ينتج مثل هذا الشخص الخانع، غير القادر علي الإنعتاق من جاذبية الأب المسيطر، ويظل يدور في فلكه، حتى يحتل مكانه، فيبدأ هو بدوره في ممارسة التقليد نفسه، وهكذا بلا فكاك.

لقد تحدثنا وأفضنا عن قوة التقاليد التي تدفعنا داخل شباكها المحكمة، وقلنا إن هذه الشباك مغزولة من تراكمات قرون وقرون من القوالب الثابتة، في كل شيء، في حياتنا وفي أعمالنا، الأمر الذي تسرب إلي فنوننا وطرق أدائنا، حتى غدا الخروج عن هذه القوالب أمرا مستنكرا، وبالتالي أصبح أي تجريب، أو كسر للمألوف، هو بمثابة خروج علي الجماعة، في الوقت الذي هو فيه، بالفهم الصحيح، إضافة لها، وتجديد لروحها، وإغناء

لمحتواها، وكسر الملل لابد يصيبنا من ممارسة أنماط واحدة، وتعود لأشكال واحدة، وحتى إذا تجرأ احدنا، وقام بمغامرة تخرج عن المألوف وضعناه في قالب «التجريب» القاتل.

أن تشير إلي أحدهم قائلا: هذا مجرب، معناه انه لا يزال في مرحلة عدم النضج، التي ولابد أن يتحول بعدها إلي النضج ليعود إلي القوالب السلفية القديمة، ويعتبر مرحلة تجريبه مجرد عبث شاب غر، وهو بهذه الطريقة، وبهذه الطريقة وحدها يدخل في مرحلة «الاعتماد» ويتم الاعتراف به علي مقصلة التكرار، بعد أن تم وضعه علي سرير «بروكوست».

وبروكست هذا كان عنده سرير لقياس الناس، فإما أن تكون أطول من مساحة السرير فيقص الزائد منك، وإما أن تكون أقصر، فيمطك، وفي كلتا الحالتين أنت هالك لا محالة.

أما السبب الكبير الذي لم يجرؤ أحدنا علي الاقتراب منه في تلك السهرة، فهو أننا لم نجد يوما من قال لنا: المغامرة أهم فضائل الإنسان، لأن ممارستها تعني تربيتنا علي نزعة الاستقلال، لأنها تعني اكتساب قيمة كبري من قيم الحياة: الشجاعة من أجل هدف هو نبيل في حد ذاته. لأنه يؤدي إلي استشراف أفق جديد، وعطاء آخر، وتنوع لو فهمناه علي أساسه الصحيح لوجدناه خروج بنا مما نحن فيه من تعاسة تؤدي بدورها لخلاصنا من انفصام الشخصية الذي نعيشه ونمارسه في كل شيء، الأمر الذي

لابد يجعلنا صادقين مع أنفسنا، ومع الآخرين، وبالتالي نقضي علي أخطائنا في المهد: قبل أن تستفحل ونظن واهمين أنها الأصل، في الوقت الذي هي فيه العارض في هذه الحياة الفانية.

واعتقد لو أننا وصلنا لهذه الحالة من «الاعتراف» لجاءنا ميلاد «أدب الاعتراف» بتلقائية، ودون أي افتعال.

***

آلة بشرية اسمها «المكذاب»

بسببه بحثنا أنا والصديق الكاتب الروائي واللغوي الكبير سليمان فياض مطولا في الصفة (أو الاسم) المناسب لأخينا الذي لا يكف عن اختلاق الأفكار، والأقوال، والأفعال، وحتى الأشخاص، (أي والله الأشخاص يختلقهم) فلم نجد سوي هذه الكلمة: المكذاب، وهي اسم آلة، آلة الكذب التي تشتغل ليل نهار بلا انقطاع، بلا كلل أو ملل.

وحين تأملنا حالته المزرية وجدنا أن مسألة الكذب في نفسه ليست مسألة استثنائية، عابرة، مؤقتة، يلجأ إليها،كما قد نلجأ إليها جميعا إذا وجدنا نفسنا في مأزق محرج، بل هي مسألة مبدأ، مسألة أصيلة، جزء من بلازما الدم في عروقه، إلهام يتلبسه ليل نهار، يلتصق بجلده، أحد عناصر تكوينه الروحي، أحد صفات نفسه التواقة، عقيدة يؤمن بها كما التقي الورع، «وجد» يعيشه

كما كبار المتصوفة، باختصار: هي القاعدة وهي الدستور الذي لا يستطيع إلا الالتزام الحرفي بكل بنوده، حين تم ضبطه متلبسا بكذبة أوقعت خراباً بين ست منظمات دولية، وسبعة بيوت خبرة، وعشرة أحزاب سياسية، وقف صارخا وقال لا فض فوه: يا ناس، المسألة ليست مسألة كذبة، المسألة مسألة حياة أو موت. انتم تريدون قتلي، كيف يمكنني أن أعيش دون أن أمارس ذاتي؟

ساعتها، أصدقكم القول، أحسست بأنني أعشق هذه الروح الوثابة، فحملت كل أوراقي وأقلامي مدافعاً عنه، وأصدرت بيانا صاخبا وزعته علي كل من يعنيهم الأمر سجلت فيه، لا فقط دفاعاً عنه باعتباره أصدق البشر قاطبة، بل دعوت كل من تعنيهم آلام البشرية المعذبة، أن يقفوا معه، ويدينوا أعضاء ورؤساء المنظمات وخبراء البيوت، الذين أرادوا اضطهاده بمنعه من ممارسة حقه الإنساني، بل إنني بالفعل كتبت إلي كل منظمات حقوق الإنسان أدعوهم لإرسال مندوبين للاطمئنان إلي حالته النفسية والصحية، وإرسال صناديق الأدوية وجوالات الدقيق، وكراتين البروتين إليه بسرعة، والتأكد من انه لم يتعرض لتعذيب، بل وطالبتهم بتوكيل أشهر المحامين لإطلاق حريته، وإعادته إلي موقعه الطبيعي، ليمارس ما أسماه هو بلسانه المفوه حقه التاريخي، أو ما أسميته أنا نفسي حقه الإنساني في الوجود فقد كنت، ولا زلت، معجباً به كما لم أعجب بأي إنسان آخر، بل إن إعجابي به فاق في أصالته،

وصدقه، إعجابي بالسيدة المصون حرمنا، وأم عيالنا السبعة.

فكيف بالله عليكم لا تعجب البشرية بمنحة إلهية كهذه؟ بحالة مثالية من الصدق المطلق، كيف لا نعجب بشخص صاحب مبدأ، لم يتحول عنه قيد أنملة ولا في يقظته أو نومه، في الوقت الذي غيرت أمم من مبادئها، وأحزاب من خطها السياسي، وقادة من ولائهم لأوطانهم؟

بل إنني أعود اليوم للمطالبة بصرف «مكذاب» مثله، بشرط أن يكون من نفس النوعية الفريدة، لكل قارة، بل لكل أمة، لا، بل لكل بيت، فاعتقد انه عندئذ، وعندئذ فقط ستعرف البشرية المصير الذي هي سائرة إليه، وقبل أن تلقي هذا المصير بقرون وقرون.

• كيف لا والرجل تعرض للضرب والطعن و«التقريص» في كل جزء من جسده، حتى لم يعد به شبر إلا وبه طعنة رمح، أو شكة سيف؟

• كيف لا والرجل تعرض للرفد من كل الوظائف التي شغلها، ولم يحد عن مبدئه مضحيا بلقمة عيشه؟

• كيف لا وقد تحمل الوحدة وترك زوجته وأولاده للبيت الذي يضمهم معه، بل تركوا عش الزوجية حين انبلاج الفجر، كما تركوا له فيه الجمل بما حمل؟

• كيف لا والرجل يتحمل كل دقيقة، وكل لحظة، وكل يوم

ألم الصمت الذي يحل بالمكان حين يدخله، سواء كان مقهى، أو نادياً، أو مكتباً، أو حتى محطة أوتوبيس؟

• أقسم بشرفي أنني أحبه حبا لا شريك لإنس أو جن فيه، معجب إعجابا لا يباريه فيه لا صوت أم كلثوم، ولا شعر المتنبي، ولا رقص نجوى فؤاد وهي في عزها، وقد ازددت إعجابا وهياماً به لأنه استطاع، منذ أسبوع أن يحتل مكانه الطبيعي الذي يستحقه في وكالة أنباء عالمية كرئيس لقسم الأخبار، مهمته أن يمد صحف العالم بالمعلومات الدقيقة المأخوذة عن مصادرها الأصلية: ومن يومها أحسست بأنه لا يصح إلا الصحيح.

***

« أبو العريف» : أصداء البطل الشعبي

يسألونك عن «أبو العريف» فقل انه شخصية فلكلورية تجدها ـ علي الأقل ـ في ست بلاد عربية تصادف أن زارها كاتب هذه السطور، تقريبا، بالاسم نفسه، وغالبا بالصفات نفسها.

هذه الشخصية تحمّل، كما يحمّل «جحا» الكثير من الحكايا ذات العبر التي تقصد إلي إظهار مثل فيه الكثير من الحكمة المبنية علي خبرات عميقة لشعوب منطقتنا.

لا أعرف ما إذا كانت هذه الشخصية موجودة في بلاد أخري سوي بلادنا، لكن الملفت انك تجدها في الكويت بالملامح

نفسها والاسم نفسه الذي تجده في مصر والمغرب وعمان.

حكاياتها العديدة تسخر من ذلك الشخص المتعالم المدعي الذي يعرف في كل شيء.

إذا حدثته عن الزواج فإنه خبير به وبمشاكله، بل ويضيف من عنده خبراته العديدة عن النساء وأشكالهن وألوانهن وصفاتهن ومميزات كل واحدة منهن، أي، من هنا فإنه «زير نساء» لا يشق له غبار.

إذا جاءت سيرة الأحوال العامة فإنه يعرف كل الوزراء والسفراء وما يجري في الكواليس، فهو «يتغدي» مع النجم الفلاني، و«يتعشي» مع الشخصية العلانية، ومن فرط أكاذيبه، فإنه يسرد لك تفاصيل وحكايات لا أول لها من آخر.

لكن الحكمة الشعبية تضيف في نهاية كل قصة عبرة لمن يعتبر.

***

القصة التالية مثلا، وجدتها مكررة، تقريبا بحذافيرها، في عدة بلاد عربية، من ناحية المعني وإن كانت التفاصيل مختلفة.

القصة تقول إن فلاحا وقع في مشكلة إذ أن بقرته مدت رقبتها في الزير لتشرب، فانحشرت، حاول الفلاح إخراجها فلم يستطع، وأشار الجيران عليه، بالذهاب إلي «أبي العريف» لطلب العون، فإذا بالأخير وبكل صلف طلب أن يأتيه الفلاح بجمل ليركبه، لأنه

لا يحب المشي علي قدميه،فجاءه بجمل مشي به حتى وصل إلي البيت، وهناك رفض النزول من الجمل حتى يزيل الفلاح الجدار لينزل بجوار المشكلة، لأن أبو العريف لا يحب النزول من الجمل إلا بجوار المشكلة، فهدم الفلاح الجدار حتى تمكن أبو العريف من دخول البيت ونزل بجوار البقرة المسكينة، وهنا راح يتطلع لأعلي وهو يفكر ويفكر.

وما هي إلا لحظات حتى طلب من الفلاح أن يأتيه بقادوم وسكين، جاء الفلاح بالقادوم والسكين، فأمسك أبو العريف بالسكين وقطع رأس البقرة لتسقط في الزير، ثم كسر الزير بالقادوم ليخرج رأس البقرة، ثم انه راح يصرخ، في وجه الفلاح المسكين:

ـ لا أعرف ماذا كنت ستفعل بدوني؟

فها هو ذا أبو العريف.

هدم البيت، وذبح البقرة، وكسر الزير، ثم راح يفاخر بالحل العبقري الذي خرب به بيت الفلاح المسكين .

***

نظرية الرجل الصغير

مقالب الموظفين الصغار مع المسئولين الكبار، وبالعكس، عديدة ومتنوعة، وأغلبها دمه خفيف يجعلك ترتمي علي قفاك

من شدة الضحك، أو البكاء.

لكن بعضها ينقلب بالصدفة أو بمشيئة القدر إلي مأساة تهز القلوب والعقول وبعضها يشيب لهوله الولدان.

وإذا كانت هذه المقالب أشكالا وأنواعا فإن هناك نوعا منها يصب في قائمة النفاق والإدعاء والكذب، ومنها حوادث يعرفها كاتب هذه السطور عن قرب وبعضها سمعه ممن لا يعرف عنهم الكذب أو التهويل أو المبالغة.

واحد من هذه المقالب حدث مع محافظ سابق لإحدى محافظات الوجه القبلي في آخر عهد الرئيس السادات، حيث كان الأخير في زيارة لهذه المحافظة، وفي معرض استعراض المحافظ لمنجزاته في المحافظة، «فشر» علي الرئيس وأبلغه بأنه أنشأ مزرعة ماشية ضخمة ليتمكن من الاكتفاء الذاتي لمحافظته من اللحوم.

لم يكن المحافظ قد قدر أو استعد أو جهز لكذبته ففاجأه السادات برغبته في زيارة المزرعة المزعومة، فأسقط في يد المحافظ الذي قفز من مقعده وطلب من موظفيه تجهيز مزرعة علي عجل، فإذا بهم يستولون علي قطعة أرض يحيطونها بالأسلاك الشائكة ويجمعون الماشية من المواطنين يؤجرونها مقابل مائة جنيه للرأس في اليوم.

وقد جمعوا ما شاء الله عليهم آلاف رؤوس الجاموس

والأبقار.

ولكن المفاجأة الكبرى التي لم يكن يتوقعها المحافظ الهمام أن الرئيس السادات، وكانت أزمة اللحوم وقتها علي أشدها في القاهرة، طلب من المحافظ أن تشحن هذه الماشية كلها إلي... القاهرة.

وكان لابد من تنفيذ أوامر الرئيس ،وأسقط في يد المحافظ الذي لم يكن أمامه إلا الاستجابة للأوامر مما اضطر رجاله إلي نقل الماشية في الليل البهيم من وراء أصحابها بالقطارات إلي.. القاهرة.

في اليوم التالي اكتشف أصحاب الماشية اختفاءها فلم يضحكوا كما لابد أن القارئ يفعل الآن بل أصيب بعضهم بأزمة قلبية لأنه وجد أن بقرته أو جاموسته المسكينة اختفت من المزرعة الوهمية،و بعضهم لا يملك من متاع الدنيا سوي هذه البقرة أو الجاموسة ويعيش معها ولها.

وكان أن تزاحم الآلاف من أصحاب الماشية أمام مبني المحافظ لكنه اختفي من مكتبه وبيته بل غادر المحافظة كلها.

ولما وجد مساعدوه أن الأمر جلل ويمكن أن يتحول إلي ثورة بدءوا في صرف تعويضات عاجلة (طبعا من المال العام) لأصحاب الماشية حتى تتم تسوية الموضوع مع القاهرة وبدءوا في ممارسة لعبة القط والفار، مع الغلابة منهم، فاضطروا أن يقبلوا

أي مبلغ كتعويض وهكذا جاعت أسر وتشردت أسر لأن السيد المحافظ «نخع» علي الرئيس.

***

فصل الفن الهجين

أسوأ شيء يمكن أن يقوم به الفنان الخليجي هو أن يغني أغان بألحان وكلمات غير خليجية.

عدد كبير من المغنين الخليجيين يلجأ ون للهجة المصرية والألحان المصرية بغية ما يدعونه من انتشار.

هذا يقود في تقديري، كلما لاحظت فيما سمعت من هذه الأغاني إلي شيء هجين، لا هو مصري ولا هو خليجي أصيل، وبالتالي يفقد الفنان خصوصيته وطعمه المميز، والأفضل في تقديري أن نعود إلي التراث المحلي القديم، لنجد فيه أعذب الكلام، وأرق الإيقاعات، إذا كان هناك لابد من العثور علي حلول لمشكلة مفترضة.

في تقديري أن هذا يقودنا إلي رؤية أكثر إيجابية تنبع من فكرة التعدد في إطار الكل.

فكلنا عرب، نعم، ولكن لكل منطقة خصائصها المميزة وطعمها الخاص، وأنا شخصيا متيم بالأغاني البدوية والخليجية، كما سمعت في المغرب وتونس إيقاعات تخلب الألباب،

بالضبط كما يمكنك أن تجد في جنوب مصر وسيناء هذه الإيقاعات المميزة.

ذلك هو الفن الأصيل الذي يجب أن نحافظ عليه، ونفخر به علي كل الأمم.

***

الليزر كوسيلة للصهللة

منذ مدة وفي خطبة عصماء مشهورة في قاعة البهو بمجلس الشعب المصري (البرلمان) وتوضيحا لإستراتيجية وزارته، قال فاروق حسني وزير ثقافة نظام مبارك إن سياسته المعتمدة تقوم علي «الضجيج»، ثم حين اعترض بعض أعضاء المجلس علي هذه اللفظة الغريبة، استبدل بها الوزير كلمة تدفع للابتسام، هي كلمة «الصهللة» التي أضحت هي الأساس (أو المازورة) في فعاليات الوزارة،سواء كانت مؤتمرا لمناقشة «البنوية» أو «الفرمونلوجية» ربما لأنها (أي الصهللة) تأتي من قاموس الغناء الذي هو في عرف الوزير أحد مقومات وزارته.

ومهما يكن من هذا الخطأ غير المقصود، القائم علي عدم الدقة في التعبير، فأنه بإمكان أي زائر للقاهرة أن يلحظ لأول وهلة هذه الكمية المرعبة من «صهللة الضجيج» التي قد تكون مقبولة من الأجنبي لساعات، باعتباره فلكلورا يدغدغ به مشاعره

الإستشراقية، إلا انه من المستحيل احتمالها عدة أيام لأنها ستسبب لأي كان « تصفية عصبية « علي حد تعبير الدكتورة عواطف عبد الرحمن (الأستاذة بكلية الإعلام جامعة القاهرة) التي اعتادت ما أن تركب التاكسي حتى تضع في أذنيها سدادتين، وتدس وجهها في كتاب حتى تصل إلي هدفها تفاديا لهذه التصفية العصبية، لذا فإن الوزير السابق لم يكن بعيدا عن الواقع وهو يستعير الكلمة، سهوا، مما يجري حوله ما يؤهله للحصول علي لقب «وزير واقعي» بامتياز.

بدوره الكاتب المعروف «صنع الله إبراهيم» الذي يعيش في الطابق السابع، من عمارة في أحد أحياء مصر الجديدة الأقل ضجيجا، اكتشف مرضا جديدا (يستحق تسجيله باسمه في موسوعة أمراض العصر) أسماه: «فوبيا القاهرة» أي الخوف الرهابي من المدينة العتيدة، يدعي صنع الله انه مصاب به منذ سنوات، لذا فإنه يقبع في قلعته هناك في الأعالي، لا ينزل إلي الشارع إلا في الملمات، وهو حين يضطر للنزول في أوقات الذروة،، فإنك تراه في صورة مضحكة مبكية حقا، يمشي ركضا واضعا كمامة علي أنفه، وسدادتين في أذنيه، ونظارة سوداء علي عينيه، وفي الشتاء يحتال علي الموقف كله بلف وجهه ورأسه بملحفة حتى لا تري منه سوي عينيه.

أما الشاعر عبد الرحمن الأبنودي، فإنه يتحايل حتى بأعمال

السحر ليتفادى النزول إلي الشارع، لفترات تقاس بالشهور، ويجري مقابلاته واتفاقاته مع المغنين والملحنين في منزله، وإذا نزل، فإنه لا يطيق البقاء في الشارع سوي بضع ساعات يجري بعدها خارجا من القاهرة إلي الإسماعيلية حيث منزله الريفي يقضي هناك أياما ليغتسل (علي حد تعبيره) مما يصيبه من تلوث بقائه ساعات في شوارع القاهرة.

عدد كبير من الكتاب والشعراء والفنانين والمثقفين الذين يحتاجون للهدوء حتى يمكنهم الإبداع، أضحوا بالفعل مصابين برهاب القاهرة، لدرجة أن كثيرين منهم نزحوا نهائيا عنها وشكلوا مجموعات سكنية ريفية أو صحراوية ما بين منطقة جاناكليس في الشمال حيث يعيش عدد من الرسامين والنحاتين، ومنطقة دهشور جنوب القاهرة التي تعيش فيها أغلبية من الكتاب، أو قرية تونس في الفيوم (علي بعد 100 كيلو مترا جنوب غرب العاصمة) حيث أكبر هذه التجمعات، وهم خليط من الكتاب والفنانين والشعراء والصحافيين وأساتذة الجامعة وخبراء الكمبيوتر الذين هربوا بجلدهم، ليس فقط من التلوث الناتج عن الغبار وعادم السيارات القديمة المتهالكة، ولا فقط من أصوات ضجيج هذه المركبات من كل نوع وشكل (من الروزلوريس إلي الكارو التي يجرها الحمار الأجرب) بل من إزعاج آخر جديد أضحي يصل إلي الطوابق العليا مهما علت العمارات، بل انه

ليصل إلي عنان السماء.

إذ استحدث الأغنياء الجدد الذين تجري الأموال السهلة بين أيديهم كالأنهار إزعاجا جديدا هو الإزعاج بالليزر.

وعلي الرغم من أن القاهرة، ومنذ زمن طويل، مدينة لا تنام الليل ولا تعرفه، وبالتالي فإن ضجيج المركبات والمايكروفونات التي تصدح بملايين الأصوات (وضمنها الأذان المنبعث من آلاف المآذن في اللحظة نفسها حتى انك لا تستطيع تمييزه) لا تنقطع طوال 24 ساعة، إلا أن الليزر دخل علي خط إزعاج الليل، فمع دقات طبول الأفراح والاحتفالات بكل شيء وأي شيء، تقوم عدة ماكينات بإرسال عشرات حزم أشعة الليزر من الأسطح تدور وتلف وتتمايل في حركات مجنونة حقا، ولأن حركتها في كل اتجاه، فإن بإمكانها أن تتسلل إليك كالثعابين الصغيرة من خصص الشرفات والنوافذ.

كنت ممددا علي الكنبة في الصالة أتصفح كتابا، فإذا بالطبل يرتفع، ومعه عشرات الآلات النحاسية والوترية وآلات النفخ تلقي بالأصوات ، قمت وأغلقت النوافذ أملا في تخفيف الصوت ليس أكثر، عدت إلي مكاني فإذا بالثعابين الضوئية ترتعش علي الجدران حتى إنني (وأنا ولد جريء) فزعت بالفعل.

فتحت النافذة لأري ماذا يجري، فإذا بآلات بث الليزر علي سطح المنزل الذي تجري عليه وقائع العرس وهي ترسل أشعتها

علي البنايات في المنطقة كلها: تتراقص وتتسلل حتى دورات المياه.

اتصلت بصديق أسأله فقال: لقد جري هذا التطور أثناء سفرك مع الاحتفالات بفوز عالم الليزر أحمد زويل بجائزة نوبل، التي تحولت علي المستوي الشعبي أشبه بموالد أولياء الله الصالحين.

ومع ذلك، بل وعلي الرغم من كل ذلك، تظل القاهرة مدينة جميلة، غنية بالأحداث والأشواق والمباني التاريخية الجميلة والأشجار أيضا، نحن لا ننتقدها هي في ذاتها، بل نرثي للحال التي أوصلها إليها سكانها الذين زحفوا إليها كالجراد من الأطراف، مع عصر الانفتاح الميمون، لذا، فإن كل الجهود البطولية التي تبذلها وزارة البيئة لا يبدو لها إلا القليل من الأثر، لكن القاهرة تبقي، منارة أرض الكنانة، وقرة عيني شخصيا.

***

بيت أحلام اليقظة

بعض الأماكن تعلق بذاكرتك، تظل كامنة فيها، تلح عليك بين الوقت والآخر، مهما مرت السنون علي انقطاعك عنها لاحقا.

لقد طرحت هذه القضية نفسها للنقاش كثيرا من المرات، بيني وبين أصدقائي فكانت دهشتي من أجماعهم علي أن أكثر مكان يحتل أكبر مساحة من الذاكرة هو «البيت» لا الجامعة، ولا النادي،

لا المقهى ولا الحديقة، لا الشاطئ ولا الصحراء، وإنما «البيت»، ليس كل بيت، ولا أي بيت، وإنما، بالنسبة للجميع، «البيت الكبير»، بيت الأسرة الذي ولدنا فيه، وقضينا فيه طفولتنا، وليس كلنا بالطبع قضي طفولة سعيدة، دافئة، حتى ترتبط به ذاكرتنا، بل إن بعضنا أكد، أن طفولته كانت قاسية، لا يحب حتى أن يستعيد الشقاء الذي عاناه خلالها، ومع ذلك يجمع الكل علي أن بيت الأم، هو أكثر الأماكن إلحاحا علي الذاكرة، ما هو السبب؟ وهل هناك مرجع يحكي هذه الخاصية الإنسانية الفريدة؟

نعم، هنا هذا الكتاب الفريد الجميل، الذي، وإن تحدث عن ذاكرة أماكن عديدة، أماكن كالأدراج، والصناديق، وخزائن الملابس، أماكن كالأعشاش، والقواقع، والأركان، إلا أن ما كتبه «جاستون باشلار» عن «البيت» فهو في غاية النباهة والعمق،.

لم يكن «باشلار» يقصد بالذات بيت الأمومة، ولكنه كان يقصد كل بيت عشنا فيه، تعود إليه الذاكرة، ونجتره.

«.. فالكثير من ذكرياتا محفوظة بفضل البيت، وإذا كان «هذا البيت» أكثر تعقيدا، أي أن له قبوا، عليّة، وأركان منعزلة، ودهاليز، وأروقة، فإن أحلامنا، تكون أكثر تحددا، نعود إليها دوما في أحلام يقظتنا، ولهذا فإن علي المحلل النفسي دوما أن يركز عنايته علي التمركز المكاني البسيط لذكرياتنا.

.. إن رسم صورة مبالغ في جمالها للبيت تلغي «ألفته»،

ويصدق هذا علي الحياة،، ولكنه أصدق ما يكون في أحلام اليقظة ،

إن البيوت الحقيقية للذاكرة، البيوت التي نعود إليها في أحلامنا، البيوت الثرية بأحلام اليقظة، لا تمنح نفسها بسهولة الوصف، فوصفها يشبه أن نفرج الزوار عليها، قد نستطيع أن نحكي كل شيء عن الحاضر، ولكن ماذا عن الماضي؟

بيت أحلام اليقظة يجب أن يحتفظ بظلاله ، إن ذلك ينتمي إلي أدب العمق، إلي الشعر ..»

هذا ما كتبه «باشلار»، أما ما رسمه «ريلكه» من شعر عن «البيت» فقد جاء فيه:

.. «البيت قطعة المرج،
يا ضوء المساء،
فجأة تكتسب وجها يكاد يكون إنسانيا،
أنت قريب منا للغاية،
تعانقنا ونعانقك..»

***

الأطفال في شارع الإعلانات

كل الآباء الذين هم علي درجة من الوعي، يعانون مشاكل جديدة غريبة في هذا العصر العجيب، علي رأس هذه المشاكل أنواع اللعب التي يطلبها أطفالهم، غالبا، لأنهم يجدونها في أيدي الآخرين، وقد أجادت إعلانات التليفزيون الترويج لها، وهي، هذه اللعبة، علاوة علي أنها مرتفعة الثمن، تفوق قدرة الإنسان العادي المالية، فإنها أيضا تحمل لأولادنا العرب، قيما ثقافية غريبة تدفعهم لتقليدها، وقد يكون في بعض هذه القيم ما هو جميل وحسن، إلا أن الخطير الذي يخطط له منتجو هذه الألعاب بحذق ومهارة هو شيوع روح الاستهلاك في نفوس الصغار.

فباربي مثلا، التي أصبح لها الآن بعد أن بلغت صديق يجب أن تخرج معه، لا إلي المكتبة، ولكن إلي المراقص، تتزايد وتتجدد «حاجاتها» المفتعلة المدللة كل يوم عن الآخر، فهي تطلب كل يوم فساتين جديدة، وشورتات ساخنة، كما تطلب أنواعا مختلفة من مواد التجميل والزينة، واللعب (أيضا) حتى وصلت قيمة مستهلكاتها عدة آلاف من الدولارات تنفق علي بهرجة هذه الدمية العجيبة الكاسحة التي للأسف، يصبح شكلها بعد كل هذه الزينة، وهذه الملابس: فزاعة مخيفة غريبة الشكل والمظهر.

لكن الظاهرة الأخطر، والتي لا يحتاج التعامل معها إلي مصاريف هي هذه الأغاني التي أصبح الأطفال يرددونها ليل نهار، في البيوت والشوارع،في المدارس والنوادي، حتى أصبحت ظاهرة تلفت النظر تحتاج من علماء التربية دراسات تعالج الموقف، وأظن أن سبب وجود هذه الظاهرة، هو افتقاد أطفالنا للبديل الثقافي الجذاب والمقنع، أي إحساسهم بالفراغ.

الملاحظ أنه علي هذه الجبهة نجد مثلا لعب الأطفال المصنعة في بلادنا أعمالا هابطة المستوي، لا تقوم علي دراسات متقنة كما يحدث في بلاد الدنيا، في الغرب والشرق، لذا فإن أطفالنا، خاصة في المدن، وقد انقطعت السبل بينهم وبين الأغاني واللعب التقليدية الجميلة البسيطة التي كانت الأجيال السابقة تصنعها في البيوت في أشكال نابعة من البيئة، ومصنعة من مواد نجدها بسهولة في بيوتنا، علي العكس يجد أطفال هذه الأيام أشكالا رديئة في كل شيء.

الأغاني غالبا ما تقدم في محتوي موجه (يزعمون أنها وطنية) لكنها في الحقيقة أعمال مناسبات سرعان ما ينصرف عنها الأطفال، وهنا نحن نتعامل مع الطفل علي غير حقيقته وكأنه جندي في ميدان القتال، وفي الحقيقة نحن نبث فيه روح الفاشية البغيضة، علاوة علي أننا نحمله ما لا يطيق.

أما اللعب فغالبا ما تصنع من مواد بلاستيكية رديئة، فينصرف

الأطفال عنها إلي ما هو أكثر جاذبية، وفي كلا الحالين فإننا لا تتعامل مع خيال الطفل وقدراته الكامنة، بل نتعامل معه من الأعلى، أي بأسلوب أبوي ديكتاتوري يفرض ولا يقنع، يملي ولا يحبب ما نقدمه له فيكون الانصراف والفشل.

إذا قلنا هذا عن أغلب منتجاتنا من لعب الأطفال، فإننا نقول هذا عن كتبهم ومجلاتهم (في الأغلب الأعم) حتى نصل إلي الأغاني، وهي موضوعنا هنا، وفي تقديرنا أنه الأهم والأخطر.

فعلي هذا الجانب يقف بعض رجال الإعلان بذكاء ومهارة مستعينين بكل ما في العصر من تكنولوجيا، مستعينين بالإحصائيات والأرقام،فيجدون بديهية تغيب عن أذهان الكثيرين، وهي أن الأغلبية الساحقة من سكان البلاد العربية هم من الشباب والصبية والأطفال.

لذا، فإنهم يدفعون بسوق المنتجات الموجهة إلي هؤلاء إلي أرقام خيالية وقد يكون هذا ذكاء محمودا يجب أن يتعلم منه العاملون في الحقل الثقافي، لكن ما هو أخطر أن عددا من هؤلاء يستغلون هذه الأغلبية لدفعها أو لنقل لتربيتها علي القيم الاستهلاكية البغيضة، التي هي بالتأكيد لن تنتج لنا رجالا ونساء يعتمد عليهم في المستقبل، بل يصبحون عالة علي مجتمعاتهم، وهذا كله يتم عن طريق غاية في التأثير والأهمية، طريق الأغنية الراقصة المتقنة الأداء والتصوير والإيقاع.

أنت تجد الآن أطفالنا يغنون هذه الإعلانات في كل مكان، كبديل «ثقافي» لأغان كان يجب أن نقدمها لهم، ولست أقصد قطعا تحريم هذه الإعلانات التي أصبحت حقيقة واقعة في حياتنا، كما أضحت الوسيلة الأهم التي تربط بين الصانع والمستهلك في عصرنا، لكن ما يهمني في الأساس هو كيف ندفع هذه الشركات إلي الإحساس بخطورة القيم التي يريدون لها أن تذيع في وجدان أطفالنا، ونقيم حوارا معهم يصل بهم إلي حل يجعلهم يندفعون في طريق أكثر رشدا وإحساسا بالمسئولية، كما أن ما نعنيه ينصب علي إيجاد طريقة لتطوير منتجاتنا الثقافية الموجهة لأطفالنا، خاصة في مجال الأغنية والبرامج التليفزيونية التي أصبحت زادا ضروريا لشباب المستقبل.

ـ نود أولا أن ندعو لمناقشة جادة خاصة في الصحف يشارك فيه الطرفان:

ـ طرف شركات الإعلان التي تستعين بالأغنية والاستعراض بما يتضمنه من كلمة ولحن وحركة ووسائل فنية أخرى، ودفعهم ناحية الإحساس بالمسئولية الاجتماعية المفروضة عليهم، والدارسون منهم لفن الإعلان يعرفون أن هذا جانب هام يتلقونه ضمن هذه الدراسة، كما يعرفون أن هذه المسئولية الاجتماعية أضحت موضوعا مثارا في مجتمعات عديدة تحس بخطورة القيم التي تنشرها بعض الإعلانات في نفوس الأجيال

الجديدة، نكرر، أضحت موضوعا للدرس والمناقشة، لا فقط في الجامعات والمؤسسات المعنية بثقافة الطفل وحقوقه، بل أيضا في وسائل الإعلام وعلي رأسها التليفزيون.

وهنا لا أنسي ما شاهدته في التليفزيون الأمريكي في برنامج «أوبرا شو» التي تقدمه المذيعة النابغة «أوبرا وينفري» في سلسلة رائعة وجريئة ناقشت فيها هذه المسألة ووجهت السؤال تلو السؤال لكل الأطراف المعنيين بهذه القضية، رجال الإعلان ورجال التربية كما علماء النفس والأمهات والآباء والأطفال أنفسهم.

ـ الطرف الثاني هم العاملون في مجال ثقافة الطفل في بلادنا، وقد لا أكون مبالغا إذا قلت إن هناك الآن عددا كافيا من الدراسات التي تتضمن إحصائيات وبيانات وتوصيات تكاد تغطي ساحة الطفل العربي، لا فقط بالنظر إلي موقعه الاجتماعي، ودائرته الثقافية، بل وأيضا علي المستوي الجغرافي الذي يشمل الأغلبية الساحقة من الأقطار العربية.

لقد أقيمت في السنوات الماضية العديد من المؤتمرات والندوات وورش العمل التي توصلت لكثير من هذه الحقائق الهامة والبيانات الفارقة والأرقام ذات الدلالة، كما أجريت في أغلب مراكز البحث والجامعات العربية دراسات ذات قيمة عن الطفل العربي،ومشاكله، قد لا أبالغ إذ أقول أنها غطت جوانب

ثقافته، بل أمور حياته كلها، وأغلبها دراسات جادة لا تسعي إلا للوصول للحقيقة، لكن المشكلة الآن تتجلي في واقع ما نجده أمامنا من تأثير لهذه الدراسات والإحصائيات علي منتجاتنا العربية الموجهة للطفل، خاصة في المجال الثقافي، هنا نجد أنه سواء كنا نتحدث عن برامج الأطفال التليفزيونية، أو المسلسلات الدرامية الموجهة إليه، علاوة علي الأغاني وأشرطة الرسوم المتحركة فالملاحظ (وها نحن نتحدث عن الأغلبية الساحقة) أن الكوادر العاملة في هذه المجالات (وهذا أمر حاسم فليس هناك منتج ثقافي جيد دون فنان حقيقي مثقف وواع) الملاحظ أن هذه الكوادر في أغلبها من كوادر الصفوف الدنيا من العاملين في الحقل الثقافي، وأنا أعرف معرفة شخصية، أن أحد التليفزيونات العربية يحيل العاملين غير الأكفاء إلي قطاع الأطفال باعتباره منفي لهم، أي القطاع الذي لا يحتاج إلي الكوادر الفنية الموهوبة.

مثل آخر من مجال المطبوعات حيث قامت مؤسسة كبري بعمل مشروع نبيل في فكرته ألا وهو إصدار مجلة أسبوعية للطفل، خصصت لها ميزانية ضخمة وإمكانيات مادية كبيرة، لكنها حين اختارت قيادات هذه المجلة اختارتهم من أقسام التحقيقات والجريمة دون سابق معرفة لهم بمجال الكتابة للطفل، وقد يكون هؤلاء أكفاء في مجالهم، لكن المعرفة هنا ضرورية، والغريب أن هذه المؤسسة لديها كوادر علي درجة كفاءة عالية

جدا في هذا المجال.

وهكذا يمكننا جميعا أن نري ونشاهد الرسوم الموجهة للأطفال، كما القصص والحكايات، كما البرامج والمسلسلات وحتى وسائل الإيضاح، فإننا إن عثرنا بينها علي القليل الجيد، إلا أن الأغلب الأعم، أشكال رديئة متخلفة ليس فيها ذوق أو معرفة لا بالطفل، ولا بالثقافة.

ولذا فإن شركات الإعلان الذكية تستعين بفنيين علي درجة عالية من الكفاءة تجد نفسها وقد انفردت بساحة الطفل، لذا، صديقي القارئ، لا تتعجب حين تجد طفلك يرقص علي أنغام هذه الإعلانات ويردد أنواع الشيكولاتة والتشكلتس والبنبون والأحذية، لا أنواع الطيور والحيوانات والأشجار والزهور، أو حتى القيم الإنسانية الحقيقية التي يعيشها أو يعانيها.

ورحم الله صلاح جاهين الذي تنبأ في رسم معبر له صور فيه الأم في السبعينيات وهي تعلم ابنها عد الدولارات بدلا من أن تعلمه القيم والمبادئ.

***

صناعة ترويج النجوم

كنا نسمع عن الآلة الإعلامية الضخمة في الولايات المتحدة وأوربا، وربما اليابان أيضا، تلك التي تخصص إمكانيات مهولة لصناعة النجوم الذين تريدهم، فلا نصدق آذاننا، وأبادر بالقول إنه حين يتعلق الأمر بإعلاء قدر شخص موهوب وذي إمكانيات عالية ومتفردة، فإنه قد يغفر المرء لهذه الآلة عملها، لأنها تقوم بإعلان قيمة يحتاج إليها الناس، خاصة في ظل المنافسة الشديدة.

لكن حين يتعلق الأمر بأشخاص لا قيمة لهم وتقوم هذه الآلة الجهنمية بوضعهم في مقدمة الصورة، أي أنها تفتئت علي حقوق الموهوبين لصالح غير الموهوبين، فإن المسألة تصبح صناعة أكاذيب، لا صناعة نجوم حقيقيين، وتصبح النتيجة وبالا علي عموم الناس وعلي المجتمع بأسره.

أوضح فأقول أن هذه الآلة تقودها أجهزة جبارة تضم خبراء في الإعلان والإعلام وإقامة الحفلات وخلق المناسبات وتضخ عشرات إن لم تكن مئات الألوف من الدولارات للوصول بالغندور أو الغندورة إلي أن يتصدر اسمه أو اسمها نشرات الأخبار والصفحات أو تصبح صورته أو صورتها مقررة علي أغلفة المجلات والبرامج التليفزيونية بحيث انك مهما حاولت

أن تتجنبه فانك لا تستطيع لأنه سيكون موجودا في كل مكان.

لذا نقول للقراء رجاء أن تتأملوا الموضوع قليلا، وان تتمهلوا في الموافقة علي هذه الأسماء المطروحة «عمال علي بطال» ولا تنظروا للرقص والزمر والضجيج والنفخ في الجثث التي تفرض عليكم، ولا تنظروا إلا إلي الأعمال نفسها، لا تنظروا إلا للإنتاج نفسه، نقول لا تصدقوا صناع الأكاذيب.

أما النقاد النائمون في العسل فنقول لهم أن ناقدا بلا ضمير هو فعلا شيطان اخرس، وإلا فاستيقظوا أيها الشياطين.

***

الأكاذيب كصناعة فضائية

كل اختراع تكنولوجي عظيم، تقريبا، حين يصل إلي بلادنا المبجلة، يتحول إلي غير ما اخترع له، بل، وغالبا، يتحول إلي ضد ما تم صنعه من أجله.

يخترعون السلاح المتقدم فنأتي نحن به، وبدلا من أن نوجهه إلي الأعداء، نوجهه للأخوة والأشقاء.

وهاهم اخترعوا لنا الفضائيات لنشر المعلومات التي هي في جانب منها تعني الحقيقة، وجئنا بها فإذا بها تتحول إلي ساحة تفرخ الأكاذيب الكبيرة والصغيرة والمتوسطة، تلك التي يراد لها أن تتحول إلي حقائق راسخة في الأذهان والعقول التي يتم

الإلحاح عليها بهذه الترهات، ولله في خلقه شئون.

فمن قائمة الأوائل (ولا علاقة هنا لهذه الأوائل بأوائل الـ «A.N.T» أبدا) إلي قائمة النجوم، وإلي كل ما في خانة أفعل التفضيل من عزم، ليصبح فلان الأول الذي لا قبله أو بعده، وتلك هي الأجمل، وهذه أحلي، وهكذا.

فرأينا قنوات لم تبلغ العام لكنها أضحت ذات ريادة، وأخري تقول الحقيقة والحقيقة وحدها، وثالثة لا تقدم سوي الأجمل من الفنون.

المهم أن الأكاذيب هنا تصطف في عدة خانات:

ـ خانة تخص القناة نفسها، فهي الوحيدة الفريدة اللذيذة وكل الخرابيط إلي آخره.

ـ خانة تخص مذيعاتها ومذيعيها فهم الأجمل والأوسم والأذكى والأكثر ثقافة ولماحية وخبرة، وإلي آخره.

ـ خانة ثالثة تخص من تسميهم النجوم الذين تقدمهم من جنس الرجال والنساء علي حد سواء، وقائمة الأوصاف هنا لا تحدها حدود ولا تقف أمامها سدود، حتى إن إلي آخره لا تكفيها، لأنه لا آخر لها.

ـ طبعا سيقولون لك أننا أخذنا هذا من القنوات الفضائيات العالمية، وعلي رأسها الـ (C.N.N) فنقول:

ـ أولا، أن هذه الطريقة الأمريكية في «الدلالة» هي طريقة

فجة ومقززة، ويمكنك أن تقرأ عن فجاجتها الكثير من السخرية في مقالات ومقابلات المفكر الكبير «تشوموسكي» ومع ذلك فهذه الحملات التي يسمونها ترويجية تتم في حدود معينة، وحسب قوانين محددة، لا تستطيع أي قناة تجاوزها، لذلك فإن هناك حدا لمبالغاتها، إذا تجاوزته إلي عالم الأكاذيب وقع عليها عقاب القانون الصارم الذي لا يرحم، ليقتص حق المنافسين قبل حق المشاهدين الذين يستطيع أي فرد منهم أن يجرجر «أتخن» قناة وصاحبها، بل وأهله وجيرانه حتى، إلي قاعات المحاكم ويبهدلهم بهدلة شديدة.

فهناك قانون يحرم الاحتكار ويجرمه في ظل منافسة مفتوحة علي السماء، بل والمحيط والصحراء أيضا.

ـ ثانيا: إن هذه «الدلالة» الملحة في مزاد القنوات الفضائية الأمريكية مبنية علي أساس الجودة؛ جودة السلع والأشخاص والبرامج والأقوال،والمسلسلات، طبعا بالمقياس الأميركي، وبناء علي القيم الأميركية، وما لنا نحن وهذه، أم أننا بوجهين: مرة ننادي بالتمسك بقيمنا، ومرة أخري ننادي بالتخلي عنها.

واستكمالا لـ «ثانيا» هذه نقول إن القانون هنا أيضا لا يسمح بالأكاذيب، لأنه صارم وقاطع ولا يرحم.

ـ ثالثا: إن هذه القنوات العالمية في النهاية تقدم مستوي عالميا من الأداء، بأي مقياس من المقاييس، نراه في الإخراج والتصوير

والتنقل بين النقل المباشر من مراسل إلي آخر، ومن قارة إلي أخري؛ من الأستوديو إلي الأحراش، ومن مواقع الأحداث إلي مكاتب الخبراء، حتى انك تنتقل في البرامج الواحد بين ما لا يقل عن عشرة أماكن، وعشرة أشخاص، فأين نحن من هذا؟ وفي أي قناة عربية نراه؟

ـ رابعا: إن هذا كله هناك، يجد من ينتقده بشدة، ويحاول تقييمه دون هوادة، وحتى صناعة النجم التي عدت منذ زمن اختراعا أمريكيا، أضحت تحت مجهر الدرس والتقييم، والجادون من النقاد هناك، وهم كثر، لا يوفرون في نقدهم لهذه النزعة أي وصف أو قول، ويجدون الحرية الكافية لقول ذلك أو كتابته أو إذاعته، أما في بلادنا الحبيبة فنحن نعرف جيدا كمية الحرية «المصروفة» لنا في كل بلد بمقدار.

ـ خامسا: إن ما يحققه (هناك) مذيع أو ممثل أو محاور من شهرة لا يمكن أن يقوم كله علي الكذب، وإذا قام بعضه علي الكذب، فإنه سرعان ما يتراجع للخلف، عكس القاعدة السائدة عندنا تلك التي تقول: كلما زاد الكذب حدث تقدم للأمام، وإلي فوق، وحتى أعلي الأعالي.

ـ سادسا: إن المسائل هناك مفتوحة علي الآخر، وضمن هذا الانفتاح الذي علي الآخر، أن تكون نجما بقدر ما تحققه من دخل، فأوبرا وينفري مثلا تحصل علي قرابة الخمسين مليون

دولار سنويا مقابل برنامجها المعروف باسمها، ببساطة لأنك يمكنك أن تذهب وتسأل الناس (كما فعلت عشرات مراكز الاستطلاع) لتعرف أن مصداقية هذه السيدة، هي سبب قيمتها، وارتفاع سعرها، وهي مصداقية لا تشوبها شائبة، كما أن جرأتها لا توفر أي موضوع، وإتقانها لعملها وتعبها عليه ليفوق كل الحدود، لذا فإن الملايين فعلا يجلسون في انتظار برنامجها بفارغ الصبر، ويتابعونها باهتمام، وهنا يأتي دور المعلن الذي يريد أن يطل بمنتجه علي كل هؤلاء الجالسين، فيدخل علي أوبرا، أقصد علي برنامجها طبعا، فتنهال الملايين علي القناة، والبرنامج، وسبحان موسع الأرزاق.

***

مسرحية الكتاكيت الراقصة

منذ سنوات سألت صديقي (القديم) علي سالم كاتب المسرح الكوميدي المعروف عن سر توقفه عن كتابة الكوميديا، فقال، لا فض فوه، في لحظة صدق، وكنت أراه يعيشها كثيرا قبل أن يغرق في الظلام ويسافر إلي إسرائيل: كيف أكتب كوميديا والواقع (في الشارع المصري يعني) يطرح أحداثا ومواقف أكثر إضحاكا من أي مسرح؟

مرة أخري سألت الفنان المصري الكبير بهجت عثمان،

رحمه الله،عن السر وراء توقفه عن رسم الكاريكاتير فأجابني الإجابة نفسها: كيف أرسم كاريكاتيرا والواقع يقدم ما هو أكثر من قدرة أي فنان؟

وأؤكد أن الإجابة جاءت دون سابق اتفاق بين الكاتب والرسام، وكلاهما صاحب موهبة نادرة ومميزة.

تذكرت هذين الاعترافين وأنا أقرأ قصة بائعة الكتاكيت الراقصة التي تم القبض عليها في القاهرة،منذ فترة، وملخصها أن المسكينة عفاف (وهذا هو اسمها) امرأة مطلقة، تبدو وكأنها فوق الخمسين، علي الرغم من أن عمرها الحقيقي لا يتجاوز الثلاثين، لكن زوجها المفتري رماها مع طفلها في الشارع، بعد أن قضي معها فترة كان يعمل فيها موظفا صغيرا، ثم حين أصبح موظفا كبيرا احتاج لسيدة مجتمع (معها شهادة)، لكن المسكينة المكافحة عفاف، التي علمت نفسها القراءة والكتابة، لم يكن معها شهادة، فوجدت نفسها (مع طفلها) في الشارع.

ماذا تفعل امرأة مكسورة الجناح والخاطر وعلي ذراعيها طفل رضيع؟

طبعا وقعت فريسة محترفة إجرام اصطادتها من الطريق، وأخذتها معها إلي عالم الظلام، لكن عفاف التي لم تكن محترفة إجرام، وبمجرد أن جمعت القليل من المال تابت وقررت أن تربي بعض الكتاكيت لتعتاش منها، لكن الأقدار كانت لها

بالمرصاد، إذ أن كتاكيتها الصغيرة ارتعشت أمامها من البرد فتفتق ذهنها العبقري عن حيلة تدفئ بها الكتاكيت، فوضعتها، في إناء وأشعلت شمعة من تحته، فإذا بالكتاكيت تتقافز، طبعا، من سخونة الإناء.

تطورت الفكرة في ذهن عفاف المسرحي، فحملت الإناء وبه الكتاكيت، وجاءت بطبلة أخذت تدق بها «علي واحدة ونص» والكتاكيت المتأثرة باللهب المتصاعد إليها من تحت الإناء تتقافز، وعفاف تطبل، ونادت علي كتاكيتها تعرضها للبيع، فإذا بالناس يتدافعون لشراء الكتاكيت الراقصة، فباعت الكتكوت الذي لا يزيد ثمنه عن خمسين قرشا مصريا، بثلاثة جنيهات، لكن أحد المشترين،من سكان الزمالك، أخذ الكتاكيت،التي ظن أنها راقصات باليه، إلي بيته، وطبل لها، لكن الكتاكيت لم ترقص طبعا، فعاد المجنون يبحث عن عفاف حتى وجدها، لكن عفاف أقنعته مرة أخري بأنه أخطأ نوع الطبل، وانه كان عليه أن يقدم لها إيقاعات هندية، فاشتري الأبله عددا آخر من الكتاكيت وأخذها إلي بيته ووضع لها شريط كاسيت به موسيقي وإيقاعات هندية (تصور؟) لكن الكتاكيت مرة أخري لم ترقص، فاستشاط غضبا، فأبلغ البوليس الذي راح يبحث عن عفاف مدة أسبوع، ونصب لها الأكمنة في عدة أماكن حتى عثر عليها وأوقفها!.

لكن عفاف، وبكل شجاعة، لم تنكر التهمة، وقالت، لا فض

فوها، لوكيل النيابة أنها باعت فعلا هذه الكتاكيت، وان تحديد السعر مسألة تخصها، وأنها جربت البضاعة أمام الزبون، وأن الزبون دفع الجنيهات دون أي ضغط منها،وان القانون لا يحمي المغفلين.

وهنا أقول بأن علي سالم وبهجت عثمان كانا صادقين وهما يتركان الساحة الكوميدية للسيدة عفاف ومثيلاتها.

لكنني أسأل وزير الداخلية المصري: بالله عليك من هو الذي يستحق السجن؟ هذه العفاف المسكينة «الغلبانة» التي تسعي علي طفلها، أم زوجها (المجرم الحقيقي) الذي ألقي بها في الشارع، أم هؤلاء البلهاء من سكان الزمالك الذين اشتروا منها الكتاكيت لكي ترقص لهم باليه؟

إنني أرفع صوتي باسم الإنسانية، وأتوجه إلي وزير الداخلية المصري مناديا إياه أن يسلم الزميلة المؤدية المسرحية عفاف إلي زميله وزير الثقافة ليقدمها علي خشبة المسرح الكوميدي حلا لأزمته الطاحنة التي يمر بها.

أليس تقديم هذا العرض خفيف الدم أجدي من تقديم مسرحيات من نوعية: «حزمني يا:» و «علي ما يبدو سرقوا عبده»؟.

***

الكاميرا « المصروعة » وأخواتها

.. ومرض الصرع، أعزك الله، من الأمراض التي إذا تلبست بالمرء قلت فرصته في أن يعتدل في مشيته، أو وقفته أو جلسته، ينتفض ويقفز ويرغي ويزبد حتى ليصيب رائيه نفسه بالخلل العقلي أو الجنون. هذا بالضبط ما يصيبنا من «كاميرا» الفضائيات التي يبدو أنها اختارت عن قصد وترصد أن تنقل الخبل إلي عقولنا وعيوننا وتفعل بها الأفاعيل. وصدقوني إذا قلت، علي الرغم من المشيب، إنني عاجز عن التعبير عن حركاتهم المجنونة وتقلباتهم المسكونة بالشياطين التي تأخذ بالعقول إلي الدار الآخرة.

أما الكاميرا المتلصصة فهي أخت «المصروعة» إذ هي تترك الوجوه المتكلمة، والأيدي المعبرة، لتروح تحت الآباط، وتتمسح في أفخاذ البنات، ولا تقترب من العيون البريئة، بل تمتد إلي الشفاه الشهوانية والنهود الجريئة، فتنزل وتطلع وحين تعود، تصبح المسكينة، إن كانت مشاهدة، أو ضيفة، أو مانيكان مدسوسة، عارية من كل شيء، وطبعا نحن لم نسمع أي شيء من الكلام، فكيف تسمع كلاما ودرجة حرارتك ارتفعت، وفؤادك تلظي وحالك أصبح حالا؟

هل هذا ما يريدونه بنا؟

إذن قد نجحوا.

***

أما ثالثة الأثافي فهي الكاميرا «الغبية» وهي، أعزك الله، مثل العين المصابة بالحول، تنظر علي جانب، ولا تلتقط سوي أنصاف الأشياء أو أرباعها.

بل أحيانا كثيرة تلتقط الشجرة، وتترك الرجل الذي يتكلم.

تصور الكرسي وتترك صاحبه، وإذا سألت قيل لك أن الصاحب في مشوار، لكنه سيعود إن شاء الله في لقطة أخيرة وهو علي حمالة الإسعاف مغمي عليه من الغباء.

***

ورابعة الأثافي هي، أعزك الله، الكاميرا «البليدة» وهي تلك التي تتحرك ببطء «بطيء» إلي حد انك تنتظر وتنتظر حتى تنفجر فلا يحدث شيء.

وهي علي ما يبدو من مدرسة العبث العربية الشهيرة، العبث بالوقت، وبإمكانيات هذا الجهاز الساحر المبددة علي أيدينا، والعبث بالطبع بالمشاهد الذي هو في آخر قائمة اهتمامات اغلب المسئولين عن فضائياتنا المعتبرة.

لا أعرف السبب في أن تتابع الكاميرا الشخص من أول الممر إلي آخره (مع أن الممر يمتد بطول ستمائة متر)، سوي إصرار

بعض الكاميرات علي الحصول علي لقب «بليد».

مبروك للقب.

***

خامسة الأثافي، أعزك الله، هي الكاميرا السماوية، وهي تلك التي تحب التحليق في السماء، دون أن يكون هناك شيء، ولا حتى طائر، لكنها مع ذلك تفلت من يد ماسكها لتتابع السماء السابعة، ثم تعود إلي الحدث الجلل، فإذا به جلل فعلا.

لم تبتعد هذه الكاميرا عن الحدث، وتحلق في السماء دون معني؟

هذا سؤال دون إجابة طبعا.

وكل ما نرجوه أن تذهب إلي السماء وتتركنا نحن الغلابة علي الأرض.

***

المبالغة كصيغة هابطة

يظن البعض من مقدمي البرامج التليفزيونية، وغيرهم ممن يعملون في حقل تقديم المشاهير أن صيغة المبالغة في تقديم هذا الشخص أو ذاك، تفيد من يسمونهم بـ «النجوم» وترفع أسهمهم ومقاديرهم، والحقيقة أن العكس هو الصحيح.

فحينما يجد المشاهدون أو القراء، إن الوصف أكبر أو «أوسع» من الموصوف، تكون النتيجة النفور منه، والابتعاد عن سيرته،وربما مقاطعة أعماله.

لقد مل الناس هذه الأوصاف المكرورة، التي لا تجد في شخص الموصوف شيئا ينطبق عليه.

فهذه «الفنانة» المبتدئة، والتي لم تقدم سوي دور ثانوي، في فيلم هابط، هي «نجمة الموسم» وجميلة الجميلات، وفتاة الأحلام، والمتحدثة باسم الرشاقة وخفة الظل، مع أن المشاهد لا يري فيها وهي جالسة مكشوفة أمام الكاميرات التي لا تترك حتى تجاعيد الرقبة، أيا من هذه الخصال، بل قد يجد العكس تماما فماذا تكون النتيجة؟ سوف يفقد المشاهد، أو القارئ الثقة في هذه البرامج بل يفقد الثقة في أجهزة الإعلام كلها، ويبدأ في الاتجاه إلي القنوات الفضائية التي تحترمه، وتحترم عقله، وتقيس الوصف بمقياس الذهب بناء علي تقاليد متفق عليها.

هنا نصل إلي نقطة هامة، ألا وهي التقاليد الصارمة والدقيقة التي تحكم العمل الإعلامي، فهي الإطار والسند الذي يقف حاجزا أمام كل من تسول له نفسه صرف الألقاب الفضفاضة وسكبها علي كل من هب ودب، وهي بالتالي تحمي الإعلام من الوقوع في اكبر أخطائه: فقدان المصداقية.

وصيغة المبالغة أشد فتكا من أي شيء آخر بهذه المصداقية،

والموضوع في الحقيقة لا يخص هذه القناة أو تلك، بل يشمل كل أجهزة الإعلام العربية للأسف.

***

الطفل كمخلوق شرير

التعامل مع «الطفل» في أجهزة الإعلام مشكلة كبيرة تحتاج إلي وعي، وثقافة، وبعد نظر، ومعارف متعددة، استيعابها ليس سهلا.

فنحن مازلنا نتعامل مع أطفالنا باعتبارهم «زهورا لطيفة»، أو «دمي جميلة»، أو أحيانا مخلوقات شريرة تحتاج للردع في كل لحظة.

التعامل الأول خطر وغير علمي لأن الطفل كائن كامل (هكذا يقول الدارسون الذين نتعلم منهم) له مداركه وأحاسيسه ومشاعره، بل إنه من هذه الناحية قد يكون أكثر حساسية من الكبار الذين تبلدت حواسهم مع الزمن.

لذا فان التعامل معهم باعتبارهم مخلوقات ناقصة، يربيهم علي هكذا سلوك، وبالتالي يصيبهم النقص في مداركهم الذهنية والحسية، ومن هنا تأتي الأمراض النفسية التي تؤدي بدورها للأمراض الاجتماعية.

كثير من برامجنا التلفزيونية (بالذات وللأسف) تقوم في

تعاملها مع الأطفال، علي هذا الأساس فتجد المذيعة تغير من لهجتها الطبيعية، وتقلد الأطفال في الثأثأة والمأمأة فتسمع عجبا وتري الغرائب، وكأنك في سيرك لا في برنامج مدروس قائم علي أسس تربوية سليمة.

إذا كان تعاملنا مع أطفالنا بروح أنهم كائنات ناقصة في برامجنا التليفزيونية، فإننا نجد هذه الروح أيضا في كثير من كتب ومطبوعات الأطفال، إن كان في الكلام المكتوب، أو حتى في الصور المصاحبة.

دائما ما تبدأ الحكاية بمقدمات وعظية سقيمة، تمهد لهذا الكائن الناقص بنصائح لا طائل من ورائها، ثم إذا بدأت تتوقع الدخول في الموضوع، تجد الحكاية قد انتهت، والنتيجة مجرد ثرثرة لا تغني ولا تسمن من جوع.

ثم يأتي الرسم، وهو دائما يشمل عصافير ضعيفة منتوفة الريش، تقف فوق أغصان نحيلة مصابة بالجفاف لزوم الرومانتيكية التي يفترض الرسام أنها تجتذب الأطفال،والأطفال من كثرة ما رأوا العصافير النحيلة والغصون الجافة سئموا الطيور والأشجار.

البعض الآخر يعامل الأطفال باعتبارهم مخلوقات ناقصة تحتاج للردع الدائم، وهذا يتضمن عدوانية، لا نتعجب إذ تجدها سائدة في أرواح كثير من أطفالنا، و نروح نحن الكبار نتهمهم

بحب العنف، والحقيقة أننا نحن السبب في ذلك.

فنحن الذين ملأنا صفحاتهم البيضاء بهذه العدوانية، دون أن ندرك أننا السبب، ثم نطالب بالبحث عن علاج، والحقيقة نحن الذي نحتاج للعلاج، ليس فقط علي أيدي أخصائيين نفسيين بل أيضا علي أيدي أخصائيين اجتماعيين، وتربويين، وربما رجال شرطة نتلقى علي أيديهم العقاب اللازم.

***

الكلام عن ثقافة الطفل لا أول له ولا آخر.

في كل مكان تجلس فيه تسمع عن ضرورة الاهتمام بأجيال المستقبل ونور العيون، وثروة الأمة، لكن الفعل قليل قليل. وإذا كان هناك عدد من المجلات والبرامج التلفزيونية المهتمة بالطفل هنا وهناك، وحولها كلام كثير يمكن أن يقال، إلا أن أفلام الطفل، تلك المعمولة له خصيصا، تكاد تكون معدومة، حتى في مصر أكثر البلاد العربية المنتجة للأفلام.

لو نظرنا إلي كل بلاد الدنيا حولنا، نجد أن كمية الأفلام الموجهة للأطفال، علاوة علي نوعيتها، تجعلنا نحس بالخجل، والتقصير الشديد تجاه من نتغنى ليل نهار بهم وبمستقبلهم.

أجد هذا غريبا، حتى علي مستوي التسويق، لأن الأرقام تقول،

إن مجلات الأطفال، وملابس الأطفال، وبرامج الأطفال الأجنبية المتوفرة هي من أكثر المواد توزيعا وربحا وانتشارا.

ما المسألة إذن؟

وما الأسباب التي تقف وراء هذا التقصير الذي لا مبرر له؟

وكيف يمكن معالجة الأمر؟

أسئلة نوجهها للمنتجين، والمخرجين، والممثلين، بل لكل من هو مهتم، هواية أو احترافا، بثقافة الطفل، ومستقبله.

لعلنا نتلقى إجابات تكون نقطة انطلاق لحل هذه القضية التي أراها هامة وخطيرة.

***

الزواج في غرفة التطرف

هل تعرفون كيف انتشرت حلقات الجماعات المتطرفة، حلقة بعد حلقة، حتى أصبحت شيئا أشبه بالظاهرة؟ أو هكذا علي الأقل تصفها الأبحاث والدراسات المعتمدة، في مراكز الأبحاث وكثير من الجامعات.

ومع ذلك فأنني لا أتكلم من الكتب، أو من الإحصائيات، أو من فراغ، بل من الواقع المعاش الذي نراه كل يوم.

فأحد أسباب هذا الانتشار أعتمد علي خلق «كميونات» (جماعات) لإعاشة الشباب، بمعني سد احتياجاتهم التي لم تعد

الأطر السائدة، خاصة بين أبناء الطبقة المتوسطة، تسدها، وهي الطبقة التي تشكل الأغلبية المؤثرة في مجتمعاتنا.

طبعا قد يكون «العمل» سببا أساسيا مهما لجذب الشباب العاطل، لكن من هذه الأسباب المهمة أيضا: مشكلة الزواج، أو علي الأصح مشكلة الشباب غير القادر علي الزواج بالأطر السائدة، والتي تفرض علي الشاب أن يجد العمل أولا ثم الشقة، وبعد ذلك المهر المبالغ فيه، إلي حد التعجيز بالإضافة أيضا إلي مصاريف الأفراح والليالي الملاح.

الجماعات اختصرت الطريق بخلق هذه الكميونات البديلة، فبعد «التجنيد» مباشرة يقدم العمل للشاب أو الفتاة في أي مشروع صغير «بوتيك» أو محل بقال أو مشغل أو ورشة ثم وفي اللحظة نفسها يتم إدخال المجند والمجندة إلي عش الزوجية دون اعتبار لمهر أو شبكة أو عفش أو أفراح، مجرد عقد أو إشهار بسيط وتتم الدخلة في أي مكان، حتى ولو كان غرفة واحدة في مسكن مشترك يتقاسمه الزوجان مع آخرين.

بين يوم وليلة يجد هؤلاء الشباب أنفسهم، إذن وقد حلت جميع مشاكلهم في العمل الجماعي في مشروع صغير، ثم الزواج بلا تكلفة، والسكني الجماعية مع آخرين، لم لا ينضم إذن آلاف العاطلين، والمحرومين من الزواج إلي مثل هذه الجماعات؟

التقيت أحد التائبين.. من الذين انضموا فترة إلي إحدي

هذه الجماعات، فأجابني علي سؤالي الاستنكاري بدخوله هذه الجماعة بأنه وفي نفس يوم انضمامه كانت كل مشاكله قد حلت، ببساطة، حلا لا يقتضي سوي تغيير المفاهيم، وتغيير السلوك الذي يجعل نسبة الزواج بين شبابنا وفتياتنا الذين هم خارج هذه الكميونات تتدني، وتصل أعمارهم إلي ما بعد الخامسة والثلاثين دون أن يمارسوا حياتهم الطبيعية.

وأظن أنه قد آن الأوان أن نغير هذه السلوكيات، وأن ينتبه الآباء والأمهات، أن لم نقل المؤسسات العامة إلي ضرورة محاربة هذه العادة التي أضحت سيئة حقا، عادة المهور المبالغ فيها، والتكاليف الباهظة التي يتطلبها الزواج هذه الأيام علي طريقة الطبقة المتوسطة العربية، هذا إذا أردنا أن ننقذ أبناءنا من دخول هذه الجماعات التي ينطبق عليها المثل السائد: الداخل فيها مفقود والعائد منها مولود.

لأن هذا الدخول هو الخطوة الأولي التي تعقبها خطوة «التجنيد» في عمل مسلح، قد لا يعرف الشاب أو الفتاة الهدف منه، أو خطورته، وإنما هم ينساقون وراء التيارات المغرضة دون تفكير، فقد فكرت لهم هذه القيادات من قبل في حلول سهلة لمشاكلهم، وعليهم الآن أن يطيعوا الأوامر التي قد تطيح برؤوسهم أو برؤوسنا، نحن الذين ليس لنا في «الطور» أو «الطحين».

***

« ونجتمع لفيفا في عندها »!

العنوان عاليه ليس من إبداعي الشخصي، حاشا لله، فقدراتي اللغوية المتواضعة لا ترقي لبلوغ هذه التراكيب الفذة التي لا يستطيعها إلا مبدع فذ من الحجم الثقيل.

إنما هو إبداع مسجل باسم ورسم احدي مذيعات الفضائيات العربية الميمونة، قالته، بعد أن تحدثت طويلا عن «الثآفة» و«العلم» وأهميتهما للإنسان «الغلبان» من أمثالي الجهلاء الذين يحتاجون فعلا كل ليلة جرعة غليظة من هذه اللغة الفذة، حتى ينصلح حالهم، ويخف ضغطهم العالي الذي كاد يتحول، بعد سماع هذه الجملة، إلي انفجار في المخ والكبد والرئة والطحال، طبعا لعجز العبد الفقير عن تحصيل المعني الكامن وراء هذا التعبير الفذ، علي الرغم من أنني بعد أن سمعته مباشرة، قمت إلي مكتبتي الفقيرة، وأخذت اقلب كتب البلاغة (خصوصا القرطاجني) لعلي أجد تصنيفا لهذا الإبداع، فعجزت، وقلت: يا ولد لابد إن العيب فيك، وفي تكوينك الشخصي، وإلا فكيف يعجزك مثل هذا التعبير حتى يرتفع ضغطك وتطلب الإسعاف؟

والحقيقة أن المشكلة ليست في عبقرية هذا التعبير في حد ذاته، بل في الهيئة التي اتخذتها المذيعة الفاضلة قبل أن تنطق به.

فقد هيأت «الجو» بأن جلست ـ أولا ـ وخلفها مجلدات ضخمة مرسومة رسما ينفع الواحد منها لتسند به ضلفة الباب من الخلف، في حالة هجوم الأشرار المسلحين علي بيتك، الذي يضم حرمتك وعيالك، ثم ـ ثانيا ـ وضعت ساقا علي ساق، ونثرت بحركة واثقة رشيقة شعرها المستعار المصبوغ بالأصفر، وارتخت للوراء، وهي تنظر شذرا (للعبد لله شخصيا)، واتخذت هيئة عباس محمود العقاد «المشمئنطة» و.. قالتها: «ونجتمع لفيفا في عندها»

فقفزت مهللا: وجدتها، ولصق التعبير في حلقي الجاف ورحت، غصبا عني، أكرره بآلية،

ونجتمع لفيفا في عندها، ونجتمع لفيفا في عندها»

ومازلت أكرره من ساعتها، وحتى هذه اللحظة.

لذا، فانك إن وجدت ـ عزيزي القارئ شخصا أشعث أغبر يمشي في الأسواق ممزق الثياب ويردد «ونجتمع لفيفا في عندها» فاعلم أنه العبد لله، لكن بعد أن أصابه الإلهام.

***

في اليوم التالي علي إصابتي بالإلهام الشديد وجدت بين يدي ثلاث مجموعات شعرية لثلاث من نجماتنا الفضليات (ممثلتان ومذيعة) فقلت ها أنت يا ولد قد وجدت ضالتك، فتعلم.

وجلست بعد أن هيأت الجو بعلبة كليوباترا سوبر وكوب

كبير من الشاي الثقيل لزوم «المخمخة» وفتحت أول مجموعة شعرية، وكانت بالصدفة للمذيعة المبجلة، فوجدت من الإبداع ما يعجز لساني عن وصفه، لكن ما استوقفني حقا هو هذا التعبير الفذ الذي أدعوكم جميعا لحفظه حتى تنالوا نصيبكم، وتعلموه لأبنائكم من بعدكم ليصبح مثلا تتوارثه الأجيال.

قالت لا فض «فوها»:

والأشجار المتعلقة «بشآويش» الغيم تروح تجيء حتى استلقيت علي الفراش الخاوي..»

ورفعت السماعة واتصلت بالمرحوم الشيخ محمود شاكر اللغوي الكبير الراحل لأسأله عن كلمة الشآويش، وهل هي جمع شائيش ام شائش، لكن الشيخ شاكر رحمه الله أغلق السماعة في وجهي، وأظن انه اعتقد أنني امزح، فقد كان رحمه الله رجلا جادا لا يحب المزاح.

لكن المشكلة انه لم يعطني الفرصة لأشرح بأنني كنت جادا جدا.. والله العظيم.

والآن إلي السؤال:

ما الذي يدفع مثله أو مذيعة ناجحة جدا، مشهورة جدا، وغنية جدا، أن تقتحم عالم الشعر، في الوقت الذي نعرف أن الشعراء في بلاد العرب، هم أفقر الناس، واقلهم شهرة ونجومية.. إلا ما ندر؟

هل تريد أن تقاسمهم القروش القليلة التي يحصلون عليها من دواوينهم؟

أليس هذا بالله عليكم قمة الطمع ،و.. حراما و.. عيبا؟

***

دلالات عدم إنتاج الكتب

الأرقام المتداولة هذه الأيام، حول نشر الكتب في العالم، تدفع العقل للاضطراب، والقلب للانتفاض، والروح للحزن الشديد.

فمقارنة أرقام ما هو منشور عندنا (في طول العالم العربي وعرضه) بما هو منشور في بلاد الدنيا، وحتى بأصغر الدول (ثروة وسكانا) يدفعنا لأن ندعو جميع سكان الوطن العربي الكبير ليدفنوا وجوههم في التراب، لمدة دقيقة حتى ولو للتدليل علي أننا مازلنا نعرف الخجل.

علي سبيل المثال، الأرقام التي أوردها الزميل فردريك معتوق (الحياة 22 ديسمبر 96) تقول:

بلغ إنتاج عناوين الكتب الجديدة عام 1996 في بريطانيا 69015 كتابا، وفي فرنسا 45311 كتابا، وفي اسبانيا 44261 كتابا، وفي هولندا 34067 كتابا، وفي بلجيكا 13913 كتابا.

وللعلم فان عدد سكان بلجيكا هذه لا يزيد علي عشرة ملايين

مواطن.

أما ما نشر في مجمل البلدان العربية (22 بلدا بعد انضمام جيبوتي لجامعة الدول العربية) والتي يبلغ سكانها 200 مليون (تقريبا، فليس هناك إحصائية دقيقة حتى عن عدد الرؤوس) نقول أن ما نشر في مجمل بلاد بني يعرب لم يزد عن 8171 كتابا في العام نفسه.

مع العلم بان هذه الإحصائية (نظن) تشمل الكتب المدرسية والجامعية التي (نظن) لا مفر من نشرها بحيث انه لابد (نظن) من سير العملية التعليمية الميكانيكية التي تتحول عندنا بقدرة قادر حكيم، إلي عملية تجهيلية.

طبعا نحن هنا نتحدث عن الأرقام، أي عن الكم، أما الكيف فانه لا مندوحة (!) سيهبط بالرقم إلي نسبة لا تزيد علي 10 ٪ عن مجمل ما ينشر في بلادنا العزيزة.. «اللزيزة».

والعبد لله حين يقول أن نسبة ما هو متقن وجيد ودقيق في معلوماته ومصادره، جديد في أفكاره، لا تزيد في مجال الكتب عندنا علي 10 ٪ فانه لا يمزح، فقد قضي من عمره، أي أكثر من ثلاثين عاما علي علاقة بأغلب دور النشر العربية، حتى ليستطيع القول بمعرفته المؤكدة بأسباب النشر.. أي: لم تنشر الكتب ولمن وكيف، حتى إن احدي دور النشر طبعت كتابا يسب جهة التمويل التي تصرف عليها وعلي وجودها، لأن المسئول عن

النشر لم يقرأ الكتاب إلا بعد أن قرأه الممول وذهب إليه وهو يرغي ويزبد و «سام جام غضبه» علي يافوخه.

إذن نهنئ عالمنا العربي بسكانه ألمائتي مليون علي ما أنتجه من عناوين بلغ عددها العام الفائت 807 كتاب ونهنئه مقدما علي الرقم الذي سيظهر عن عام 1997م الذي لابد انه سيهبط إلي ما دون الثمانين، فلا نامت أعين الجبناء.

أليس المثل السائر عندنا يقول: «الذوق ليس في الكتب»؟

لكن هل الذوق ليس في الكتب وحدها عندنا؟

المهم الآن إننا نوصي كل عربي يجلس علي طاولة مباحثات أمام شخص من هذه البلاد المتقدمة، (سواء كان الموضوع صفقة تجارية أم ثقافية) أن يطأطئ الرأس ويتحدث بأدب.

فذاك من بلاد تنتج الكتب.

وهذا من بلاد تنتج الكذب.

***

الأغاني في عرض للأزياء

أن يلجأ المغني إلي المظهر الحسن فهو أمر مقبول ومعقول ولا غبار عليه، لكن أن يصبح هم بعض مغنياتنا الشابات والعجائز للأسف تغيير الفساتين بين كل أغنية وأخري بقصد إثارة غرائز المشاهدين عبر إظهار الصدور وما فوق السيقان

إلي حد يصرف الناس عن الاستماع للصوت والإيقاع والكلام لهو أمر يدفع للقول، مع من قال سابقا، بأن الأمور تحولت من أداء غنائي إلي عرض أزياء (ديفيليه بلغة أهل هذه المهنة) يخلط الأمور، ويكشف عن عجز من تقوم بذلك ويؤكد علي إنها وقد فشلت في جذب الناس عبر صوتها وأدائها وكلمات أغانيها إلي عارضة أزياء محترفة ومغنية هاوية، وهذه هي الأمور التي أدت إلي انحدار الأغنية حي وصلت بها إلي الهاوية.

بالتأكيد لسنا ضد أن ترتدي المغنية فستانا جميلا مناسبا لها ولسنها، ولا حتى أن تظهر من مفاتنها ما يجعلها مقبولة من قبل المشاهدين المطالعين للقنوات التلفزيونية التي أضحت الوسيلة الأهم والأكثر انتشارا بين الناس، لكن أن يكون الفستان أهم من اللحن، أو الكلمة أو طريقة الأداء المتقنة، هذا هو الذي يدفع للقول بأن الأمور قد اختلطت علي المغنين وعلينا، فلم يعد الواحد منا يعرف ماذا يطالع بالضبط، عرض أزياء أم أداء غنائي.

كاتب هذه السطور يتابع حين يتوفر له الوقت بعض عروض الأزياء العالمية التي يتفنن فيها بعض المصممين العالميين الذين ارتقوا بخطوطهم إلي درجة راقية من الفن، خاصة حين يلجأ بعضهم إلي ملابس الشعوب يستلهم منها تصاميمه ويضفي عليها طابعا عصريا، وبعض هؤلاء لديه وجهة نظر فنية غاية في العمق والشفافية تقترب بهم إلي مصاف الفنانين الكبار أصحاب الرؤى،

لكن، وللأسف، ولأسباب ليس هنا مكان عرضها، فان عددا كبيرا من أشهر هؤلاء ما هم إلا مهرجين غاية في التفاهة والسطحية ولا يطلبون إلا وجه الدولار والشهرة الفارغة.

إذن المسألة ليست اعتراضا علي الأزياء بقدر ما هو اعتراض علي خلط الأمور، تلك الصفة التي أضحت معلما بارزا في حياتنا حتى انك لم تعد تعرف ما يقدم إليك، خاصة في فضائياتنا المستحدثة. ما هو بالضبط هل هي نشرة أخبار، أم استعراض لنشاط المسئولين، هل هذا برنامج حوار جاد ومفيد أم استعراض لأصوات، هل هذه أغنية أم عرض أزياء؟.

وفي الأخير نقول أن أم كلثوم لم تكن ترتدي الخرق البالية، ولا تعلق في رقبتها العقود المزيفة الرخيصة، بل كانت ترتدي من أجمل الثياب وأغلاها، وتتشح بأرفع الجواهر وأكثرها جمالا، لكنها لم تكن أبدا عارضة أزياء، بل مغنية تتطلع إليها لكي تستمع إلي صوتها لا أن تبحلق في «صدرها» أو ما فوق ساقيها.

لأننا بعد لحظات لن نقول أبدا عن مثل هذه الشملولة يا لها من مغنية ، كما،ولأنها لا تحسن عرض أزيائها كما المحترفات من بنات هذه المهنة، لن نقول أيضا يا لها من عارضة أزياء جميلة، إذن فماذا سنقول: لا شيء.

أليس هذا قمة الضياع؟!.

***

نظام العائلة في الإنتاج

شاهدنا طرفا من نظام العائلة المهني في مسلسل أرابيسك الذي بثته أكثر من فضائية عربية، وان كان الأمر يقتضي إلقاء نظرة سريعة علي المقصود.

فالمعروف انه وطوال فترات ما قبل التصنيع الحديث الذي جري بتخطيط من محمد علي، كانت المهن تنتقل من جيل إلي جيل عبر عائلات احترفت مهنة ما، وعلمتها لأولادها، وأحفادها، عبر تقاليد خاصة وملزمة، أهمها أن يتم اختيار الأفضل ليكون هو «معلم» الحرفة الذي يخطط ويقود ويعلم الأبناء الصغار أو الأقارب، لكنه قد يكون صبيا شاطرا استطاع أن يبز أبناء المعلم الذي يقوم بتنصيبه، وقد قرأنا الكثير من القصص التي سردت أمثال هذه الحكايات الطريفة والنبيلة.

إذن نظام العائلة كان يضع القيمة مقياسا له، وليس صلة الدم، لذا فان ما نراه هذه الأيام في مجال الفن والإعلام من تعيين للأولاد وأولادهم في أماكن بارزة دون أن يكون هؤلاء علي أية درجة من الموهبة أو الكفاءة، لا يمت لذلك التاريخ القديم بأية صلة، بل هو من قبيل الفساد الذي انتشر وذاع هذه الأيام، والذي يشكل أحد الأسرار المهمة في هبوط مستوي الفن، كما مستوي

الإعلام، في كثير من الفضائيات، خاصة تلك التي هي تابعة لهذه الدولة أو تلك. لكن ويا ليت الأمر توقف بوباء الفساد إلي تعيين الأبناء والأقارب، دون نظر للموهبة والكفاءة، بل امتد ليشمل كل من لجأ إلي الواسطة التي أضحت هي السر الأكبر الذي يقف وراء الهبوط الكبير الذي نراه في إعلامنا كما في الفن السائد هذه الأيام.

ذلك، لأن الفساد، وكما تعلمنا الأيام، إخطبوط ذو ألف رأس ورأس لا يتوقف عن ولادة الرؤوس التي يزج بها في كل شيء حتى يتجلي في أبرز صورة وأقبح هيئة، فالفساد ذو طبيعة وبائية فيروسية ما أن تتاح له ظروف النمو حتى يتكاثر وينتشر ليأتي علي الأخضر واليابس، فهكذا هو، يحب أن ينشر القحط والظلام ولا يرتاح دون أن يحقق وجوده ويقضي علي كل خير.

أحكي هذا كله اثر اتصال هاتفي أكد لي أن الصورة ليست مظلمة تماما، وان هناك من لا يزال لديه ضمير، ولنقل أيضا حب للمهنة وإخلاص لها، وإدراك إلي انه لا يصح أبدا سوي الصحيح.

اتصلت بمخرج صديق لأسأله في أمر فإذا بي اكتشف انه ترك البيت غاضبا، وما أن نجحت في الاتصال به حتى اخبرني بان سبب تركه للبيت يعود إلي خلاف شديد جري بينه وبين زوجته وابنته اثر توليه مسؤولية في احدي الفضائيات، ووجدتها الأم فرصة لتعيين ابنتها مذيعة سرعان ما تصبح «نجمة» لكن

الرجل الذي لا يزال يتمتع بخلق المسئول المحترم، يعرف أن ابنته التي درست الاقتصاد، علي الرغم من حسنها وملاحتها، لا تصلح لمهنة تحتاج إلي علم ومعرفة وقدرات خاصة، فرفض، وكانت نتيجة رفضه انه يعيش الآن في أحد الفنادق،بعيدا عن بيته، والغريب كما قال لا فض فوه، إن الأم وابنتها لا تريدان أن تفهما، إن ما يفعله هو في النهاية في صالح البنت التي هي ابنته، وهو من شدة حبه لها، لا يريد أن يكذب عليها، ويورطها في مهنة هي ليست مهنتها، في الوقت الذي هي تعمل في مهنتها في موقع محترم وبراتب كبير، لكن يبدو أن الحماقة أعيت من يداويها كما يقول شاعرنا الهمام.

الأغرب من كل هذا أن الحجة الوحيدة التي رفعتها الأم والابنة في وجه الأب المسكين هي أن مسئولين آخرين انتهزوا الفرصة وعينوا أبناءهم وبناتهم في المؤسسات التي يتولون أمرها، فلم لا يفعل مثلهم؟

بالطبع فان صاحبنا لا يستطيع الإجابة عن هذا السؤال الصعب، كما أسئلة أخري أكثر صعوبة، خاصة وان الرجل يحب ابنته حبا شديدا لدرجة انه لا يستطيع الكذب عليها، بل فضل المنفي علي ارتكاب هذه الجريمة، التي يري أنها اكبر الجرائم لأن معناها أن عليه أن يخلع ضميره ويلقي به في كيس الزبالة.

***

البحث عن «بورن» عربي

قضية «بورن» إحدي القضايا الإعلامية الكبرى التي أثيرت منذ سنوات وهزت أركان المجتمع الألماني الذي عاش أياما وأسابيع امتلأت بالعجب والتساؤل والخوف الشديد، الأمر الذي جعل الجميع ـ في ألمانيا ـ يتساءلون: كيف يمكننا، ونحن في مجتمع متقدم، أن نطمئن علي ما يقدم لنا في التلفزيون الذي أضحي ملاذنا الأول للحصول علي المعلومات؟

والقصة أن السيد «بورن» هذا باع عدة محطات تلفزيونية ألمانية عشرات البرامج والتقارير الوثائقية والأفلام المتلفزة وقد ادعي انه قد التقطها من مواقع في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية وسط عصابات الاتجار في المخدرات والسلاح، بل وتمادي وقدم تقارير يؤكد فيها (بالصورة والمعلومة) أن هذه العصابات لها ذيول في ألمانيا نفسها.

ونجح «بورن» في تسويق العشرات من هذه البرامج، ليس فقط لمحطات تلفزيونية خاصة، بل إلي العديد من المحطات الرسمية وشبه الرسمية، والي كبري المحطات الألمانية التي تشارك فيها مؤسسات ألمانية وأوروبية مرموقة.

لكن، ولخطورة ما قدمه بورن في بعض تقاريره اضطر القضاء

الألماني للتحقيق فيها، فإذا به يكتشف أن كل ما قدمه السيد بورن وأذيع علي الناس ملفق قام هو بتركيبه وتخليقه، الأمر الذي دفع القضاء الألماني في النهاية إلي الحكم عليه بأربع سنوات سجنا،متهما إياه بالتزوير والعمل علي إثارة المشاعر العنصرية ضد الأجانب.

وإذا كان هذا قد حدث في ألمانيا، البلد المتقدم الذي يتمتع قضاؤه بسلطة نافذة ويستطيع إنسانه أن يميز بين الغث والسمين، فماذا عن ما يجري عندنا؟

ألا تجعلنا هذه الحادثة نتساءل عن كثير من البرامج التي تأتينا من هنا وهناك، ونحن نراها ونصدق ما فيها، دون أن نعرف ما إذا كانت قد جاءتنا عبر بورن هذا نفسه، أم أشباهه الذين لا أشك في أنهم منتشرون في بقاع الأرض؟

مجرد سؤال.. بريء.

***

ساعة الفن الجميل

في أميركا اخترعوا «لنفسهم» آلية خاصة لمعالجة سلبيات مجتمعهم الاستهلاكي تنبني علي إستراتيجية المكاشفة والمصارحة التي بلا حدود، بحيث انه لا يوجد «فيتو» علي مناقشة أي موضوع، أو قضية، أو حدث، أو حتى شبهة حدث،

أو إشاعة.

ومما يفرزه المجتمع الاستهلاكي من مشاكل، وما يطرحه الجادون من أبناء هذا المجتمع ومفكريه من حلول واقتراحات وبرامج مبنية علي العلم، تأتي شرارة التقدم.

لذلك نلاحظ انه بقدر ما في المجتمع الأميركي من سلبيات، هناك ايجابيات، كما أن هناك مثقفين كبارا يريدون لمجتمعهم أن ينبني تقدمه علي العلم الحقيقي، والفهم الحقيقي، والوعي الحقيقي، وهؤلاء وان كانت وجوههم غير مشهورة ولا تواجد كبيرا لهم في أجهزة الإعلام التي تعتمد في إعلاناتها علي المواد الاستهلاكية، إلا أن لهم أصواتا مسموعة، وأول من يسمع لهم هم أصحاب القرار الذين يأخذون الأمر بجدية حين يكون الكلام عن تقدم المجتمع (مجتمعهم) ومحاربة سلبياته وظواهره المريضة، وهذه الظواهر المريضة موجودة في كل مكان وزمان.

ونحن، كعرب، من المفروض أن نكون أكثر ذكاء في اختيارنا لما نستورد من المجتمع الأميركي، خاصة في مجالات الفنون والآداب والثقافة بوجه عام، فبقدر ما يوجد هناك رامبو وبامبو وعامبو يوجد أيضا «وودي آلان».

وبقدر ما يوجد كتاب روايات التسلية مثل جوان كولنز، يوجد أيضا ترومان كابوتي وسالنجر وكرواك.

ونحن طبعا لا نريد أن نكون غلاظا فنطلب أن يكون كل ما

يقدم لنا عبر شاشاتنا الفضائية العربية من النوع الجاد «الشديد»، ولكن كل ما نطلبه أن تكون النسبة معقولة ما بين الهيافة والجدية، بين المسلي الذي تراه وأنت تأكل الهامبورجر، وبين الجميل والمدهش الذي تهيئ نفسك وعائلتك لتجلس أمامه وعيناك مفتوحتان، وقلبك مستعد للحركة، وذهنك علي أهبة التفكير، ووجدانك مهيأ للرقي واليقظة والتفاعل مع الجمال الحقيقي والفن الحقيقي حتى تعيش حالة التوازن المطلوبة في نفسك، لتتأكد وتحس أن الحياة تستحق حقا أن تعاش، لأن فيها ما هو أكثر من الهيافة والسطحية، وتجد موضوعا للحوار بينك وبين أبنائك لتقيهم شر العنف الذي يحاصرهم 24 ساعة في اليوم، في البيت والشارع.

نرجوكم «حصة» واحدة (ولو لمدة ساعة) كل يوم من الفن الجميل الراقي إنقاذا لما يمكن إنقاذه من عقول أبنائنا، وإلا فإننا سنصحو ذات صباح فنجد شبابنا وقد تحزموا بالأحزمة المفخخة، وتمنطقوا بالمسدسات، وانتظرونا في الشوارع رافعين القبضات الحديدية في وجوهنا، وساعتها لن ينفع ندم.

***

الأغنية والشاعر المفقود

إذا كان نجيب محفوظ قد انتشر في الشارع العربي عن طريق الأفلام التي أخذت عن رواياته، فان نزار قباني قد انفجر في الشارع نفسه بواسطة الأغنية التي حملت قصيدته إلي الملايين.

هذه الشهرة العريضة إذن لا علاقة لها بالقيمة الأدبية لأي من الأديبين، أو لنقل أن معرفة الناس العاديين بهذا الأديب أو ذاك ترتبط بالوسيط الذي يوصلهم إليه.

وإذا كانت السينما وسيطا جماهيريا (كان) له دور كبير في تعريف الناس غير المختصين بالأدب عن طريق الرواية، وهنا يقف إحسان عبد القدوس في الصف الأول من المشاهير، فان الأغنية هي الوسيط الأكثر جماهيرية التي رفعت عددا من الشعراء إلي مصاف النجوم. نذكر أن شاعرا مقلا لا يزيد إنتاجه علي عشر قصائد أو يزيد قليلا هو كامل الشناوي عرفته الجماهير العريضة حين غني له نجوم الغناء فأصبح اسمه علي كل لسان، في الوقت الذي بقي فيه شعراء عظام لهم إنتاج يعلوه قيمة ومكانة وظلوا حبيسي مكتبات المثقفين والنقاد، وفي أحسن الأحوال مدرجات الجامعة والدرس الأدبي الأكاديمي.

هذه القضية، قضية الاتصال بين الناس والأدباء، هي إن كانت

بحثا كتب فيه الكثيرون، من علماء الاتصال، وأساتذة النقد في الغرب، إلا أنها لم تكن أبدا موضوع بحث عندنا، علي الرغم من أهميتها الشديدة.

وإذا كانت هذه نقطة تقصير عندنا فان نزار قباني كما إحسان عبد القدوس، وهما الأشهر عند الناس، لم ينالا ما يستحقان من بحث علي أيدي النقاد، وكأن شهرتهما الجماهيرية قد أضحت، بمعني من المعاني، لعنة أصابتهما فظلا حبيسي الشهرة، دون أن يكونا موضوع دراسة جادة تضعهما في هذا المكان أو ذاك من سلم الأدب الذي تجاهلهما حتى عد هذا نقصا آخر في حقهما وانه وان كانت هناك عدة كتب «خفيفة» تناولت أعمال نزار قباني، إلا أن قارئها سيلاحظ خلطا شديدا بين حياة الشاعر الدنجوان، والشاعر الأديب الذي لم يعرفنا أحد من النقاد علي قيمته الأدبية الحقيقية، فهو من هذه الناحية يعد أحد الأدباء المظاليم في عصرنا.

أن المختصين بعلم الاتصال الجماهيري مدعوون اليوم، خاصة إذا كان بعضهم قد مال مزاجه إلي الأدب، لتقديم دراسة جادة عن أسباب الشهرة العريضة التي تمتع بها نزار قباني، كما أن نقادنا الأفاضل مدعوون الآن، وقد رحل عنا الرجل، إلي القيام بواجبهم الحقيقي ليقدموا لنا الجانب الآخر من نزار قباني، علي الأقل حتى يثبتوا لنا مدي جديتهم وعدم تخليهم عن دورهم

المنوط بهم، أم هل هذه ستظل أمنية لن تتحقق إمعانا في ظلم شاعر أنصفه الناس وتجاهله النقاد؟.

***

التراث الشعبي تأكله الأيام

كم هو ـ يا تري ـ حجم تراثنا الشعبي الذي يضيع ويتبدد، وتأكله الأيام؟

انه حجم رهيب.

الأغاني الريفية والبدوية وأغاني العمل والبحر والأفراح والطهور والحصاد، وغيرها من القبيل نفسه، تلك التي تغطي مساحات شاسعة من خريطة الوطن العربي، هذه الأغاني الجميلة ذات الإيقاع الفريد والمتميز، بكل منطقة عن الأخرى، سهلا كانت أو جبلا، أو مدينة.

هذه الأغاني التي تشمل كل مناحي الحياة إن كان ساعة الحزن أو ساعة السرور، يموت حافظوها ومؤدوها واحدا واحدة، دون أن تتحرك الجهات المسئولة عن جمعها وتبويبها ونشرها قيد أنملة، علي الرغم من أن عددا كبيرا من مراكز «حفظ التراث» تنتشر هنا وهناك، ولكن حصيلة ما يجمع لا تغني ولا تسمن من جوع.

إذا تركنا الأغاني جانبا وتوجهنا ناحية الحكايات والقصص

والملاحم الشعبية لوجدنا إن هناك المئات منها، عبر خريطة منطقتنا طولا وعرضا، وفيها من طرق الحكي والأداء، ما يغالب ـفي رأيي الشخصي ـ أحدث طرق الأداء في الروايات الحديثة التي تأتينا من الغرب، بتقاليع نعجب لها ونندهش، وهي موجودة عبر هذا التراث الفني والجميل والذي يسجل مناحي حياتنا المختلفة عبر أزمان وعصور غائرة في القدم، ونحن نلقي بها إلي مهمل الأيام.

ليس ما يضيع من تراثنا الحضاري فقط، الأغاني والملاحم والحكايات الشعبية، إنما هناك أيضا مصيبة تجري بخصوص الأزياء القديمة، التي هي في نظري أجمل وأكثر إيفاء بالغرض، وملاءمة للبيئة.

إذا تأملنا ما كان لدينا من ملابس وجدنا أن كل مهنة من المهن كانت لها ملابسها، فهناك ملابس الجزارين، والحدادين، والنجارين، والحلاقين، والصباغين، والعطارين، وغيرهم من أصحاب المهن التي تتنوع بتنوع حاجات الإنسان.

ثم كانت هناك ملابس لكل فئة من الفئات المجتمع الأخرى، مقسومة أولا، بين النساء والرجال، ثم بين كل منهما حسب المكانة الاجتماعية أو الطبقية.

فالشيخ (شيخ القبيلة، أو شيخ الجامع، مثلا) لكل منهما لباس مختلف، يختلف إذا ارتفعت طبقته أو قلت، وكذا النساء،

فملابس بنت العائلة الغنية غير ملابس بنت الطبقة المتوسطة وكذا الفقيرة.

وتختلف هذه الملابس من منطقة إلي أخري، وفي مرة جلست مع عدد من الأصدقاء المهتمين بالتراث الشعبي وراح أحدهم يعدد أزياء منطقة واحدة من مناطق الجنوب، فعدّد أكثر من 200 قطعة من ملابس المرأة وحدها بين إزار وثوب وفرطة.. الخ وللأسف أغلب هذه القطع لم ينته استعمالها فقط، بل انتهت الورش التي تصنعها ولم يبق منها ألا أعداد محدودة.

كل هذا يضيع، وتبدو مع تطور الحياة، وكأن هذا الضياع قدر مكتوب علينا، ونحن حتى لم نسجل منها شيئا، فأي غفلة نعيشها؟.

***

كيفية قراءة لوحة فنية

كما أن قراءة رواية أو قصة يمكن أن تكون خاطئة أو صحيحة، فإن قراءة لوحة فنية، أو صورة فوتوغرافية جميلة يمكن أيضا أن تكون علي النحو نفسه: صحيحة أو خاطئة.

والملاحظ المشاهد أن قراءة لوحة من الفن التقليدي، كمنظر طبيعي أو وجه فتاة، يمكن أن تكون عملية سهلة، وان كانت الأعمال العظيمة تحتاج أيضا، في كل الحالات إلي دربة مبنية

علي درس، لكن الأعمال الحديثة من الفن التشكيلي أصبحت أشبه باللغز أمام المشاهد العادي، الذي يفاجأ كل يوم بفنانين جدد يقدمون له أعمالا لا يفهم منها شيئا.

المشكلة نابعة من أن الفن التشكيلي، بعد أن وصل مرحلة الاستقلال التي يعيشها منذ بداية القرن، أضحت له لغة خاصة، هي لغة الألوان، والمساحات، والأبعاد وخلافه يسمي «القضايا النوعية» الخاصة به.

ولا تندهش حين تجد الكثيرين من المشاهدين الذين يجدون أنفسهم في قاعات العرض يقفون مشدوهين مبهورين متعجبين مما يرونه أمامهم من أعمال.

لذا أظن، وكما أننا في حاجة لزيادة عدد قاعات العرض، نحن أيضا في حاجة أشد إلي ورش فنية تعمل علي فتح أبوابها لمن يريد من الناس، خاصة أجيال الشباب، ليتعلموا فيها كيفية قراءة اللوحة، قراءة تشكيلية بعيدا عن القراءة الأدبية التي لم تعد مناسبة للفن الحديث، نعم الحاجة أصبحت ملحة فعلا لهذه الورش، ربما أكثر من حاجتنا لقاعات عرض جديدة.

***

كيفية الشهرة عن طريق الفضيحة

هل تتصور أن يكون هناك شخص، في هذه الدنيا، هوايته أن يحاط بالفضائح، لا يستطيع أن يعيش ويتنفس دون أن تكون هناك فضيحة من حوله، يلوكها الناس ويلهجون بها؟ ويا حبذا لو أنهم قاموا بذلك ليل نهار دون توقف أو انقطاع، عندئذ تري هذا الشخص، أو «الشخصة» من هواة الفضائح في أفضل حالاته، متورد الوجنتين،لامع العينين، مسبسب الشعر، لابسا أفضل ما علي الحبل أو في خزينة الملابس. وغالبا ما تكون هذه «الفضيحة» كذبة مجانية، أو تمثيلية غير حقيقية، أي «فضيحة فالصو» مختلقة، لا أساس لها من الواقع، ولم تحدث إلا في خيال صاحبها، غالبا لأن هذا النوع من البشر هو من الجبن إلي درجة أنه لا يستطيع أن يكون طرفا في معركة حقيقية، هو بعيد عن روح الفروسية، قريب من روح التآمر،هو جبان حقيقي، ومن هذه الناحية يمكنك أن تكتشف فيه «صفات» أو لنقل رذائل أخري، كأن تجده أكثر الناس وصولية وانتهازية، لأن من كانت شيمته اختلاق الفضائح حول نفسه فان هدفه الأساسي هو أن يكون «في الصورة» بأي ثمن، حتى ولو كان، هذا الثمن هو الشرف نفسه.

نعم، هو يريد أن يكون في الصورة لذا فهو يعرف أمرين:

الأول: أن هناك، للأسف، سوقا رائجة لبضاعته الفاسدة، يجدها في «بعض» وسائل الأعلام التي تعتقد أن الفضيحة وسيلة جيدة لاجتذاب الناس، الذين هم، وأيضا للأسف، يقبلون علي الفضائح بنهم شديد، إما للتسلية، أو النميمة، أو ليجدوا موضوعا يشغلون به وقت فراغهم.

الثاني: إن صاحبنا ليس لديه شيء حقيقي، ليست لديه موهبة أو إمكانات خاصة تشغله عن العبث، ولأنه مريض بالتواجد في الصورة، فإن هذه هي وسيلته الوحيدة التي يملكها وبدلا من أن يرضي بما بين يديه، فانه يسعي لأخذ ما في أيدي الآخرين، الذين هم في الغالب الموهوبون المهمومون الذين يعملون ليل نهار وهؤلاء غالبا، هم هدفه الأول الذين يصب عليهم جام غضبه وحقده لينتزع ما في أيديهم، وربما ما في أرجلهم.

فهو لا يهمه أن يمشي الناس حتى لو كانوا حفاة.

***

« تصعيب » ما ليس صعبا

بعض الناس يحبون تعقيد وتصعيب الأمور، حتى تلك التي لا تحتاج إلي أي تعقيد.

وتراثنا الشعبي العربي ملء بالحكايات التي تصور هذه الحالة، التي تبدو عند البعض مستعصية.

من هذه الحكايات حكاية ذلك الرجل الذي سأل صديقا له إذا كان يعرف ذلك الحيوان الذي له مائة قدم، وستون رقبة، وعشرون أذنا طويلة، وخمسون قدما، وسبعون ذيلا، وسبعة عيون، وخمسة أفواه، وألف لسان.

نظر الصديق للمسألة، وأخذ يفكر ويفكر، وعاد إلي سائله قائلا: لا أعرف.

فقال له الصديق أنه أمر سهل، وقد يكون هو حيوان تتعامل معه أنت يوميا، في حقلك وفي مشاويرك، وهو حيوان أليف ومطيع، ومسالم، ولا يعض، ولا يعصي أمرا.

فتفكر الصديق في الأمر، وحالت بينه وبين الإجابة تلك الأوصاف العجيبة المعقدة، فلا يمكن أن يكون هناك حيوان له كل هذه الأرجل، والأفواه، والذيول، والعيون، والألسنة.

وقال لصاحبه أرجوك. لقد عجزت عن الإجابة: أجب أنت.

فنظر السائل إلي المسئول قائلا: إنه الحمار لكن أردت أن أصعّبها عليك.

هكذا بعض الناس، وكان الله في عون من يعيش مع أمثالهم.

***

الذهاب بالمسلسل إلي الرواية

كل عام نتعرض لهجمة مسلسلات رمضان التي يجري العمل فيها علي قدم وساق وذراع (5 آلاف ساعة تسجيل من التلفزيونات المصرية لوحدها) علينا أن نتوقف للحظات مع كل تلك المسلسلات التي رأيناها في السنوات الماضية، وبنظرة متأملة وهادئة نجد ملاحظة تدفعنا لتسجيل الحقائق التالية:

ـ المسلسلات الجيدة، في أغلبها الأعم، تلك التي حققت مفارقة أرضاء الجمهور العريض المقدمة له، وتقديم مستوي فني راق، كانت هي تلك المأخوذة عن روايات أدبية كتبها روائيون لهم باع في مجال الكتابة الروائية، وبالقطع فإن السيناريو المكتوب عن هذه الأعمال أقتضي ضرورات تحويله إلي عمل بصري، لكن «المادة الأساسية» أخذت عن هذه الروايات، وهذا في تقديري المتواضع، هو السبب الرئيسي وراء الثقل الفني (والإنساني بالتالي) الذي يضع هذه الأعمال في مجال الذاكرة، ليظل أغلبها في أذهاننا كعمل خالد لا ينسي، علي الرغم من أن طبيعة الدراما التلفزيونية هي كونها أعمالا استهلاكية نراها لتمر، وقد لا نذكرها بعد حين.

ـ علي النقيض من ذلك فإن النسبة الكبرى من الأعمال الدرامية

التي لم ترض الجمهور كما لم تحقق مستوي فنيا راقيا، هي تلك الأعمال التي كتبت أصلا للتلفزيون، ونحن نقول أن أغلب هذه الأعمال فاشلة لا كلها، وفي الحالتين هناك استثناءات، لكن القاعدة تظل سليمة.

تذكروا معنا الأعمال المأخوذة عن روايات وقصص نجيب محفوظ، وفتحي غانم، ويوسف إدريس وغيرهم تجدون أن أغلب هذه الأعمال نجحت جماهيريا، كما أنها كانت ذات مستوي مرموق.

لماذا؟

ربما لأن الروائي حين يكتب، فإنه لا يضع في حسبانه الممنوعات الرقابية (الاجتماعية والرسمية) التي يضعها كاتب الدراما التلفزيونية منذ اللحظة الأولي في اعتباره، وعلي هذا الأساس يعمل الروائي بحرية أكثر، ولديه مساحة أوسع للإبداع والانطلاق وتفجير الخيال، دون أن يضع في ذهنه كل المعوقات التي لابد أن يبدأ كاتب الدراما التلفزيونية وهي في اعتباره، وهذه المعوقات، علاوة علي أنها تتزايد كل يوم عن الآخر للأسف الشديد، هي أيضا معوقات إنتاجية، وفنية، وفكرية، وجمالية، وكان الله في عون كتاب الدراما، الذين سرعان ما يعتادون علي هذه المعوقات لتصبح جزءا من ذهنيتهم، وهكذا نشاهد فقر دم واضحا في أغلب هذه الأعمال.

أقول هذا كله بمناسبة موجة جديدة من الأعمال الدرامية المأخوذة عن روايات لكتاب مختلفين عن الجيل الرائد ومن تلاهم، فنحن نشاهد هذه الأيام في تلفزيون الكويت مسلسلا جميلا، مثيرا ومشوقا في الوقت الذي هو فيه عمل فني راق، مأخوذ عن رواية «الوتد» للكاتب خيري شلبي، الذي يؤكد نجاح مسلسله عل أن الحل الوحيد أمام كتاب التلفزيون أصبح الآن في تناول الأعمال الروائية الجيدة وتقديمها للناس المتشوقين للجديد والمختلف.

نري إذن أن الرواية هي الحل، وإلا فإن الناس سيغلقون التلفزيونات وينامون مبكرا جدا.

***

الإنسان أصله كاسيت

أحيانا تمر بمنزل مفتوح من منازل جيرانك، أو أقاربك، فإذا بك تجد الكاسيت مفتوحا علي آخره، يدوي في البيت، علي الآخر. تسأل: هل أصيب أهل البيت بالصمم، أم أن هناك فرحا، أو عيد ميلاد، أو خطوبة، أو أي شيء من هذا القبيل، لكنك تكتشف أن لا شيء من هذا يحدث، أي أنه ليس هناك مناسبة من تلك المناسبات التي نحب أن نفخر بها، ونعلن عنها بالصوت «الحياني» العالي.

وكل ما في الأمر أن البنت « المفعوصة» «سيدة» أو «خديجة» أو «فاطمة» تقوم بمسح البيت، ولأن عادتها حين تمسح البيت فإنها تقلبه رأسا علي عقب، لذلك فهي تضع الكاسيت في الصالة وتفتحه علي الآخر، حتى تستمع إليه من كل أرجاء البيت، حتى لا تفوتها كلمة من الأغنية الهابطة التي انتشرت وسادت وأصبحت كالوباء.

طبعا الكاسيت لوحده لا يحدث كل هذه الجلبة والدوى الهائل، لكن الجهاز موصل باستيريو ضخم، أصبح هو الآخر موضة.. أو وباء عصريا انتشر في أغلب البيوت، حتى أصبح وجوده في بيوتنا علامة مميزة علي الحياة العصرية، والمشكلة نفسها تواجهك في الشارع.

ـ الولد الغندور اشتري له والده، بمناسبة فشله في الدراسة سيارة جديدة أسبور، والأهم أنه زودها باستيريو من هذا النوع الرهيب، وبمجرد أن يضع قدمه في السيارة فإنه يفتح الكاسيت علي الآخر، وبالأغاني الهابطة نفسها ذات الكلمات الرديئة التي تدل علي تفاهة كاتبها، والموسيقي التي هي مجرد خبط ورزع.

لكن المهم أن الصوت يدوي، والطبول تدب، ويدور الغندور في الشوارع والأسواق بلا هدف، إلا توزيع هذه الأصوات المزعجة علي الناس الغلابة المهمومين أمثالنا، دون رحمة.

ـ الأخ «سيد» صاحب البوتيك علي ناصية الشارع، يريد أن

ينافس صاحب المحل المجاور في إثبات وجوده، فجاء بإستيريو أكبر يرقع بالصوت في أرجاء الطريق.

هذا السلوك أصبح آفة، وطبعا هناك قوانين تمنع إزعاج الآخرين، لكن لا يمكن لرجال القانون أن يكونوا مسئولين عن كل صغيرة وكبيرة من سلوكيات الناس، لأن معني هذا أننا نحتاج «شرطيا» لكل شخص، وهذا أمر لا يمكن أن يحدث في أي بلد في العالم.

ما هو الحل إذن؟

ـ لا أجد حلا عمليا ومعقولا سوي أن نبدأ بالمدرسة، التي يجب أن تقرر فيها مادة أساسية تسمي «السلوكيات»، التي يجب أن تكون مادة رسوب ونجاح، فهذا هو الحل الممكن والوحيد علي الأقل، لننقذ الأجيال المقبلة من حالة التردي الحالي التي أصبحت علامة كبري علي تخلفنا.

***

الحقيقة وعكسها في مسألة الأنا والآخر

يظن بعض المسئولين في البلاد العربية، خاصة أولئك الذين توكل لهم الأمور بخصوص «الرعايا الأجانب».. أنهم حين يسيئون إلي «رعايا» البلاد الأخرى، فإنهم بذلك يهينونهم ويبخسوهم حقهم ويهيلون علي قدرهم التراب، و الحقيقة عكس ذلك تماما.

فالأجنبي في بلدي هو في النهاية، إن كنت قد نسيت أنني عربي، وأن من قيمي الأصيلة الكرم الذي تربيت عليه، هذا الأجنبي لا حول له ولا قوة، وأن أي تصرف فيه إهدار لكرامته، إنما يعكس أخلاقي، وبالتالي، فإنني حين أقبل أن أهينه، إنما أهين نفسي، بل، وبالذات إن كنت مسئولا عنه، فإنما أهين بلدي.

سؤال تسمعه كثيرا من «الخواجات» الذين يخشي هؤلاء المسئولون المساس بهم، بل يعاملونهم في الغالب بأكثر مما يستحقون، يقول: لم يتلذذ العرب بإهانة العرب الآخرين في بلادهم؟

سؤال جارح ومؤلم يكاد يجعل المرء ينزف دما وهو يسمعه يتكرر كل يوم وكل لحظة وفي كل المناسبات.

هل الحل في مشروع «ميثاق الشرف العربي»؟

هل الحل في «محكمة العدل العربية»؟.

لا أظن.

فكم من معاهدات صيغت، وكم من مواثيق تم التوقيع عليها، وكم من بروتوكولات أقيمت واحتفلنا بها، وصفقنا لها، بل كم من مقالات كتبت وقصائد شعر ألقيت، ثم أهلنا عليها التراب، وخسفنا بها الأرض، ومزقناها إربا، وأنكرناها جهارا نهارا.

لم نكف عن الحديث عن معاني الكرم، لكننا علي أرض الواقع، فعلنا عكس ما رفعنا من شعارات.

أليس هناك أي حل إذن؟

أعتقد أن الحل يمكن أن يكون في إعادة النظر إلي مناهج التعليم، كما في نهضة ثقافية وفكرية شاملة، تؤديان متضافرتين إلي خلق إنسان مختلف، إنسان يري في إهدار كرامة أي إنسان أمرا غير مقبول منه شخصيا، مهما كانت جنسية هذا الإنسان، إنسان جديد يحس أن إهانة الآخر، ما هي إلا إهانة للذات، وأن الافتئات علي حقوق الغير، لابد أن ينتهي بالافتئات علي حقوقه، فأنت لا يمكن أن تفتري علي خلق الله ثم تعيش في أمان، فالحق لابد أن يعود إلي صاحبه، مهما طال الزمن، والشر لابد أن يتواري وينقشع مهما مرت الأيام، أليس هو الدرس الذي يتكرر عبر الأزمان والحقب، هل رأيتم طاغية لم ينل العقاب اللازم، أو أن التاريخ كتب اسمه بحروف من نور؟

نعم. أعرف أن هذا حل صعب، ويحتاج إلي أجيال وعقول جديدة، لكن هذا هو الطريق السليم بل والوحيد، لا لحل هذه المشكلة الجزئية وحدها، بل للخلاص من مشاكل العرب كلها وعلي رأسها إحساسهم بأنهم عرب لهم قيم غائرة في التاريخ علي رأسها قيمة إكرام الضيف واحترام الآخرين، لأن العرب كانوا يرون في الترحيب بالغريب مفخرة يتنافسون بها علي الخلق أجمعين.

***

موقعة الكراكيب الأخيرة

أعترف لكم بأنني هذه الأيام مريض نفسيا.

كلما نظرت في المرآة وجدت وجهي أصفر وعيناي أحاطت بهما هالات زرقاء.

وكلما وقفت لأذهب للحمام أخذت قدماي تهتزان ويداي ترتعشان.

وكلما هززت رأسي قائلا: خير إن شاء الله، وجدت ذاكرتي «تمسح» ما فيها بلا توان، وعقلي «يفوّت» بلا توقف.

باختصار، وكما يقول صديق يستخف دمه: «أمر بظروف معينة».

أي، أكرر، مريض نفسيا، والسبب في مرضي النفسي، الذي أرجو من الله أن يكون عابرا، هو أنني وجدت نفسي محاطا بالكراكيب من كل اتجاه (والكراكيب،لعلمك، أعزك الله، هي كل ما هو مستعمل حتى الثمالة من كل شيء فارغ، علب كرتونية متهرئة، برطمانات لهطت ما فيها من مربي ومسحتها مسحا، أوعية مخرومة، ملابس أكلتها «العثة») لا، لست محاطا، بل محاصرا من كل اتجاه، وفي كل مكان، في غرفة معيشتي ومطبخي، في دورة مياهي وغرفة نومي، بل وعريني الذي ظننته مقدسا وكم دخلت في معارك حتى لا تطأه قدم غير قدمي: غرفة مكتبي.

فالسيدة «أم سيد» هي الإنسان الوحيد الذي لا يمكنني الاستغناء عنه، بعد أن تركتني زوجتي وفرت هاربة بجلدها، لأنني، لعلمك، رجل خيبان، لا يعرف كيف يخب أو يطب، بالنسبة لشئون الغسيل والمكوي والطبيخ وترويق المكان وتنفيض المفارش ومسح البلاط، لذا، أقول، فإن السيدة أم سيد هي أهم شخصية في حياتي المعاصرة، وحتى أعود من ميتتي الأولي (لأنني كفرعوني أؤمن بالتناسخ) وهي قررت بعد هدنة مؤقتة استمرت عدة أسابيع أن تقوم بمهمتها المقدسة كدفتر توفير، أو شهادة البنك الأهلي للادخار، وتخزن كل كركوبة فارغة في كل مكان فارغ.

فبمجرد أن تهل بطلتها البهية في الصباح الباكر حتى تجري ناحية صفيحة الزبالة، وتستخرج الزجاجات الفارغة، والبرطمانات المهتومة، وعلب السجائر المفعصة، والقمصان التي تمزقت أكمامها من الصفيحة الغلبانة، وتترك كل شيء، وتبدأ في العناية بمخلوقاتها الصغيرة الجميلة: تغسل البرطمانات، وتلمع الزجاجات، وتنفض الكراتين، وتعود بها في حالها الجديدة وتقوم بتخزينها كما قلت عاليه، هنا وهناك،في كل وأي مكان تجده صالحا للادخار، فعلي رأيها: «البرطمان الأبيض ينفع في اليوم الأسود».

طبعا لم يعجبني الحال، وقمت صارخا ومحتجا باعتبار أن هذا البيت هو آخر قلعة أحتمي بها من عوادي الزمن، ولم أكد أنتهي من صراخي واحتجاجي علي هذا الاحتلال، حتى قالت بهدوء قاتل، وبرود يحسدها عليه السيد «إزرا باوند» الذي كان يقول بأن علي الشاعر أن يكون مثل لوح الثلج:

ـ أنت زعلان من كراكيبي، أليست هي أنفع من كراكيبك؟

واعتراني الذهول، لا، لأنها قالت الجملة السابقة، بل لأنها ركضت كالمجنونة، وأمسكت برزمة جرائد لم أكن قد قرأتها بعد، وكومة كاسيتات لم أسمعها، وحزمة كتب جديدة اشتريتها بالأمس، وألقت بها في قلب ساحة المعركة علي الأرض، وأضافت:

ـ «ماذا تساوي هذه الكراكيب التي تزحم بها البيت، هل يمكنك أن «تخلل» فيها اللفت، أو تحفظ فيها زيت القلية المستعمل، أو تبيعها في وقت الزنقة لبائع الروبابكيا، وأنت جالس هكذا عاطل عن العمل، ولا تذهب لمكتب؟

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل إنها لمت طرحتها فوق رأسها، وفتحت باب الشقة وخرجت، لا تلوي علي شيء.

طبعا «تميزت» (كذا) غيظا، وإمعانا في إغاظتها، علي الرغم من أنها لم تعد موجودة، حملت كتبي بلهفة، وكاسيتاتي بشوق، وجرائدي بحنان، ودخلت غرفة نومي، وتمددت علي فراشي، ونثرتها من حولي، وزيادة في العناد فتحت التلفزيون، وأشعلت الراديو، وأخذت أفتح هذا وأفض تلك، حتى انقضي النهار وأتي الليل، فإذا بحالة عجيبة غريبة تنتابني، فكأن إلهاما تلبسني، فأخذت أنظر لأتأمل ما حولي بهدوء يقتضيه الحال، فوجدت أن ما قالته «أم سيد» كان هو عين العقل.

فقد وجدت نفسي قد أمضيت يومي مع صحف ليست صحفا، وكتب ليس بينها كتاب يسر الخاطر، وكاسيتات لا «تبح» سوي حشرجة، وبرامج تعاملنا وكأننا أطفال قصّر،لذا انتابتني هذه الحال التي أنا عليها الآن، ورأيت أنني لا بد أن أعالج نفسي حتى ولو في مصحة، لكن عليّ قبلها أن أمر علي بيت «أم سيد» لأعترف لها:

ـ نعم يا أم سيد، كراكيبك أحسن من كراكيبي، علي الأقل هي تنفع في تخليل اللفت.

***

صورة الهانم تحذف الكتب من النشر

عدت من الكويت بعد أن قضيت هناك ست سنوات عملت فيها في جريدة القبس، وأنشأت مجلة الفنون للمجلس الوطني للثقافة، وكان غيابي طوال هذه الفترة قد أضرني من الناحية الأدبية، إذ فاتتني فعاليات عديدة، غيابي عنها، أكل من بريقي كما قال الدكتور صلاح فضل في مقالته (بجريدة الأهرام الغراء) عن رواية «مواعيد الذهاب إلي آخر الليل» التي هي رواية عن تجربة الكويت، ولكن لم يكن هذا البريق يهمني، بل انه، حين تزايد وملأ الدنيا، تسبب لي في عداوات عديدة،مع زملاء عديدين،من كتاب الرواية خاصة،ولكن ما اشتكيت منه لصديقي «ميم صاد» الذي كان في زيارتي،في بيتي المطل علي بحيرة قارون (الفيوم) هو نفاد طبعات كتبي السابقة، فإذا به يأخذ الموضوع بجدية تليق بصديق، ويمسك بالتليفون، ويتصل بأحدهم، ويعود إليّ، وكنت أتطلع إلي ذلك المنظر الرائع من شرفة بيتي في الفيوم وقال:

ـ «خلاص يا سيدي المشكلة أتحلت»؟

ـ كيف؟

ـ اتفقت لك مع «فلان» علي نشر أعمالك في أكثر السلاسل شهرة؟

ـ أيها؟

ـ مكتبة الأسرة.

ـ يا ساتر، لكنهم يضعون صورة المدام علي ظهر غلاف كل كتب مكتبة الأسرة.

(وكنت طبعا أقصد بالمدام سوزان مبارك زوجة الرئيس الذي كان)

ـ وماذا في هذا؟

قال صديقي.

لكنني قلت:

ـ أنا لا أريد أن أكون مثار سخرية القراء، خاصة من الأجانب.

ـ كيف؟

ـ منذ أسبوع ذهبت وصديقي المستعرب جورج ستيوث الباحث الاجتماعي في المسألة المصرية (والذي يحاول معرفة العربية) لشراء بعض الكتب من مكتبة هيئة الكتاب في شارع ثروت، وما أن أخذنا نتطلع إلي الكتب حتى وجدت جورج ينفجر في نوبة ضحك، فسألته: ما لذي يضحكك؟

قال وهو يقلب عدة كتب ليريني ظهورها: هيا الهانم كتبت كل الكتب دي؟

فهمت مقصده، فالرجل استغرب من وضع صورة الهانم / المدام، علي ظهر كل هذه الكتب التي تنوعت مابين روايات، ودراسات، ودواوين شعر والخ.

ـ قال صديقي: ما الذي تعنيه؟

قلت:

ـ هل من الممكن أن تنشر كتبي بدون وضع صورة المدام علي أغلفتها، فهذه كتبي لا كتبها، ولا أري أي حق لها في ذلك؟ إذا تحدثنا فقط من ناحية الحق.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أن هذا أيضا مظهر ممجوج من مظاهر النفاق الذي يسئ، لا فقط للكتّاب، بل وللمدام نفسها، ولزوجها نفسه ، ولدار النشر، وحتى «للمطبعجية» الذين يطبعون هذه الكتب، وحتى الباعة في المكتبات، فلا بد أنهم ووجهوا بهذا السؤال الذي سأله جورج، ولا أظن أن أيا من هؤلاء يستطيع تبرير هذا الفعل المستهجن.

ـ طيب أحاول.

قال الصديق، وأمهلني لحظات، ليعيد الاتصال بالمسئول الكبير وينقل له سؤالي المشروع، لكنه عاد متجهم الوجه وقال:

ـ خلاص الموضوع انتهى.

ـ ما الذي انتهى؟

ـ مشروع نشر كتبك، فالرجل قطع المكالمة طالبا مني إغلاق الموضوع تماما.

- بهذه السرعة؟

- نعم.

ـ يعني ليس هناك إمكانية لنشر كتبي إلا بشرط أن تنشر صور المدام علي ظهرها؟.

لم يستطع صديقي الاستمرار في الكلام، ورأيت علامات الخجل علي وجهه، لذا فقد غير الموضوع وبدأ يتغزل في المنظر الجميل الذي يطالعه من شرفة بيتي الصغير المطل علي بحيرة قارون، أما أنا فقد رفعت كأسي عاليا، ورحت أردد أغنية عبد الوهاب:

خي، خي،

حبيبي آسي ليه يا خي.